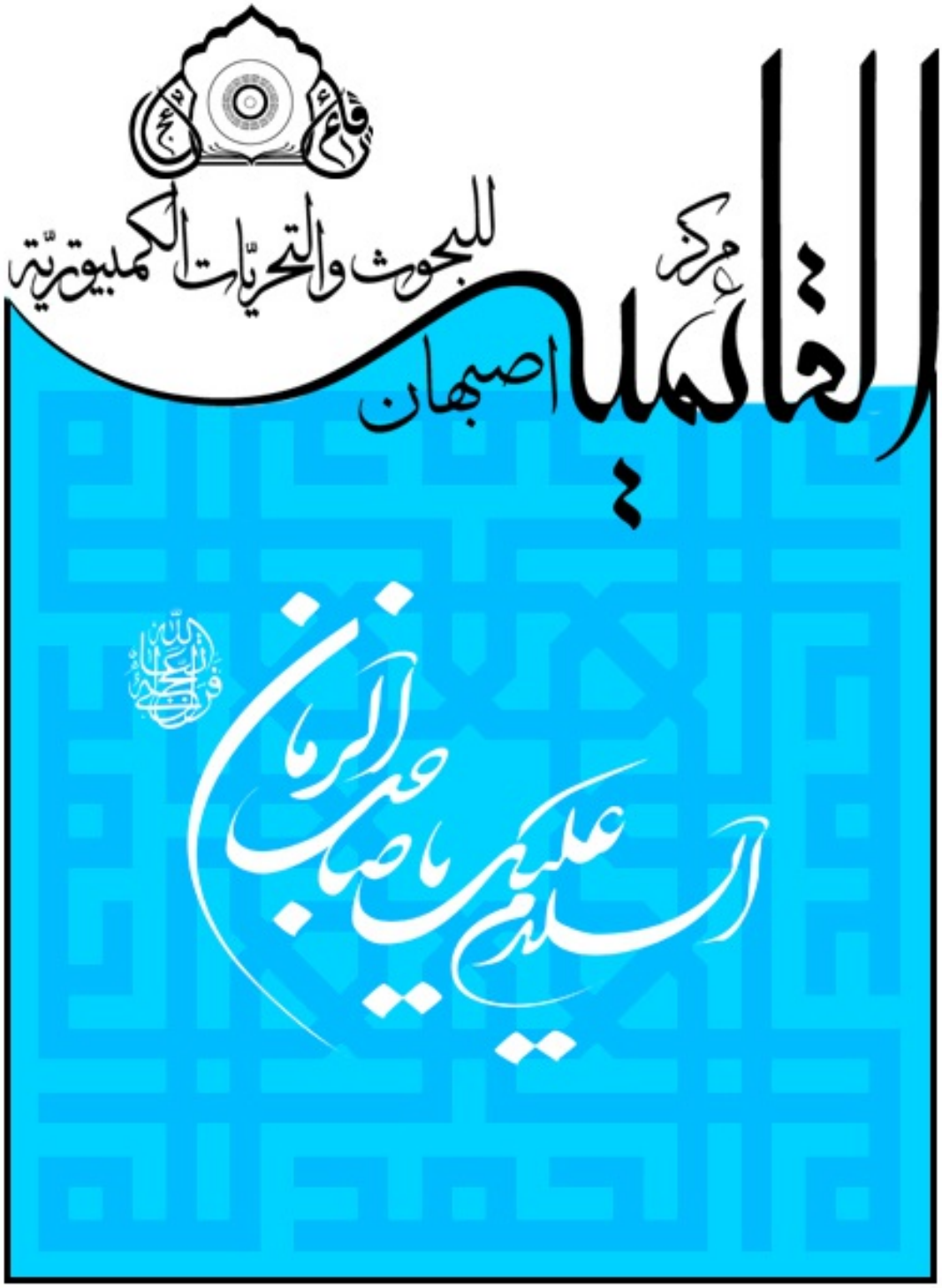

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

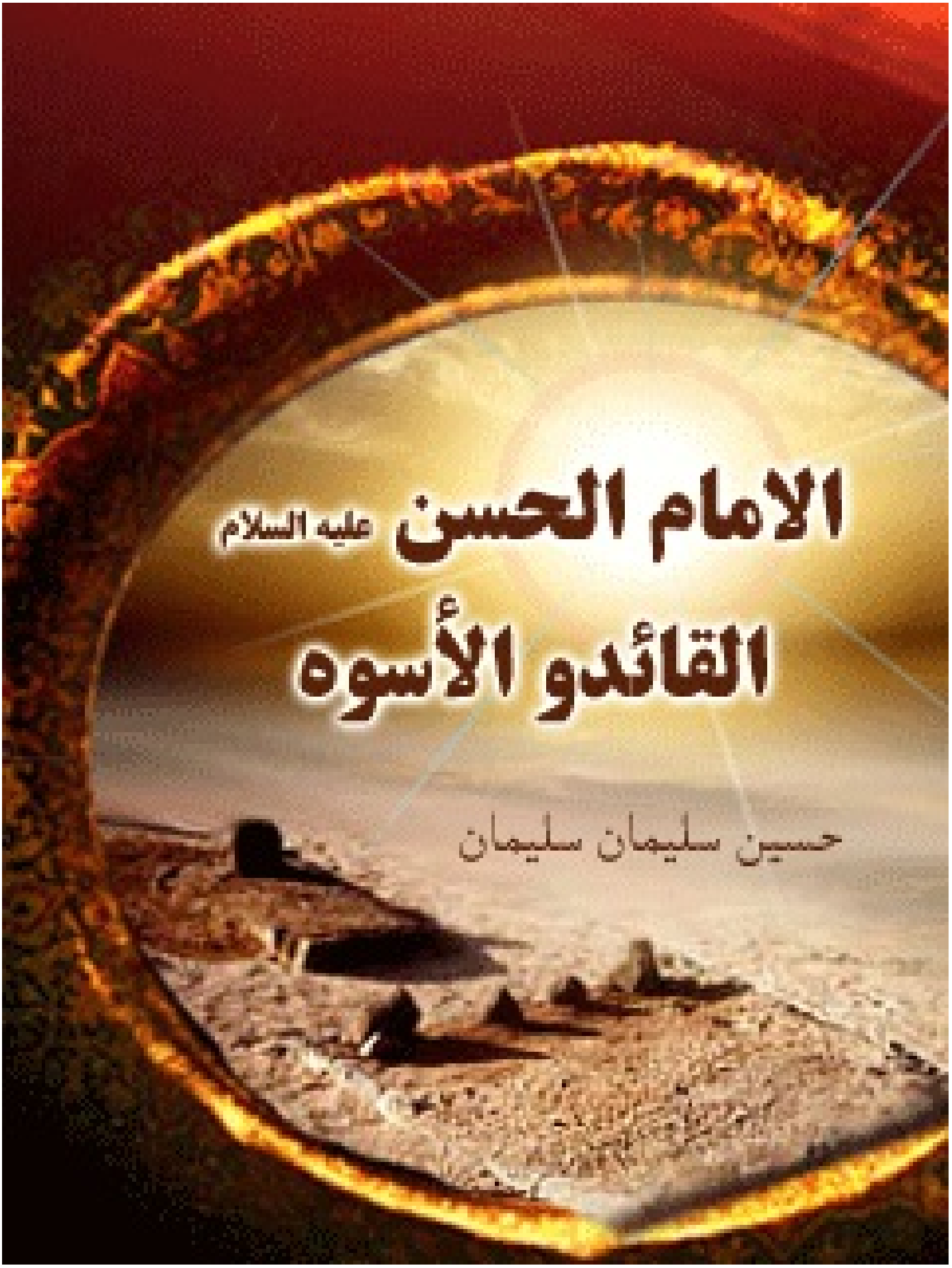
الامام الحسن عليه السلام
القائدو الأسوه
حسين سليمان سليمان

بسم الله الرحمن الرحيم

الامام الحسن القائد و الاسوه

كاتب:

حسين سليمان سليمان

نشرت فى الطباعة:

دارالسرور

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
الامام الحسن علیه السلام القائد و الأسوه ----- ۸
اشارة ----- ۸
المقدمة ----- ۸
مولد النور ----- ۱۳
اشاره ----- ۱۳
القابه ----- ۱۴
زوجاته ----- ۱۴
اولاده ----- ۱۴
اوصافه ----- ۱۴
اخلاقه ----- ۱۵
عبادته ----- ۱۷
مکانة الحسن عند رسول الله ----- ۱۷
الحسن فی مدرسة النبوة ----- ۱۹
امامته ----- ۲۲
مراجعة تاریخیة سریعة ----- ۲۴
اشاره ----- ۲۴
علی والخلفاء ----- ۲۷
اعتزال الامام ----- ۳۲
حکومة الامام علی ----- ۳۶
مشکلات الامام علی ----- ۳۷
خاتمة حکومة الامام علی ----- ۴۶
عهد الامام الحسن ـ البیعة العامة ----- ۴۷

اشاره ----- ۴۷
بدایة الأزمة ----- ۴۸
التعبئة العسکریة فی الدولة الاسلامیة ----- ۵۲
الفکر الاستراتیجی عند الإمام الحسن ----- ۵۴
اشاره ----- ۵۴
خیانات الجیش ----- ۵۸
مخطط اغتیال الإمام الحسن ----- ۵۹
رسائل عملاء الکوفة إلی معاویة ----- ۶۲
مطالبة الجماهیر بالحل السلمی و ممارسة الضغوطات علی الإمام ----- ۶۳
اتفاقیة الهدنة... الشروط والنتائج ----- ۶۵
اشاره ----- ۶۵
اضواء علی شروط الإمام الحسن ----- ۶۶
اشاره ----- ۶۶
ادارة الدولة ----- ۶۷
ادارة الشؤون المالیة ----- ۶۷
سیاسة الأمن فی الدولة ----- ۶۷
سیاسة الدولة مع المعارضة ----- ۶۷
تعامل الدولة مع قادة التحرک ----- ۶۸
وقفة مع روایة الصلح الشبهة والرد ----- ۶۹
الامام الحسن و ردود الفعل ----- ۷۶
اشاره ----- ۷۶
التیار الجماهیری المتعاطف ----- ۷۷
موقف الإمام مع الطلیعة ----- ۷۸
عدی بن حاتم ----- ۷۸

مالک بن ضمرة ---- ۷۹
حجر بن عدی ---- ۷۹
ابوسعید عقیقا ---- ۸۰
فصل الشهادة ---- ۸۱
اشاره ---- ۸۲
والمطاف الأخیر تشییع جنازة الإمام ---- ۸۳
التعلیقات ---- ۸۴
حول زوجات الحسن ---- ۸۴
حول مذکرة المصریین لعثمان ---- ۸۶
حول معاویة بن أبی سفیان ---- ۸۷
حول الخوارج ---- ۸۷
اشاره ---- ۸۷
الازارقة ---- ۸۸
النجدات ---- ۸۸
الیزیدیة ---- ۸۸
المیمونیة ---- ۸۸
الصفریة ---- ۸۸
العجاردة ---- ۸۹
ممیزات الخوارج ---- ۹۰
حول قول الإمام علی لجماعته بعد رفع المصاحف ---- ۹۰
حول استشهاد الإمام علی ---- ۹۰
الخاتمة ---- ۹۲
پاورقی ---- ۹۳
تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ---- ۱۰۱

الامام الحسن عليه السلام القائد و الأسوه

اشارة

سرشناسه : سليمان، حسين سليمان

عنوان و نام پديدآور : الامام الحسن القائد والاسوه/ تاليف حسين سليمان سليمان

مشخصات نشر : بيروت : دارالسرور، ق ۱۴۲۰ = .م۱۹۹۹ = .۱۳۷۸.

مشخصات ظاهری : ص ۲۶۴

وضعيت فهرست نويسی : فهرستنويسی قبلی

يادداشت : کتابنامه: ص. ۲۳۹ – ۲۳۷؛ همچنين به‌صورت زيرنويس

موضوع : حسن بن علی (ع)، امام دوم، ق ۵۰ – ۳

رده بندی کنگره : BP۴۰/س۱۸۴الف۸

شماره کتابشناسی ملی : م۸۱–۲۰۰۹۷

المقدمة

الحمد لله على نعمة الإسلام الذى جعله الله سبيلاً لإنقاذ الإنسان من التيه والغىّ والفساد والضلال وقيادته نحو الهداية والكرامة والوعى والنجاة، والصلاة والسلام على رسوله الأكرم منقذ البشرية وهادى المضلين إلى سبيل الرشاد وعلى أهل بيته الأطهار الصراط الأقوم إلى السماء وسفينة النجاة وقادة الأمة وأئمة المسلمين بالحق..

أما بعد:

فى سيرة أئمة الدين (عليهم السلام) لا يوجد شك فى أنّ كلٌ منهم كان يحيا فى زمان، معين، وأنّ زمان ومحيط كل واحد منهم، كانت له اقتضاءات مختلفة. وحيث أنّ كل إنسان يتوجب عليه بالضرورة أن يتّبع مقتضيات زمانه، فإنّ الدين قد ترك الناس أحراراً من هذه الناحية. وفى صورة تعدد الأئمة المعصومين (عليهم السلام) وتعاقبهم، أو طول عمر واحد منهم، فإنّ الإنسان يتمكن بشكل أفضل، من تشخيص روح التعاليم الدينية، وفرزها عما يكون ممتزجاً بها من مقتضيات الزمان، فيأخذ الروح ويترك الأمور المختصة بتلك المقتضيات تماماً كالمثال الذى يدور حول حياة الزهد، حيث كان الرسول (صلّى الله عليه وآله) يعيش الفقر، بينما لم يكن الإمام الصادق (عليه السلام) مثلاً: كذلك.

ولتبيان جوانب هذا الموضوع نرى فى الحديث المعروف الوارد فى (الكافى) [۱] ، وكذلك فى (تحف العقول)، أن سفيان الثورى دخل على أبى عبد الله (عليه السلام) فرأى عليه ثياباً بيضاً... إلى أن قال: فما أنكرت يا ثورى، فوالله إنى لمع ما ترى، ما أتى علىّ، قد علقت، صباح ولا مساء، ولله فى مالى حق أمرنى أن أضعه موضعاً إلا وضعته.

وفى حديث آخر: (عن معتب قال: قال لى أبو عبد الله (عليه السلام) وقد تزيّد السّعر بالمدينة: كم عندنا من طعام؟ قال: قلت، عندنا ما يكفينا أشهر كثيرة، قال: أخرجه، وبعه. قال: قلت له: وليس بالمدينة طعام!! قال: بعه، فلما بعته قال: اشترى مع الناس، يوماً بيوم، وقال: يا معتب، اجعل قوت عيالى نصفاً شعيراً، ونصفاً حنطة، فإن الله يعلم أنى واجد أن أطعمهم الحنطة على وجهها، ولكنى أحب أن يرانى الله قد أحسنت تقدير المعيشة) [۲] .

يريد الإمام بعمله هذا أن يبين لنا كيف أن الإسلام بشكل أساسى يفرض على المسلم أن يكون سلوكه بين الناس مقروناً بالإحسان وممزوجاً بالعدل والإنصاف ولا ـ يهم بعد ذلك أن يضع خبزه فى البيت، أو يشتريه من السوق، أو يأكل خبز القمح، أو الشعير، أو

يخلط القمح بالشعير...

وهكذا فبملاحظة الاختلاف بين عمل رسول الله (صلّى الله عليه وآله)، وعمل الإمام الصادق (عليه السلام)، فإننا نتفهم روح الإسلام بشكل أعمق، ولو أن الإمام الصادق (عليه السلام) لم يبين لنا هذا الأمر، ولم يوضحه، لكُنا اعتبرنا هذا الجانب من عمل رسول الله (صلّى الله عليه وآله)، والمتعلق بعصره الذى كان يعيش فيه، جزءاً من الدين الإسلامى، وبضم الآية الكريمة: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً) [۳] وهذه الآية تأمرنا بالتأسى برسول الله (صلّى الله عليه وآله) إلى هذا الأمر.

ونستطيع أن نقول كلمة حاسمة أن الأئمة (عليهم السلام) عندما يتحركون فى الحياة فإن كل حركتهم تمثل الخط العملى لأسلوب الدعوة فى القرآن الكريم، الدعوة فى أخلاقيتها والدعوة فى حركيتها، والدعوة فى قضايا الصراع، وهذا ما يريده القرآن الكريم ويتحرك فيه أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، وهو أن يكون كل واحد منا داعية بكل شخصية لتكون كل حياته دعوة فى سبيل الله وتجسيداً للخط الأخلاقى الإسلامى فى مسألة الدعوة إلى الله تعالى.

ومن جانب آخر لا ـ يمكن أن نقسّم أسلوب الأئمة (عليهم السلام) بحيث مثلاً: لا يمكن أن نفكر بأن الحسين (عليه السلام) يعيش ذهنية العنف، وأن الحسن (عليه السلام) يعيش ذهنية اللين. إنّ الأسلوب الحسنى ـ إذا صح التعبير ـ كان أسلوباً حسينيّاً، وإنّ الأسلوب الحُسينى، كان أسلوباً حسنياً. كيف نفسّر ذلك؟

إننا عندما نواكب مسألة حركة الإمام الحسن (عليه السلام) فى خلافته فإننا نجد أنّه كان ثورياً كأعلى درجات الثورة فى خطابه السياسى وعندما ندرس وندقق فى مفردات كتبه إلى معاوية فإننا نجد فيه أنه كان يعيش عمق العنف فيما يمثله الجهاد فى هذا المجال، وعندما يكون صالح فإنّه صالح على أساس أنّ الظروف الموضوعية كانت تقف به بين خطين:

إما أن تسقط المعارضة محلها، فلا ـ يبقى هناك صوت للحق يعارض الباطل، وإما أن يحتفظ ببعض المعارضة التى يمكن أن تمثل استمراراً للخط فى مواجهة الباطل الذى استطاع أن يفرض نفسه على مساحة كبيرة من الواقع، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإنّ الحروب التى كانت تدور بين المسلمين فى خلافة الإمام على (عليه السلام) قد أتعبت المسلمين، ولذلك أتعبوا عليّاً (عليه السلام) بأسلوبهم فى السير معه وحجبت الرؤيا عن فضائح الأمويين وعن سيئاتهم ووحشيتهم وضلالهم، وما إلى ذلك لأننا نعرف أن أية أمة لا يمكن أن تميّز بين اللون الأبيض واللون الأسود فى حالة الحرب، لأنّ حالة الحرب تمثل الحالة الرمادية، فى ما هو الوعى المنفتح على كل قضايا الواقع، فالناس فى حالات الحرب يفقدون الخطوط الواضحة للمبادئ، ويستغرقون فى مفردات الحرب، ليسجلوا نقطة على هذا، وليستغرقوا فى هزيمة هنا ونصر هناك، وما إلى ذلك، ومن هنا كان من الصعب جداً توعية الناس بالواقع الذى يمثله الحكم الأموى، لذلك كانت المصلحة الإسلامية العليا التى تحكم مسيرة الإمام الحسن (عليه السلام) هى أن يحفظ البقية الباقية من المعارضة لتمثل الامتداد فى خط المواجهة للباطل، وليعطى الناس فرصةً لتتفهم من خلال التجربة الواسعة من هم بنو أمية، وما هو الحكم الأموى لذلك كان يهيئ المجال لثورة الحسين (عليه السلام). وقد لاحظنا انه عندما ثارت ثائرة المتحمسين من أصحاب الإمام الحسين (عليه السلام) ضد الإمام الحسن (عليه السلام)، كان الإمام الحسين (عليه السلام) يدافع عن موقف الإمام الحسن (عليه السلام) ويتحدث عن شرعيّته بكل قوة، وإذا صحّ أنّ الحسين (عليه السلام) وقّع وثيقة الصلح عندما طولب بذلك كما وقّعها الحسن (عليه السلام) فإنّ معنى ذلك أن الحسين (عليه السلام) كان يسجّل موافقة مباشرة على الصلح.

وربما كان هذا هو ما يفسّر أن الحسين (عليه السلام) لم يطلق الثورة فى وجه معاوية ما دام معاوية حيّاً، لأنّ الالتزام بهذا الصلح كان بحكم موقفه إذا صحت الروايات وهكذا نرى أنّ الإمام الحسين (عليه السلام) أعطى للسلم إمكاناته، ولو من خلال إقامة الحجّة وكان يعمل على أساس أن يقدم الحجج التى كانت بيده على شرعيته فى أحاديث رسول الله (صلّى الله عليه وآله)، وكان يطلب من الناس أن يشهدوا على ما سمعوا به، وكان يحاول أن يطرح بعض الحلول السليمة، ولكن القضية وصلت إلى الحد الذى عبّر عنه الإمام

الحسين (عليه السلام): (ألا وإن الدعيّ ابن الدعيّ قد ركّز بين اثنتين، بين السلّة والذلّة، وهيهات منا الذلّة) [۴] .

عندما طلب منه أن ينزل على حكم ابن زياد ويزيد بن معاوية، ومعنى ذلك إلغاء الرسالة وإلغاء كل الشرعيّة، لأن النزول على حكمهم معناه إعطاء كل شيء لهم.

لذلك كانت المسألة الحسينية تتحرك من خلال الظروف التى أوحت للحسين (عليه السلام) بالقاعدة الشرعيّة لحركته، كما كانت الظروف الموضوعية هى التى حركت الإمام الحسن (عليه السلام) والإمام الحسين (عليه السلام) معه لتطبيق الخط الشرعى على مسألة الصلح، ولذلك كان الحسن حسينياً وكان الحسين حسنياً.

ليس فى الإسلام شيء اسمه العنف المطلق، وليس فى الإسلام شيء اسمه اللين المطلق، وإن العنف يختزن اللين فى ما ينفتح به على كل وقاع الحياة واللين يختزن العنف فى ذلك، باعتبار أن لكل منهما حدوداً معينة وظروفاً معينة.

فقد وقع اهتمامى على قراءة لكل ما وقع فى يدى من كتابات (مؤلفات ومصادر) حول تاريخ الإمام الحسن (عليه السلام) وكنت أحاول قدر جهدى أن أدرس الفترة الممتدة من شهادة أمير المؤمنين علىّ (عليه السلام) حتى شهادة الإمام الحسن (عليه السلام) خاصة وأن التحولات السياسية فى الدولة الإسلامية كانت بداية لمرحلة الانهيار فى نظام الحكم الإسلامى وتشكيل نظام الحكم القبلى وما رافقه من تدهور للبرنامج الإسلامى فى أصعدته المختلفة، الاجتماعى والثقافى والاقتصادى و.. و...

ومن بين الاستنتاجات التى توصلت إليها من خلال قراءة هذه الفترة أن الإمام الحسن (عليه السلام)، عايش مرحلتين: مرحلة انهيار حكومة العدل الإلهى فى عهد الإمام على (عليه السلام)، ومرحلة إقامة نظام الحكم القبلى الأموى على يد معاوية بن أبى سفيان وكان على الإمام الحسن (عليه السلام) أن يبذل جهداً بالغاً فى الحفاظ على المنهج الإسلامى من الضياع قبل أن يتحول إلى منهج أموى بعد دخوله مرحلة نظام الحكم.

وبطبيعة الحال إن التعامل مع مثل هذا الظرف الخطير يحتاج إلى ضريبة، فكانت هذه الضريبة: أن العظماء والقادة لابدّ أن يخسروا فى فتنة التحول المكاسب الظاهرية والتى عادة ما يسيل لها لعاب المؤرخين ذكر هذا الجانب من العظمة تحديداً من تاريخهم، من جهة ثانية وجدت فى كثير من الكتابات حول تاريخ الإمام الحسن (عليه السلام) إنها جمدت عند مقطع معيّن من هذا التاريخ فكانت عملية الإسهاب فى الكتابة عنه قد بلغت حدّاً كبيراً بحيث أعطته اهتماماً بالغاً حتى أصبح هو الطابع العام والسمة البارزة فى حياة الإمام الحسن (عليه السلام)، رغم أنّ الأمر ليس كذلك لأن التاريخ كلٌ لا يتجزأ يؤثر قديمه فى حديثه كما تؤثر وقائعه السالفة فى أحداثه اللاحقة، إضافة إلى أن التاريخ ليس كتلة من التناقضات أو حركة من التطورات الدراماتيكية التى تنشأ بإلغاء مقطع تاريخى سابق لتقيم على أنقاضه مقطعاً جديداً يحمل فى تركيبته عناصر جديدة أو مواد خام مختلفة وإنما التاريخ هو كتلة من التفاعلات المنتظمة تؤثر فى بعضها البعض بصورة تدريجية وتترك آثارها على المراحل بالتوالى، وهكذا هى سنن الله فى التاريخ والاجتماع التى لا تتبدل.

من هنا فإن فهم هذه الحقيقة يدفع للقول إلى أن الوقائع التى حصلت فى تاريخ الإمام الحسن (عليه السلام) إنما هى امتداد لتاريخ ما بعد غياب الرسول (صلّى الله عليه وآله) عن الحياة الدنيا وانحراف نظام الحكم بعدم إقرار الولاية لأمير المؤمنين على (عليه السلام) على المسلمين لمدة ربع قرن من الزمان ثم إفرازات هذا الانحراف على واقع المجتمع الإسلامى فى عهد الإمام على (عليه السلام) والتصدّع الخطير فى الحكومة الإسلامية بسبب انفجار الأزمات الداخلية وحركات التمرّد منذ بداية تولّى الإمام على (عليه السلام) للخلافة ونشوب الحروب فى عهده (عليه السلام) والتى كانت سبباً رئيسياً فى تحطيم الكيان الرسالى الذى كان يستند عليه الإمام فى إقامة حكومة العدل الإلهى، ثم نهاية هذا العهد بطريقة مأساوية بعد أن أصاب جيش الإمام (عليه السلام) التقهقر والانهيار والتعب فى حروب التمرد (الجمل، صفين، الخوارج) حتى انتهت هذه الحكومة باستشهاد أمير المؤمنين (عليه السلام) على يد أحد عناصر التمرّد عبد الرحمن بن ملجم.

وجاء الإمام الحسن (عليه السلام) إلى الحكم والأمة تعيش انهيار شاملاً، لقد جاء الإمام (عليه السلام) إلى الحكم ولكن دون مقوّمات

فلم يكن يمتلك قوة عسكرية تحفظ كيان الحكومة من هجمات التمرّد وغارات العدوّ، ولم يكن يمتلك شعباً متماسكاً يسند الدولة فى الظروف الصعبة بل كان المسلمون موزعين الهوى والهوية.

وجد الإمام الحسن (عليه السلام) نفسه أمام أمة قد انسلخت من قيمها وغلبت عليها شهوة المال وحب الراحة فكان لابدّ أن يبدأ عملاً تغييرياً فى جذور الأمة ليعيدها إلى فطرتها الصافية ويذكرها بمفاهيم الرسالة التى بُشّر بها الرسول (صلّى الله عليه وآله)، فقد عمل الإمام الحسن (عليه السلام) على إحياء هذه المفاهيم بقوة، لأن حركة الوضع والتزوير فى المفاهيم والأحاديث قد نشطت بكثافة رهيبة فى عهد معاوية وهى ـ أى حركة الوضع ـ تعدّ أكبر حركة وضع فى تاريخ المسلمين والتى ما زالت آثارها باقية إلى هذا اليوم حتى أصبحت المفاهيم المتناقضة أمراً اعتيادياً فى مصادر التفكير لدى المسلمين حتى ليصبح معاوية وهو الذى سفك دماء رجال الإسلام العظماء أمثال عمار بن ياسر وحجر بن عدى.. وغيرهما يصبح معاوية هذا أمير المؤمنين وأمين الله على وحيه وأن الرسالة لو لم تنزل على محمد (صلّى الله عليه وآله) لنزلت على معاوية!!

ولقد عمدت فى فصول هذا البحث إلى تفلية الحقبة القصيرة من الزمن بما هى ظرف أحداث لا تقل بأهميتها ـ فى ذاتها ـ ولا بموقعها (الاستراتيجى) فى التاريخ ـ إذا صح هذا التعبير ـ عن أعظم الفترات التى مرّ بها تاريخ الإسلام منذ وفاة الرسول (صلّى الله عليه وآله) والى يوم الناس، لأنّها كانت ظروف الخلافة الفريدة من نوعها فى تاريخ الخلفاء الآخرين، ولأنها بداية إقرار القاعدة الجديدة فى التمييز بين السلطات الروحيّة والسلطات الزمنية فى الإسلام، واللحظة التى صدّقت بأحداثها الحديث النبوى الشريف الذى أنبأ برجوع الأمر بعد ثلاثين عاماً إلى الملك العضوض، ولأنها الفترة التى تبلورت فيها الحزازات الطائفية لأول مرة فى تاريخ العقائد الإسلامية.

ولم يكن قليلاً من مجهود هذه الفصول، أن ترجع ـ بعد الجهد المرتخص فى سبيلها ـ بالخبر اليقين عن الكثير من تلك الحقائق ـ أبعد ما تكون تأتياً فى البحث وأكثر ما تكون تفسخاً فى المصادر، وأقل ما تكون حظاً من تسلسل الحوادث وتناسق الأحداث فتعرضها فى هذه السطور مجلّوة على واقعها الأول، أو على أقرب صورة من واقعها الذى تنشأت عليه بين أحضان جيلها المختلف الألوان.

فإذا بالحسن بن على (عليه السلام) بعد هذا وعلى قصر عهده فى خلافته من أطول الخلفاء باعاً فى الإدارة والسياسة، والرجل الذى بلغ من دقته فى تصريف الأمور وسمّوه فى علاج المشكلات.

وكان من أفظع الكفران لمواهب العظماء، أن يتحكم فى تاريخهم وتنسيق مراتبهم، أناس من هؤلاء الناس المأخوذين بسوء الذوق، أو المغلوبين بسوء الطوية، يتظاهرون بالمعرفة ويرتجزون بحسن التفكير، ثم يتحذلقون بالتطاول على الكرامات المجيدة، دون رويّة ولا تدقيق ولا اكتراث، فلا يدلون بتفريطهم فى أحكامهم إلا على فرط الضعف فى نفوسهم.

وليس يضر الحسن بن علىّ (عليهما السلام) أن تظلمه الضمائر البليدة ثم ينصفه التمييز وأن لهذا الإمام من مواقفه ومن مواهبه ومن عمقه ومن أهدافه ما يضعه بالمكان الأسنى من صفوة (العظماء) الخالدين.

وحسبنا فى هذه السطور أن تجلو عن طريق المنطق الصحيح الذى لا ينبغى أن يختلف عليه الناس، عظمة هذا الإمام، خالصة من كل شوب، سالمة من كل عيب، نقية من كل نقد.

وكانت النقود التى جرح فيها وُقّاح الرأى سياسة الحسن (عليه السلام)، أبعد ما يكونون ـ فى تجريحهم ـ عن النصف والعمق والإحاطة بالظرف الخاص، هى التى نسجت كيان المشكلة التاريخية فى قضية هذا الإمام (عليه السلام) وكان للشهوة الحزبية من بعض، ولمسايرة السياسة الحاكمة من آخر، وللجهل بالواقع من ثالث، أثره فيما أسف به المتسرّعون إلى أحكامهم. ونظروا إليه نظرتهم إلى زعيم أخفق فى زعامته، وفاتهم أن ينظروا إلى دوافع هذا الإخفاق المزعوم، الذى كان ـ فى حقيقته ـ انعكاساً للحالة القائمة فى الجيل الذى قدّر للحسن أن يتزعمه فى خلافته، بما كان قد طغى على هذا الجيل من المغريات التى طلعت بها الفتوح الجديدة على الناس، وأى غضاضة على (الزعيم) إذا أفسد جيله، أو خانت جنوده، أو فقد مجتمعه وجدانه الاجتماعى.

وفاتهم ـ بعد ذلك ـ أن ينظروا إليه كألمع سياسىّ يدرس نفسيات خصومه ونوازع مجتمعه وعوامل زمنه، فيضع الخطط ويقرر النتائج

ويحفظ بخططه مستقبل أمة بكاملها، ويحفر ـ بنتائجه ـ قبور خصومه قبراً قبراً، ويمرّ بزوابع الزمن من حوله رسول السلام المضمون النجاح، المرفوع الرأس بالدعوة إلى الإصلاح. ثم يموت ولا يرضى أن يهرق فى أمره محجمة دم.

ترى، فأى عظمة أجل من هذه العظمة لو أنصف الناقدون المتحذلقون؟ وأن بحثنا هذا يضع نقاط هذه الحروف، مملاة عن دراسة دقيقة سيجدها المطالع ـ كما قلنا ـ أقرب شىء من الواقع، أو هى الواقع نفسه مدلولاً عليه بالمقاييس المنطقية، وبالدراسات النفسية، وبالشواهد الشوارد من هنا وهناك. كل ذلك هو عماد هذا البحث والدراسة، والقاعدة التى خرج منها إلى احكامه بسهولة ويسر، فى سائر ما تناوله من موضوعات أو حاوله من آراء.

وأما المؤلفات الكثيرة العدد التى وردت أسماؤها فى معاجم المؤلفين الأولين، ممّا كتب عن قضية الحسن (عليه السلام) فقد حيل بيننا وبين الوقوف عليها. وكانت مع الكثير من تراثنا القديم قيد المؤثرات الزمنية، وطعمة الضياع والانقراض أخيراً.

وكان ذلك عصب النكبة فى الصحيح من تاريخ الإسلام، وفى المهم من قضاياه الحساسة أمثال قضيتنا ـ موضوع البحث ـ فلم نجد ـ على هذا ـ من مصادر الموضوع: كتاب صلح الحسن ومعاوية، لأحمد بن محمد بن سعيد بن عبد الرحمن السبيعى الهمدانى المتوفى سنة ۳۳۳هـ ولا ـ كتاب صلح الحسن (عليه السلام) لعبد الرحمن بن كثير الهاشمى (مولاهم) ولا كتاب قيام الحسن (عليه السلام)، لهشام بن محمد بن السائب، ولا قيام كتاب الحسن (عليه السلام) لإبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال بن عاصم بن سعيد بن مسعود الثقفى المتوفى سنة ۲۸۳هـ ولا كتاب عبد العزيز بن يحيى الجلودى البصرى فى أمر الحسن (عليه السلام)، ولا كتاب أخبار الحسن (عليه السلام) ووفائه للهيثم بن عدى الثعلبى المتوفى سنة ۲۰۷هـ ولا كتاب أخبار الحسن (عليه السلام) لأبى إسحاق إبراهيم بن محمد الأصفهانى الثقفى، [۵] ولا نظائرها.

أما هذه المصادر التى قدّر لنا أن لا نجد غيرها سنداً، فيما احتاجت به هذه البحوث إلى سند ما، فقد كان أعجب ما فيها أنها تتفق جميعها فى قضية الحسن (عليه السلام) على أن لا تتفق فى عرض حادثة، أو رواية خطبة، أو نقل تصريح، أو الحكم على إحصاء، بل لا يتفق سندان منها ـ على الأكثر ـ فى تاريخ وفق الحادث أو الخطبة من تقديم أو تأخير، ولا فى تعيين اسم القائد مثلاً أو ترتيب القيادة بين الاثنين أو الثلاثة، ولا فى رواية طرق النكاية التى أريدت بالحسن (عليه السلام) فى ميادينه، أو فى التعبير عن صلحه، أو فى قتله أخيراً، ولا فى كل صغيرة أو كبيرة من أخبار الملحمة، من ألفها إلى يائها.

والمؤثرات التى تحكمت فى رقبة هذه المصادر، عند نقاطها الحساسة أثرها المحسوس فى الكثير الكثير من عروضها.

وإذا كان من أصعب مراحل هذا التأليف، إرجاع هذه الحقائق إلى تسلسلها الصحيح الذى يجب أن يكون هو واقعها الأول، فقد كان من أيسر الوسائل إلى تحقيق هذا الغرض، الاستعانة عليه بقرائن الأحوال، وتناسق الأحداث اللذين لا يتم بدونهما حكم على وضع.

وكان من حسن الصدف، أن لا ـ نحرج فى اختيار النسق المطلوب عن الشاهد الصريح الذى بعثرته هذه المصادر نفسها، فى أطوار رواياتها الكثيرة المضطربة، فكانت ـ بمجموعها ـ وعلى نقص كل منها، أولتنا الكاملة على ما اخترناه من تنسيق أو تحقيق، وذلك أروع ما نعتز به من التوفيق.

ووقفنا فى فلسفة الموقف ـ عند مختلف مراحله ـ وقفاتنا المتأنية المستقرئة الصبور، التى لا تستسلم للنقل أكثر ممّا تحتكم للعقل، رجعنا فى كثير ممّا التمسنا تدقيقه، إلى التصريحات الشخصية التى جاءت أذلّ على الغرض من روايات كثيرة من المؤرخين.

ولقد قسّمت البحث إلى ستة فصول هى: الفصل الأول تحدثنا فيه عن ولادة الإمام (عليه السلام) وزوجاته وأولاده وأوصافه وأخلاقه وعبادته ومكانته عند رسول الله (صلّى الله عليه وآله)، وعن إمامته، وأما فى الفصل الثانى فتحدثنا عن مراجعة تاريخية سريعة للأحداث السابقة لعهد الإمام (عليه السلام) فشملت الإمام على (عليه السلام) والخلفاء واعتزال الإمام، وحكومة الإمام (عليه السلام) والمشكلات التى اعترضت الإمام على (عليه السلام) والمتارك لحكومة الإمام (عليه السلام) وأما فى الفصل الثالث فتحدثنا عن عهد الإمام الحسن (عليه السلام) والبيعة العامة. وبداية الأزمة والتعبئة العسكرية فى الدولة الإسلامية والفكر الاستراتيجى عند الإمام الحسن (عليه السلام)،

وخيانات الجيش ومخطط اغتيال الإمام الحسن (عليه السلام) ورسائل عملاء الكوفة إلى معاوية ومطالبة الجماهير بالحل السلمى وممارسة الضغوطات على الإمام (عليه السلام) وعالجنا فى الفصل الرابع اتفاقية الهدنة والشروط والنتائج ووثيقة الهدنة والإجراء الوقائى. ووقفه مع رواية الصلح (الشبهة والرد) وأما الفصل الخامس فقد تحدثنا فيه عن ردود الفعل على الصلح مع معاوية من قبل الطليعة المؤمنة ومواقف الإمام الحسن (عليه السلام) معها، وفى الفصل السادس تحدثنا عن الشهادة والتشيع وشمل البحث قسم التعليقات التى تناولت نقاط مهمة تتعلق بالبحث.

راجين من الله سبحانه وتعالى الأجر والثواب.

حسين سليمان سليمان

يارون. قضاء بنت جبيل

فى ۱۰/۱۰/۱۹۹۶م

الموافق ۲۸/جمادى الأول/ ۱۴۱۷هجرية

مولد النور

اشاره

بسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ، إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ) [۶] .

مكث رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فى مكة المكرمة فترة من الوقت كان يواجه خلالها حرباً إعلامية من قبل رجال قريش، بهدف إقامة جدار بين رسول الله (صلّى الله عليه وآله) والمجتمع كمحاولة لفصل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) اجتماعياً تحت مبررات مختلفة.

وكان من وسائل هذه الحرب القذرة بثّ الشائعات والأضاليل الباطلة والمزيفة فى أوساط الرأى العام القرشى والمكّى منها: أنّ رسول الله أبتر لا عقب له ولا خلف. ولقد سرت هذه الشائعة بين المجتمع المكى ممّا ترك فى نفس رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بعض الحزن والتأثر.

ولكن الله سبحانه وتعالى أبطل هذه الأكذوبة، وبشّر رسوله بأن أعطاه فاطمة سيدة نساء العالمين وسيكون أبناؤه منها وهم اللذين سيشكلون امتداد الرسالة من بعده.

وفى السنة الثالثة للهجرة فى ليلة النصف من شهر رمضان المبارك [۷] (الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ)، جاء الوعد الإلهى بأن ولد الإمام الحسن (عليه السلام) ممّا بعث فى نفس رسول الله (صلّى الله عليه وآله) تباشير الفرح والسرور بأن حقق الله عز وجلّ وعده وبأن ردّ كيد الأعداء من مشركى مكة، ولذلك بقدر ما كان مولد الإمام الحسن (عليه السلام) يضفى على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) السعادة والبشرى، كانت زعامات قريش وأقطاب مكة تعض الأنامل وتتقطع من الغيظ والحقد لفشل المؤامرة الإعلامية ضد رسول الله (صلّى الله عليه وآله)..

وكانت الولادة المباركة فى المدينة المنورة حيث استقبل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) سبطه الحسن سيد شباب أهل الجنة وبدا عليه الارتياح وقام من ساعته إلى بيت الصديقة فاطمة الزهراء (عليه السلام) ونادى يا أسماء أين ولدى؟ فأسرعت به أسماء بنت عميس إلى جده المصطفى (صلّى الله عليه وآله) وقد لفّ الحسن (عليه السلام) فى خرقة، فقدمته إلى جدّه (صلّى الله عليه وآله) فاستقبله والبشرى تلوح على وجهه، فأخذ ابنه برفق، وضمه إليه وراح يلثمه بعطفه وحنانه، ثم بدأ يقطر أذنيه بالإيمان، ويعصر فى روحه آيات التكبير والتهليل، فكان غذاؤه الأول: الله أكبر.. الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله.. أذّن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فى أذنه اليمنى ثم أقام

فی الیسری، لتکون هذه الکلمات القصار، الکثیرة والکبیرة بمحتویاتها أنشودة الإمام أبی محمد الحسن (علیه السلام) فی کل مراحل حیاته یحاول غرسها بکل ما لدیه من جهد فی أعماق النفوس لتکون أنشودة الحیاة جیلاً بعد جیل. وجاء الإمام علی (علیه السلام) إلی فاطمة وسألها عن اسم المولود، أجابته: ما کنت لأسبقک، فأردف علیّ (علیه السلام) قائلاً: وما کنت لأسبق رسول الله (صلّی الله علیه وآله) فجاء الإمام علی (علیه السلام) إلی رسول الله (صلّی الله علیه وآله) فسأله عن اسم المولود، فأجاب رسول الله (صلّی الله علیه وآله)! وما کنت لأسبق ربّی.

فنزل جبرائیل من السماء علی رسول الله (صلّی الله علیه وآله) وقال له: إن الجلیل یقرؤک السلام ویقول لک اسمه حسن، فکان کذلک. ثم عق عنه وحلق رأسه وتصدق بزنة شعره فضةً فکان وزنه درهمان وشیئاً، [۸] وأمر فطلی رأسه طیباً، وسُنّت بذلک العقیقة والتصدّق بوزن الشعر وکنّاه (أبا محمد). ولا کنیة له غیرها.

القابه

أشهر ألقابه: التقی والزکی والسبط [۹] وعرف غیرها کالسید والمجتبی [۱۰] والطیب والولی [۱۱].

زوجاته

تزوج (أم إسحاق) بنت طلحة بن عبید الله، و(حفصة) بنت عبد الرحمن بن أبی بکر، و(هند) بنت سهیل بن عمرو، وجعدة بنت الأشعث بن قیس، وهی التی أغراها معاویة بقتله فقتله بالسم.

وقد تحدث المؤرخون عن زوجات الإمام الحسن (علیه السلام) وأکثروا ومال أکثرهم إلی المبالغة فی تعدادهن مبالغة لا تعتمد علی أساس معقول.. [۱۲].

اولاده

کان له خمسة عشر ولداً ما بین ذکر وأنثی وهم: زید، أم الحسن، أم الحسین، أمهم أم بشیر بنت أبی مسعود الخزرجیة. الحسن، أمه خولة بنت منصور الفزاریة. عمر والقاسم وعبد الله، أمهم أم أولد. عبد الرحمن، أمه أم ولد. الحسین الملقب بالأشرم وطلحة وفاطمة أمهم أم إسحاق بنت طلحة بن عبید الله التمیمی. أم عبد الله وفاطمة وأم سلمة ورقیة، لأمهات شتی ولم یعقب منهم غیر الحسن وزید [۱۳].

اوصافه

(لم یکن أحد أشبه برسول الله (صلّی الله علیه وآله) من الحسن بن علیّ (علیهما السلام) خلقاً وخُلقاً وهیأة وهدیاً وسؤدداً).

بهذا وصفه واصفوه. وقالوا: (کان أبیض اللون مشرباً بحمرة، أدعج العینین، سهل الخدین، کث اللحیة، جعد الشعر ذا وفرة، کان عنقه إبریق فضة، حسن البدن، بعید ما بین المنکبین، عظیم الکرادیس، دقیق المسربة، ربعة لیس بالطویل ولا بالقصیر، ملیحاً من أحسن الناس وجهاً [۱۴] أو کما قال الشاعر:

ما دب فی فطن الأوهام من حسنٍ
إلا وکان له الحظ الخصوصیّ

كأنّ جبـــهته مـــــن تحـــت طرّته
بدر يتـــوجّه اللـــيل البهـــيمىّ

قد جلّ عن طيب أهل الأرض عنبره
ومسكه فـــهو الطيـــب السماوىّ

فالإمام الحسن (عليه السـلام) حاز على صـفات جده رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فى خَلقِه وخُلُقِه حتى أن المسلمين إذا اشتاقوا إلى رسـول الله (صـلّى الله عليه وآله) نظروا إلى ابنه الحسن (عليه السـلام) يقـول أبو جحيفـة: رأيت رسول الله (صـلّى الله عليه وآله) وكـان الحسن بن على يشبهه) [۱۵] ويقول أنس: (لم يكن أحد أشـبه برسول الله (صلّى الله عليه وآله) من الحسن بن على (عليه السلام) [۱۶] وقد أورد الشيخ المفيد (رحمه الله) فى الإرشاد أنه: كان الحسن بن على (عليهما السـلام) يشـبه النبى (صـلّى الله عليه وآله) من صدره إلى رأسه والحسين يشبهه (صلّى الله عليه وآله) من صدره إلى رجليه).
وقال أيضاً: (كان الحسن (عليه السلام) أشبه الناس برسول الله (صلّى الله عليه وآله) خَلقاً وخُلقاً وهيأة وهدياً وسؤدداً).
وقد قال رسول الله (صـلّى الله عليه وآله) للحسن ذات مرة: (أشـبهت خَلقى وخُلقى) [۱۷] وقـال واصل بن عطاء: (كان الحسن بن على (عليهما السلام)، عليه سيماء الأنبياء وبهاء الملوك) [۱۸] .

اخلاقه

كان فى شـمائله آيـة الإنسانيـة الفضـلى، ما رآه أحـد إلا هابه، ولا خالطه إنسان إلا أحبه، ولا سـمعه صـديق أو عـدو وهو يتحـدث أو يخطب فهان عليه أن ينهى حديثه أو يسكت.
وقال محمـد بن إسـحاق: (ما بلغ أحد من الشـرف بعد رسول الله (صـلّى الله عليه وآله)، ما بلغ الحسن بن علىّ. كان يبسط له على باب داره فإذا خرج وجلس انقطع الطريق، فما يمرّ أحد من خلق الله إجلالاً له، فإذا علم قام ودخل بيته فيمر الناس).
ونزل عن راحلته فى طريق مكة فمشى، فما من خلق الله أحد إلا نزل ومشى حتى سعد بن أبى وقاص، فقد نزل ومشى إلى جنبه.
وروى المؤرخون عن تواضـعه وكرم أخلاقه عشـرات الروايـات فمن ذلـك انه اجتاز على جماعـة من الفقراء وقـد جلسوا على التراب يأكلون خبزاً كان معهم فدعوه إلى مشاركتهم فجلس معهم وقال: (إن الله لا يحب المتكبرين، ولما فرغوا من الأكل دعاهم إلى ضيافته فأطعمهم وكساهم وأغـدق عليهم من عطائه، ومرة أخرى مر على فقراء يأكلون فدعوه إلى مشاركتهم، فنزل عن راحلته وأكل معهم ثم حملهم إلى منزله فأطعمهم وأعطاهم، وقال: (اليـد لهم لأنهم لم يجـدوا غير ما أطعمونى ونحن نجـد ما أعطيناهم). وكان من كرمه أنه أتـاه رجـل فى حاجـة، فقـال له: (أكتب حاجتـك فى رقعـة وارفعها إلينا). قال: فرفعها إليه فأضـعفها له، فقال له بعض جلسائه: (ما كان أعظم بركـة الرفعـة عليه يا ابن رسول الله!). فقال: (بركتها علينا أعظم، حين جعلنا للمعروف أهلاً. أما علمتم أن المعروف ما كان ابتداء من غير مسألة، فأما من أعطيته بعد مسألة، فإنما أعطيته بما بذل لك من وجهه وعسـى أن يكون بات ليلته متململاً أرقاً يميل بين اليأس والرجاء لا يعلم بما يرجع من حاجته ابكأبة الرد، أم بسرور النجح، فيأتيك وفرائصه ترعد وقلبه خائف يخفق فإن قضيت له حاجته فيما بذل من وجهه، فإن ذلك أعظم ممّا نال من معروفك).
وأعطى شاعراً فقال له رجل من جلسائه: (سـبحان الله أتعطى شاعراً يعصـى الرحمن ويقول البهتان!). فقال: (يا عبد الله إن خير ما بذلت من مالك ما وقيت به عرضك وإن من ابتغاء الخير اتقاء الشر).
وسأله رجل فأعطاه خمسـين ألف درهم وخمسـمائة دينار، وقال له: (ائت بحمال يحمل لك). فأتى بحمال، فأعطاه طيلسانه، وقال: هذا

کری الحمال).

وجاءه بعض الأعراب. فقال: (أعطوه ما فی الخزانة!.. فوجد فیها عشرون ألف درهم. فدفعت إلیه، فقال الإعرابی: (یا مولای ألا ترکتنی أبوح بحاجتی، وأنشر مدحتی فقال الإمام الحسن (علیه السلام):

نحـــن أناس نـــوالـــنا خضل

یرتـــــع فـیه الرجاء والأمل

تجود قبل الســـؤال أنـــفسنا

خوفاً علی ماء وجه من یسل [۱۹].

ومرّ به رجـل من أهل الشام ممن غـذّاهم معاویـة بالحقـد والکراهیـة لعلیّ وآل علیّ فجعل للإمام الحسن (علیه السـلام) السب والشـتم والإمـام سـاکت لا ـ یتکلم وهو یعلم بـأن الشـامی لا یعرف علیّا وآل علیّ إلا من خلال الصورة التی کان معاویـة بن هنـد یصورهم بها وعنـدما انتهی الشامی من حدیثه بما فیه من حلف وفظاظة ابتسم إلیه وتکلم معه بأسـلوب هادئ ینم عن سـماحة وکرم متجاهلًا کل ما سمع وما رأی، وقال: (أیها الشامی أظنک غریباً فلو أنک سألتنا أعطیناک، ولو استرشـدتنا أرشدناک، وإن کنت جائعاً أطعمناک، وإن کنت محتاجاً أغنیناک، أو طریـداً آویناک)، ومضـی یتحـدث إلی الشامی بهـذا الأسـلوب الـذی یفیض بالعطف والرحمـة حتی ذهل الشامی وسیطر علیه الحیاء والخجل وجعل یتململ بین یدیه یطلب عفوه وصفحه ویقول: الله أعلم حیث یجعل رسالته.

وهکـذا کـان فی جمیع مواقفه مثالاً کریماً للخلق الإسـلامی الرفیع الـذی دعا إلیه القرآن الکریم بقوله تعالی: (وَلَا تَسْتَوِی الْحَسَنَةُ وَلَا السَّیِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِی بَیْنَکَ وَبَیْنَهُ عَدَاوَةٌ کَأَنَّهُ وَلِیٌّ حَمِیمٌ) [۲۰] لقد قابل جمیع ما کان یوجه إلیه من الأذی والمکروه من أخصامه وحساده بالصبر والصـفح الجمیل حتی اعترف له ألد أخصامه وأنکرهم بذلک، فقد روی المؤرخون أن مروان بن الحکم أسـرع إلی حمل جنازته ومشـی مع المشـیعین والکآبة بادیة علیه، فقال له أبو عبد الله الحسین (علیه السلام): (إنک لتحمل جنازته وقد کنت بالأمس تجرعه الغیظ، فقال: لقد کنت أفعل ذلک مع من یوازی حمله الجبال.

ورأی غلاماً أسود یأکل من رغیف لقمـة، ویطعم کلباً هناک لقمة فقال له: (ما حملک علی هذا؟) قال: (إنی اسـتحی منه أن آکل ولا أطعمه). فقال له الحسن (علیه السـلام): (لا تبرح مکانک حتی آتیک). فذهب إلی سـیده، فاشتراه واشتری الحائط (البسـتان) الذی هو فیه، فأعتقه، وملّکه الحائط.

وسأله رجل أن یعطیه شـیئاً فقال له: (إن المسألة لا تصلح إلا فی غرم فادح أو فقر مدقع أو حمالة مفظعة) [۲۱]، فقال له: ما جئتک إلا فی إحداهن فأعطاه مائة دینار، ثم اتجه الرجل إلی الحسین (علیه السلام) فأعطاه تسعة وتسعین دیناراً وکره أن یساوی أخاه فی العطاء، ثم ذهب الرجل إلی عبـد الله بن جعفر فأعطاه أقل منهما ولما قص علیه ما جری معهما، قال له: ویحک أتریـد أن تجعلنی مثلهما إنهما غرا العلم والمال غراً.

ویروی المؤرخون عن سـخائه أیضـاً أن جماعـة من الأنصـار کـانوا یملکون بسـتاناً یتعایشون منه فاحتاجوا لبیعه فاشتراه منهم بأربعمائة ألف، ثم أصابتهم ضائقة بعد ذلک اضطرتهم لسؤال الناس، فرد علیهم البستان حتی لا یسألوا أحداً شیئاً.

وروی المؤرخون صوراً کثیرة من ألوان بره وکرمه ومعروفه التی کـان یغرق بها علی السائلین والفقراء والمحرومین لإنقاذهم ممّا کانوا یعانون من آلام الحاجـة والبؤس ابتغاء وجه الله وثوابه لا للجاه ولا للدنیا ولا تدعیم ملک وسـلطان ولا لمکافأة علی المدیح والثناء کما کان یصـنع معاویـة وغیره من الأمویین والعباسـیین، ومن یتلـذذون بالمدیح والإطراء والجاه والسـلطان. وأخبار کرمه کثیرة لسـنا بسبیل

استقصائها، وهذا مقدار يسير من أحاديث الرواة عن كرمه ومعروفه وإن كان الكثير ممّا يرويه الرواة يخضع للنقد والحساب، إلا أن القليل المتفق عليه بينهم يكفى لأن يجعله فى القمة بين أجواد العرب الذين لا يرون للمال وزناً ولا يحسبون له حساباً.

عبادته

إن الإمام الحسن بن على بن أبى طالب (عليهما السلام) كان أعبد الناس فى زمانه وأزهدهم وأفضلهم وكان إذا حجّ حجّ ماشياً وربما مشى حافياً، ولا يمر فى شىءٍ من أحواله إلا ذكر الله سبحانه وكان أصدق الناس لهجة وأفصحهم منطقاً وكان إذا بلغ المسجد رفع رأسه ويقول: الهى ضيفك ببابك يا محسن قد أتاك المسىء فتجاوز عن قبيح ما عندى بجميل ما عندك يا كريم) [۲۲].

وقيل أنه حج خمساً وعشرين حجة ماشياً، وإن النجائب لتقاد معه، وإذا ذكر الموت بكى، وإذا ذكر القبر بكى، وإذا ذكر البعث بكى، وإذا ذكر الممر على الصراط بكى، وإذا ذكر العرض على الله تعالى ذكره شهق شهقة يغش عليه منها، وإذا ذكر الجنة والنار اضطرب اضطراب السليم، وسأل الله تعالى الجنة وتعوذ بالله من النار.

وكان إذا توضأ، أو إذا صلّى ارتعدت فرائصه واصفر لونه من خشية الله تعالى. وقاسم الله تعالى ماله ثلاث مرات. وخرج من ماله لله تعالى مرتين.

ثم لا يمر فى شىء من أحواله إلا ذكر الله عز وجل.

قال: (وكان أعبد الناس فى زمانه وأزهدهم بالدنيا) [۲۳].

مكانة الحسن عند رسول الله

علاقة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بابنه الحسن (عليه السلام) فاقت حدود العلاقة العائلية الموروثة كعلاقة الأب بابنه وما يصحب هذه العلاقة من انشدادات عاطفية وانجذاب مشترك بين الطرفين، بل كانت علاقة تتجاوز هذا الحد، لأنها متوجة بحب الله عز وجل وآمره وأن حب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لابنه الحسن (عليه السلام) إنما هو ـ أيضاً ـ من حب الله له، وهذا ما دفع باتجاه تعزيز العلاقة بين الرسول (صلّى الله عليه وآله) وابنه الحسن (عليه السلام)، ولذلك كان المصطفى الأكرم (صلّى الله عليه وآله) يرعى تربية الحسن (عليه السلام) رعاية مميزة وخاصة، فكان يغذيه بآدابه ومعارفه وكما كان يخشى عليه من كل مكروه لحبه له وخوفه عليه لأنه أمانة الله عنده ووصى من بعده والامتداد الطبيعى للرسالة الإسلامية.. ونجد هذا الانشداد الوثيق يتجسد فى مواقف عديدة تعبر عن عمق العلاقة.

ففى ذات يوم وبينما الإمام الحسن (عليه السلام) كان مع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) إذ عطش الحسن (عليه السلام) واشتد ظمأه فطلب له النبى (صلّى الله عليه وآله) ماءً فلم يجد فأعطاه لسانه فمصه حتى روى [۲۴].

وجاء رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ـ ذات يوم ـ إلى بيت فاطمة (عليها السلام) ليرى الحسن والحسين (عليهما السلام) فقال أين ابناى؟ فقالت: ذهب بهما على (عليه السلام)، فتوجه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فوجدهما يلعبان فى مشربة (الأرض اللينة دائمة النبات) وبين أيديهما فضل تمر فقال (صلّى الله عليه وآله): يا علىّ ألا تقلب (ترجع) ابناى قبل الحر. [۲۵].

لم تكن هذه المكانة العالية والوطيدة غامضة أو خافية ولا مقتصرة على نفس الرسول (صلّى الله عليه وآله) بل كان (صلّى الله عليه وآله) يصرح بها للملأ من قومه فكلما أتيحت له الفرصة للإعراب عن رأيه فى طبيعة العلاقة المميزة بينه وبين الحسن (عليه السلام) كان يفصح وبكل صراحة عن رأيه حتى ليبدو أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يتحين الفرصة عند السؤال عن الحسن (عليه السلام) من قبل المسلمين حتى يجيب عن ذلك، بل كان يعلن عن حبه للحسن (عليه السلام) دونما سؤال من أحد عن ذلك لأنه أمر من الله عز وجل وكما قال ـ عز من قائل ـ (قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَ الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى) [۲۶].

فكان (صلّى الله عليه وآله) يطلب من المسلمين أن يحملوا ذات الشعور والإحساس من ابنه الحسن (عليه السلام) وكذلك من ابنه الحسين (عليه السلام).

وعن عمران بن الحصين قال: قال النبى (صلّى الله عليه وآله): يا عمران بن الحصين، إن لكل شيء موقعاً فى القلب وما وقع موقع هذين الغلامين (أى الحسن والحسين) من قلبى شيء قط، فقلت: كل هذا يا رسول الله. قال: يا عمران وما خفى عليك اكثر أن الله أمرنى بحبهما) [۲۷].

وعن البراء بن عازب قال: قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) للحسن بن علىّ: (اللّهم إنى أحبه وأحب من يحبه) [۲۸].

وعن زر بن حبيش قال: كان رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ذات يوم يصلى فأقبل الحسن والحسين (عليهما السلام) وهما غلامان فجعلا يتوثبان على ظهره إذا سجد فأقبل الناس عليهما ينحونهما عن ذلك قال (صلّى الله عليه وآله): دعوهما بأبى وأمى من أحبنى فليحب هذين. [۲۹].

ودخل أبو أيوب الأنصارى ذات يوم على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) والحسن والحسين (عليهما السلام) يلعبان بين يديه فى حجره فقلت يا رسول الله أتحبهما؟ قال: (صلّى الله عليه وآله) وكيف لا أحبهما وهما ريحانتاى من الدنيا أشمهما. [۳۰].

وجاء أسامة بن زيد ذات ليلة فطرق باب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لبعض حاجته فخرج إليه الرسول (صلّى الله عليه وآله) وهو مشتمل على شيء لا يدرى ما هو فلما فرغ من حاجته قال أسامة لرسول الله (صلّى الله عليه وآله): ما هذا الذى أنت مشتمل عليه؟ فكشف فإذا الحسن والحسين على وركيه فقال (صلّى الله عليه وآله): هذان ابناى وابنا ابنتى، اللّهم إنك تعلم إنى أحبهما فأحبهما، اللّهم إنك تعلم إنى أحبهما فأحبهما، اللّهم إنك تعلم إنى أحبهما فأحبهما) [۳۱].

وهناك روايات أخرى يصدع فيها رسول الله (صلّى الله عليه وآله) للتعبير صراحة عن حبه للحسن (عليه السلام) والحسين (عليه السلام) دونما واسطة أو سؤال من أحد وإنما قول صريح لا تكلّف فيه ولا غموض ومن هذه الروايات: أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وعلى مرأى ومسمع من الناس فى المسجد، وهو يخطب والى جانبه ابنه الحسن (عليه السلام) فكان (صلّى الله عليه وآله) ينظر إلى الناس مرة والى الحسن (عليه السلام) مرة، ثم يوجه أنظار الناس إلى الحسن (عليه السلام) ويقول: ابنى هذا سيد شباب أهل الجنة. وخرج رسول الله (صلّى الله عليه وآله) على الناس ذات يوم فأعلن قائلاً: (من سرّه أن ينظر إلى سيد شباب أهل الجنة فلينظر إلى الحسن بن على) [۳۲].

ووضع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ابنه الحسن (عليه السلام) على عاتقه فقام بتعريفه لعامة المسلمين وكان يقول (صلّى الله عليه وآله): (من حبنى فليحبه) ولمّا لقيه رجل فقال: نعم المركب ركبت يا غلام (وكان يوجه الكلام للحسن) كان رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يقول له: (ونعم الراكب هو) [۳۳].

وعن حذيفة قال: قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أتانى ملك فسلّم علىّ نزل من السماء، لم ينزل قبلها يبشرنى أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة [۳۴].

وأمام معشر من المسلمين أجز رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بفضل أهل بيته (عليهم السلام) قائلاً: خير رجالكم على بن أبى طالب وخير شبابكم الحسن والحسين وخير نساؤكم فاطمة بنت محمد (صلّى الله عليه وآله).

وفى مكان آخر يذكر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فضل أهل بيته (عليهم السلام) والمحبين لهم، يقول ابن عباس: سمعت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بأذنى وإلا فصمتا وهو يقول: (أنا شجرة وفاطمة حملها وعلىّ لقاحها والحسن والحسين ثمرتها والمحبون أهل البيت ورقها من الجنة ضفاً ضفاً) [۳۵].

وقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله): قالت الجنة يا رب زينتنى فأحسنت زينتى، فأحسن أركانى فأوحى الله تبارك وتعالى إليها أنى قد حشوت أركانك بالحسن والحسين وجنبيك بالسعود من الأنصار وعزتى وجلالى لا يدخلك مرائى ولا بخيل [۳۶].

وعن مطالبة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) المسلمين بحب ابنه الحسن (عليه السلام) يروى زهيد بن الأقمر هذه الحادثة يقول: بينما الحسن بن على (عليه السلام) يخطب بعدما قتل علىّ (عليه السلام) إذا قام رجل من الأزد آدم طوال فقال: لقد رأيت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) واضعه فى حبوته يقول: (من أحبنى فليحبه فليبلغ الشاهد الغائب) ولولا عزمة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ما حدثتكم [۳۷].

ولعل سائل يسأل: ماذا تعنى هذه المحبة من رسول الله (صلّى الله عليه وآله) للحسن (عليه السلام)؟.. لمّ ما هو جزاء من أحب الحسن وأخيه الحسين (عليه السلام)؟

أما جواب الشطر الأول فيأتى من ابن عباس الذى قال: إن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) كان جالساً ذات يوم إذ أقبل الحسن (عليه السلام) فلما رآه بكى ثم قال: (إلىّ إلىّ يا بنى) فما زال يدنيه حتى أجلسه على فخذه اليمنى وساق الحديث إلى أن قال: قال النبى (صلّى الله عليه وآله): (أما الحسن فإنه ابنى، وولدى ومنى، وقرة عينى، وضياء قلبى، وثمرة فؤادى، وهو سيد شباب أهل الجنة، وحجة الله على الأمة، أمره أمرى، وقوله قولى، من تبعه فإنه منى ومن عصاه فليس منى [۳۸] (وأضاف الحائرى على ذلك) (وإنى لما نظرت إليه ذكرت ما يجرى عليه من الذل بعدى فلا يزال الأمر به حتى يقتل بالسّم ظلماً وعدواناً فعند ذلك تبكى الملائكة والسبع الشداد لموته ويبكيه كل شىء حتى الطير فى السماء والحيتان فى جوف الماء، فمن بكاه لم تعم عينه يوم تعمى العيون، ومن حزن عليه لم يحزن قلبه يوم تحزن القلوب ومن زاره فى البقيع ثبتت قدماه على الصراط يوم تزل فيه الأقدام) [۳۹].

وقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أيضاً: (حسن منى وأنا منه، أحب الله من أحبه الحسن والحسين سبطان من الأسباط) [۴۰].

أما جواب الشطر الثانى عن الجزاء والمكافأة من حب الحسن [۴۱] فيأتى من سلمان المحمدى حيث قال: قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) للحسن والحسين (عليهما السلام): (من أحبهما أحببته، ومن أحببته أحبه الله، ومن أحبه الله أدخله جنات النعيم، ومن أبغضهما أبغضته ومن أبغضته أبغضه الله، ومن أبغضه الله أدخله نار جهنم وله عذاب مقيم) [۴۲].

وإذا دققنا النظر فى مكنونات هذه الروايات الصادرة عن الصادق الأمين والذى بعث رحمة للعالمين والذى حديثه حديث الوحى، نجد أن الرسول (صلّى الله عليه وآله) كان يهدف من ذلك إلى توجيه أنظار المسلمين إلى أهل بيته (عليه السلام) لأنهم مركز الإشعاع الرسالى الذى منه ينسل الأوصياء والأمناء على الوحى والرسالة من بعده والقائمين بتحقيق أهداف الرسول (صلّى الله عليه وآله) والرسالة.. وإن من هذا البيت الطاهر سيكون امتداد الرسالة الإلهية لذلك تأتى هذه التوصيات من رسول الله (صلّى الله عليه وآله) للمسلمين فى سياق تهيئة أجواء مناسبة يكون فيها المسلمون أقدر على التفاعل مع المرحلة التى تلى غياب شخص رسول الله (صلّى الله عليه وآله)، وتكون الفواصل الزمنية والتحولات الاجتماعية خلال هذه الفترة غير قابلة لإحداث هزّة فى الأوضاع الداخلية للمجتمع الإسلامى أو ذات أثر فى تعثير مسيرة الرسالة الإسلامية.

الحسن فى مدرسة النبوة

امتازت السنوات القليلة التى عاشها الحسن (عليه السلام) فى كنف جده المصطفى (صلّى الله عليه وآله) قبل عروجه إلى الرفيق الأعلى، أنها كانت بمثابة حجر الأساس فى بناء شخصيته كما أنها الفترة المشرقة والذهبية فى حياة الإمام الحسن (عليه السلام) فى الالتصاق برسول الله (صلّى الله عليه وآله) عن قرب.

فالحب المتميز لم يكن من جانب الرسول (صلّى الله عليه وآله) فقط بل كان الإمام الحسن (عليه السلام) أشد حباً وتعلقاً بجده وهذا ما يظهر بوضوح فى اهتمام الحسن (عليه السلام) فى المداومة على رؤية جده المصطفى (صلّى الله عليه وآله) والالتصاق به أكبر مدة فحينما كانت الزهراء (عليها السلام) تأخذ الحسنين (عليهما السلام) إلى بيت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فيأتياه وهما فى شوق شديد إليه فيتسابقا فى الوصول إليه، فإذا وصلا إليه ضمّهما وقبلهما وأجلسهما فى حجره فيجلس الحسن (عليه السلام) على فخذه

الأيمن والحسين على فخذه الأيسر فيشعران بالأمان والحنان والعطف. بل إنه فى بعض الليالى التى كانت تأتى بهما الزهراء (عليها السلام) إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فيمكثان طويلاً فتضطر فاطمة (عليها السلام) إلى العودة إلى البيت وحدها، ويبقى الحسنان مع جدهما رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فيتوسدا اليدين الكريمتين لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) ويناما إلى جنبه (صلّى الله عليه وآله).

ولعل من الصور الرائعة فى حجم الصلة الوثيقة بين رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وابنه الحسن (عليه السلام) يذكرها بعض الرواة وهى عبارة عن دروس تربوية ذات درجة كبيرة من الأهمية منها: عن البهى قال: تذاكرنا من أشبه الناس بالنبى (صلّى الله عليه وآله) من أهله، فدخل علينا عبد الله بن الزبير فقال: أنا أحدثكم بأشبه أهله به وأحبهم إليه الحسن بن على (عليهما السلام) رايته وهو ساجد فيركب رقبته (أو قال ظهره) فما ينزله حتى يكون هو الذى ينزل، ولقد رأيته يجيء وهو راكع فيفرج له بين رجليه حتى يخرج من الجانب الآخر. [۴۳] .

أما عن الجانب العلمى فى علاقة الحسن (عليه السلام) بجده (صلّى الله عليه وآله)، فلقد كان (عليه السلام) وعلى صغر سنه، يأتى إلى مجلسه (صلّى الله عليه وآله) فيصغى بسمعه إلى حديث جده (صلّى الله عليه وآله) وهو يبث رسالة الله فى الناس، وبعد أن يستمع الحسن (عليه السلام) إلى ما قاله رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ينطلق مسرعاً إلى أمه فاطمة (عليها السلام) فيخبرها بلسان فصيح صادق كلّ ما دار فى حديث الرسول (صلّى الله عليه وآله) مع الناس، فيأتى الإمام على (عليه السلام) فتخبره فاطمة (عليها السلام) بحديث رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فى المجلس فيسأل الإمام على (عليه السلام) عن الذى أخبرها بذلك، فتقول: ابنك الحسن (عليه السلام).

فتخفّى علىّ (عليه السلام) يوماً فى الدار ليستمع إلى ما يقوله الحسن (عليه السلام) من كلام رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فدخل الحسن (عليه السلام) وقد جاء من مجلس الرسول (صلّى الله عليه وآله) فأراد أن يلقى لوالدته الزهراء (عليها السلام) فارتج عليه الأمر، فعجبت أمه من ذلك فقال الحسن (عليه السلام): لا تعجبى يا أماه فإن كبيراً يسمعنى واستماعه قد أوقفنى فخرج على (عليه السلام) إليه فضمه وقبّله.

ومن جهة ثانية نرى أن الإمام الحسن (عليه السلام) كان منذ صغره يتلقى علوم الوحى من رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وذلك من خلال الأسئلة عن أمور عديدة، منها ما ذكره الإمام الصادق (عليه السلام) انه: (بينما الحسن (عليه السلام) يوماً فى حجر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) إذ رفع رأسه فقال: يا أبة ما لمن زارك بعد موتك؟ قال: يا بنى من أتانى زائراً بعد موتى فله الجنة، ومن أتى أباك زائراً بعد موته فله الجنة ومن أتاك زائراً بعد موتك فله الجنة) [۴۴] .

فالزائر الذى يستحق الجنة فى هذه الأماكن الشريفة هو الذى يعمل بما أمر الله تعالى ويترك ما نهى الله عنه ويكون عارفاً بحق أهل البيت (عليهم السلام)، مؤمن بكل ما جاءوا به..

وقد تركت التربية النبوية التى نهل من ينبوعها الإمام الحسن (عليه السلام) آثار على سلوكياته وهناك شواهد عديدة تكشف تجسيدات التربية النبوية فى حياة الإمام (عليه السلام) غير أننا نختار منها هنا ما يرتبط بالفترة الأولى من عمر الإمام (عليه السلام) والتى كان فيها ملاصقاً لرسول الله (صلّى الله عليه وآله)، ففى الجانب الأخلاقى هناك قصة جميلة يتداولها أصحاب السيرة والمؤرخون وهى أن الحسنين (عليهما السلام) مرّا على شيخ يتوضأ ولا يحسن فأخذا (عليهما السلام) فى التنازع وكانا صغيرين لم يتجاوزا العقد الأول من السنين يقول كلّ واحد منهما للآخر: أنت لا تحسن الوضوء. فقالا: أيها الشيخ كن حكماً بيننا يتوضأ كل واحد منّا فتوضأ، ثم قالا: أينا يحسن؟ قال: كلاكما تحسنان الوضوء. ولكن هذا الشيخ الجاهل ـ وهو يشير إلى نفسه ـ هو الذى لم يكن يحسن، وقد تعلم الآن منكما وتاب على يديكما ببركتكما وشفقتكما على أمة جدكما. [۴۵] .

وهناك قصة ثانية توضح الأثر العلمى لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) فى شخصية ابنه الحسن (عليه السلام) يروى هذه القصة أحد

حواريى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) حذيفة بن اليمان يقول:

(بينما كان رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وجماعة من أصحابه، إذ أقبل إليه الحسن فأخذ النبى (صلّى الله عليه وآله) فى مدحه، فما قطع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) كلامه حتى أقبل إلينا أعرابى يجر هراوة له، فلما نظر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قال: قد جاءكم رجل يكلمكم بكلام غليظ تقشعر منه جلودكم، وإنه يسألكم عن أمور، وإن لكلامه جفوة.

فجاء الأعرابى فلم يسلّم وقال: أيكم محمد؟

قلنا: ما تريد؟ قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله): مهلاً.

فقال: يا محمد لقد كنت أبغضك ولم أرك والآن فقد ازددت لك بغضاً.

فتبسم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وغضبنا لذلك، وأردنا بالأعرابى إرادة، فأومى إلينا رسول الله أن اسكتوا.

فقال الأعرابى: يا محمد إنك تزعم أنك نبى، وأنك قد كذبت على الأنبياء، وما معك من برهانك شىء.

فقال له (صلّى الله عليه وآله): وما يدريك؟ قال: فخبّرنى ببرهانك.

قال (صلّى الله عليه وآله): إن أحببت أخبرك عضو من أعضائى فيكون ذلك أوكد برهانى. قال: أو يتكلم العضو؟ قال (صلّى الله عليه وآله): نعم يا حسن قم. فازدرى الأعرابى نفسه، وقال: ما يأتى، ويقيم صبيّا ليكلّمنى.

قال (صلّى الله عليه وآله): إنك ستجده عالماً بما تريد.

فابتدره الحسن (عليه السلام): مهلاً يا أعرابى:

ما غبـــياً ســـألت وابن غبى
بل فقـــيهاً إذن وأنت الجهول

فإنّ تك قد جهـــلت فإنّ عندى
شفاء الجــهل ما سأل السؤول

ونجراً لا تقسّـــــمه الــدّوالى
تراثاً كـــان أورثـــه الرسول

لقد بسطت لسانك، وعدوت طورك وخادعت نفسك، غير أنك لا تبرح حتى تؤمن أن شاء الله.

فتبسم الأعرابى وقال له هيه:

فقال له الحسن (عليه السلام): نعم، اجتمعتم فى نادى قومك وتذاكرتم ما جرى بينكم على جهل، وخرق منكم فزعمتم أن محمداً صنبور ـ أى لا ـ خلف له ـ والعرب قاطبة تبغضه، ولا ـ طالب له بثأره، وزعمت أنك قاتله، وكان فى قومك مؤنته، فحملت نفسك على ذلك، وقد أخذت قناتك بيدك تؤمّه تريد قتله، فعسر عليك مسلكك وعمى عليك بصرك، وأبيت إلا ذلك، فأتيتنا خوفاً من أن يشتهر وإنك إنما جئت بخير يراد بك. أنبئك عن سفرك، خرجت فى ليلة ضحياء، إذ عصفت ريح شديدة، اشتد منها ظلماؤها وأظلت سماؤها، أعصر سحابها، فبقيت محر غماً كالأشقر، إن تقدم نُحِر، وإن تأخر عُقر، لا تسمع لواطئ حسّاً، ولا لنافع نارٍ جرساً، تراكمت عليك غيومها، وتوارت عنك نجومها فلا تهتدى بنجم طالع، ولا بعلم لامع، تقطع محجّةٍ وتهبط لجّة، فى ديمومة قفر، بعيدة القعر، مجحفة بالسّفر، إذا علوت مصعداً ازددت بعداً، الريح تخطفك، والشوك تخبطك، فى ريح عاصف، وبرق خاطف، قد

أوحشتك آكامها، وقطعتك سلامها، فأبصرت فإذا أنت عندنا فقرّت عينك، وظهر دينك وذهب أنينك.

قال الأعرابى متعجباً: من أين قلت يا غلام هذا؟ كأنك كشفت عن سويداء قلبى، ولقد كنت كأنك شاهدتنى وما خفى عليك شىء من أمرى وكأنه علم الغيب.

ثم قال الأعرابى للحسن (عليه السلام): الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. فأسلم الأعرابى وحسن إسلامه، وعلّمه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) شيئاً من القرآن فقال: يا رسول الله ارجع إلى قومى فأعرّفهم ذلك؟ فأذن له (صلّى الله عليه وآله) فانصرف إلى قومه ثم رجع ومع جماعة من قومه فدخلوا الإسلام، وكان الناس إذا نظروا إلى الحسن (عليه السلام) قالوا لقد أعطى ما لم يعط أحدٌ من الناس. [۴۶] .

هكذا هو الحسن بن على (عليهما السلام) يتحدث عن لسان رسول الله (صلّى الله عليه وآله)، وكيف به وقد نهل من معارف النبوة وتغذى من آداب الرسالة، فصار يقارع بذلك عقول الرجال على صغر سنه، بعد أن يفصح بأبلغ بيان دلائله ويكشف بأوضح بصائر صحيحه، لا سيما وأنه عاش فى ظل الوحى ومعدن التنزيل، فلا شك فى كونه يسير على خطى السلوك المحمدى ولقد قال جده المصطفى (صلّى الله عليه وآله) فيه: (حسن منى وأنا منه).

امامته

كانت قضية الولاية والإمامة والخلافة كمسميات مختلفة للقيادة الشرعية التى ستخلف رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بعد وفاته وغياب شخصه عن ساحة الأمة الإسلامية، هذه القضية من الموضوعات المحورية وربما هى المحور الذى لم تتوتد دعائم وأركان الدين الإسلامى إلا بعد مخاض عسير كان يتطلب إعداد مناخ ملائم قابل لتلقى هذا الأمر العظيم من قبل أفراد المجتمع الإسلامى.

وبطبيعة الحال: إن إرادة الله تعالى التى حكمت بأن يكون الإسلام خاتم الأديان والمهيمن عليها وقد قال تعالى: (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) [۴۷] وبذلك يكون هذا الدين يحمل خصوصيات الغلبة والتكاملية فى مجمل تشريعاته وقوانينه ونظمه بحيث يتمكن من إدارة البشرية بطريقة سليمة وصحيحة.

وليس ثمة شك فى أن القيادة هى حجر الأساس فى بناء الدولة وهى القطب التى تنتظم حوله شؤون الأمة وإدارة أمورها، ولذلك من غير المنطقى ولا من العقل أن يعتقد البعض فى أن يكون رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قد غادر الدنيا وترك أمته دونما قيادة، أو سائبة دونما رعاية فتعصف بها الأزمات والعقد وتثار على ساحتها الأضغان والأنانيات والحروب القذرة.

من هذا المنطلق كانت الولاية على درجة كبيرة من الأهمية لاستمرار تماسك جنبات المجتمع الإسلامى واستقرار أوضاعه كما كانت على مستوى كبير من الخطورة تتطلب موقفاً صريحاً وجريئاً، لأنها قد تعترض مصالح فئة من المجتمع ولا سيما تلك الفئة البيروقراطية والتى تسعى من خلال ثرواتها الحصول على موقع اجتماعى رفيع تكون فيه الواجهة المتقدمة فى صفوف المجتمع... ولكن استمرارية الفئة الرسالية تتطلب ركوب الأمواج العاتية والصعود فوق المصالح والأهواء والحواجز النفسية والمادية.

ومواقف النبى (صلّى الله عليه وآله) كثيرة من الإمامة والخلافة التى عمل (صلّى الله عليه وآله) منذ بداية الرسالة الإسلامية على الإعداد والتهيئة والإعلان عن الأئمة والقادة من بعده..

ومن هذه المواقف، موقفه الشهير الذى تضافرت كل كتب السنن والتاريخ على تدوينه وشرحه بإسهاب، وأجمعت الحفظة ونقلة الأحاديث والرواة على صحته، إنه نداءٌ وبلاغٌ اذاعه وأعلنه على الألوف من المسلمين بعد رجوعه من حجّة الوداع الحجة الأخيرة التى حجّها النبى (صلّى الله عليه وآله) فى آخر حياته، وعندما وصل إلى مكان اسمه ـ غدير خم [۴۸] ـ وقف النبى (صلّى الله عليه وآله) فى حرارة الشمس والوحى يهدّد رسالته وينذره إن تأخر عن أداء ما بقى منها ويبعث فى نفسه الاطمئنان والأمن ممّا كان يحاذر ويخشى من قومه.

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) [۴۹].

ووقفت معه الجماهير التى حجّت فى تلك السنة، نزل فى ذلك المكان قبل تفرق الناس، حطّ أثقاله، التفّ حوله المسلمون ليعرفوا ما الخبر، ماذا نزل على النبى (صلّى الله عليه وآله) من السماء، بماذا أوحى له، صمت رهيب، الوقت هجير، صحراء قاحلة، عرف الجميع أن هناك بلاغاً هاماً خطيراً، صنع له المسلمون منبراً من أقتاب الإبل، قام خطيباً بعد أن صعد المنبر، ليشهدهم تنصيب علىّ بن أبى طالب (عليه السلام) ولاية أمر المسلمين، حيث قال (صلّى الله عليه وآله) بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

أيها الناس يُوشك أن أدعى فأجيب وإنى مسؤول وإنكم مسؤولون فماذا أنتم قائلون؟ قالوا:

نشهد أنك قد بلّغت وجاهدت ونصحت، فجزاك الله خيراً فقال (صلّى الله عليه وآله): أليس تشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن جنّته حق، وأن ناره حق، وأن الموت حق، وأن البعث بعد الموت حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور؟

قالوا: بلى. نشهد بذلك.

قال (صلّى الله عليه وآله): اللّهم اشهد: ثم قال (صلّى الله عليه وآله): يا أيها الناس إن الله مولاى وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فهذا مولاه ـ يعنى علياً ـ اللّهم والِ من والاه وعاد من عاداه ثم قال:

يا أيها الناس إنّى فرطكم، وإنكم واردون علىّ الحوض، حوض أعرض ممّا بين بصرى إلى صنعاء، إلى أن قال فى خطبته، وإنى سائلكم حين تردون علىّ عن الثقلين، كيف تخلفونى فيهما الثقل الأكبر كتاب الله عز وجل سبب طرفه بيد الله تعالى، وطرفه بأيديكم فاستمسكوا به ولا ـ تضلّوا ولا ـ تبدلوا، والثقل الآخر: عترتى أهل بيتى، فإنّه قد نبأنى اللطيف الخبير أنهما لن ينقضيا حتى يردا علىّ الحوض.. [۵۰].

بدأت تتردد أصداء هذه الكلمات العظيمة فى صحراء خم وسمعها مائة ألف مسلم، كما ترددت فى بطون كتب الرواة والمؤرخين واتفق المسلمون بالإجماع على حديث الرسول (صلّى الله عليه وآله) فى حق الإمام أمير المؤمنين على (عليه السلام). وجاء الخليفة عمر بن الخطاب إلى على (عليه السلام) فقال: بخ بخ لك يا أبا الحسن أصبحت مولاى ومولى كل مؤمن ومؤمنة.

ونص رسول الله (صلّى الله عليه وآله) على الأئمة والخلفاء من بعده بأمرٍ من الله عزّ وجلّ وهذا ما اعترف بصحته الأعلام من السنة والشيعة كما رواها الفريقان بأحاديث كثيرة وأسانيد متعددة ونصوص مختلفة.

منها: ما روى عن جابر ابن سمرة قال: سمعت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يقول: لا يزال هذا الدين عزيزاً إلى اثنى عشر خليفة، فكبّر الناس وضجوا، ثم قال كلمة خفيت علىّ: قلت لأبى: يا أبة ما قال؟ قال: كلّهم من قريش [۵۱] وروى عن عبد الملك بن عمير عن جابر بن سمرة: أنه سمع النبى (صلّى الله عليه وآله) يقول: بعدى اثنا عشر خليفة كلهم من بنى هاشم [۵۲].

وجاء عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قوله للإمام على (عليه السلام): أنا أولى بالمؤمنين منهم بأنفسهم ثم أنت يا على أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ثم بعدك الحسن أولى بالمؤمنين من أنفسهم ثم بعده الحسين أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ثم بعده على أولى بالمؤمنين من أنفسهم ثم بعده محمد أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ثم بعده جعفر أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ثم بعده موسى أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ثم بعده علىّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ثم بعده محمد أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ثم بعده علىّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ثم بعده الحسن أولى بالمؤمنين من أنفسهم، والحجة بن الحسن أولى بالمؤمنين من أنفسهم أئمة أبرار هم مع الحق والحق معهم [۵۳].

أما عن ولاية الحسن (عليه السلام) ففى حديث ابن عباس الذى مر ذكره قال النبى (صلّى الله عليه وآله): أما الحسن فإنه ابنى وولدى ومنّى، وقرة عينى، وضياء قلبى، وثمرة فؤادى، وهو سيد شباب أهل الجنة، وحجة الله على الأمة، أمره أمرى وقوله قولى، من تبعه فإنه منى، ومن عصاه فليس منى [۵۴].

غير أن الأمـة لم تتبـع أمر الله ورسـوله وإنمـا بئس مـا خلفته هـذه الأمـة فى أهـل بيته (عليهم السـلام) حينمـا أعرضت عن الإمـام الحق والوصـى الشـرعى لرسول الله (صـلّى الله عليه وآله) على بن أبى طالب (عليه السـلام) ودخلت فى أتون الصـراع السياسـى المحتدم فى مؤتمر السقيفة.

بالطبع لم يكن الرسول (صـلّى الله عليه وآله) بمنأى عن الحوادث الواقعة بعده بل كان على يقين تام بأن الأمة سـتعيش نكسات خطيرة وانعطافـات أخطر، ولعل قوله (صـلّى الله عليه وآله) إلى أهل بيته (عليهم السـلام) وهو فى مرضه الـذى انتقل بسـببه إلى الرفيق الأعلى: (أنا حرب لمن حاربكم وسـلم لمن سالمكم) [۵۵] لعل فى ذلك إشارة إلى الحوادث التى يتعرض لها أهل البيت (عليهم السـلام) من بعده (صلّى الله عليه وآله) ولذلك قبل أن يفارق رسول الله (صلّى الله عليه وآله) الحياة يوصى أهل بيته (عليهم السلام) بالصبر والجلد أمام الامتحانات والابتلاءات التى سـتحل بدارهم وعليهم من قبل الحاقدين والطامعين وقبل الوداع بدأ رسول الله (صـلّى الله عليه وآله) يقسّم الإرث على أهل بيته (عليهم السلام) حتى إذا وصل إلى الحسن (عليه السلام) قال: أما الحسن فأنحله الهيبة والحلم [۵۶] .

ثم ألقى نظرته الأـخيرة على أهـل بيته فكـان يودع الواحـد تلو الآخر، إلى أن اقتربت آخر لحظات حياته فكانت آخر دعواه (صـلّى الله عليه وآله): (اللّهم خفف عن أمتى) وبعده صعدت روحه الطاهرة إلى الرفيق الأعلى.

ولقـد خلف غياب رسول الله (صـلّى الله عليه وآله) فراغاً كبيراً كما أحدث جرحاً لا يندمل مع مرور الزمن، فكان دور الإمام على (عليه السـلام) فى أن يتحمل انهـدام الركن الأول والأساس فى بيت الرسالـة، كما عليه أن يحاول رأب الصـدع حتى يبقى البيت النبوى ثابتاً ومستقراً ويظل مركز إشعاع فكرى وروحى لكل المسلمين بصورة مستمرة دونما انقطاع أو توقف.

مراجعة تاريخية سريعة

اشاره

كان الحدث الأكبر فى تاريخ الإسـلام هو وفاة الرسول (صـلّى الله عليه وآله)، وانقطاع ذلك الإشـعاع السماوى الذى كان يفيض على الـدنيا كلها بالخير، فإذا الـدنيا كلها مظلمة تسـتعد للشـر. وانقطعت الأرض بموت رسول الله (صـلّى الله عليه وآله) عن السـماء، إذ كان الوحى هو بريدها إلى الأرض وأداة صلتها بها.

وهل للأرض غنى عن السماء، وفى السماء رزقها ومنها خيرها وحياتها وحيويتها ونورها ودينها.

الرسول محمـد (صـلّى الله عليه وآله) أدرك ما سـيمتحن به المؤمنون بعده من عظيم الرزية بانقطاع الوحى من بينهم، وكان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، فأخبرهم بأن حبلاً واحداً سيبقى متصلاً بينهم وبين السماء. وهل حبل أولى بالتمسك من حبل السماء وقد انقطع الوحى، قال (صلّى الله عليه وآله):

(إنى تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتى أهل بيتى، ولن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض فانظروا كيف تخلفونى فيهما) [۵۷] .

ومـن حـق البحث الـذى بين أيـدينا أن يسـتقرئ فى هـذه المناسـبة موقـف المجتمـع من عـترة النـبى (صـلّى الله عليه وآله)، أو مـوقف الجماعـات التى كـانت تـدعى لنفسـها حق التمثيل للمجتمع، لينظر فيما خلفوا رسول الله (صـلّى الله عليه وآله) فى عترته، بل لينظر فيما يتصل من ذلك بموضوعنا من هذه المناسبة العابرة.

وإذا كـانت العترة عشـيرة الرجـل، فعلىّ أبرز رجالهـا بعـد رسول الله، وإذا كـانت ذريته، فـالحسن كبير عترة النبى من بعـده. تجيز اللغة إطلاق العترة على الصنفين، ـ العشيرة والذرية ـ معاً.

نعم إنه قـدّر لهـذا المجتمع، أن ينقسم انقسامته التاريخيـة التى وقعت فور الفاجعـة العظمى بوفاة رسول الله (صـلّى الله عليه وآله)، حين

تأول قوم فاتبعوا تأولاتهم، وتعبّد آخرون فثبتوا على الصريح من قول نبيهم وللنبى تصريحات كثيرة فى موضوع الترشيح للخلافة ليس هنا مكان استعراضها.. ولسنا الآن بصدد مناقشة المتأولين أو مساجلة المتعبدين لأن كل شىء ممّا نتفق عليه معهم جميعاً، أو مع فريق واحد منهم، أو ممّا نختلف فيه قد تم فى حينه على صورته. وليس فيما يتناوله بحثاً الآن ما يستطيع أن يغير الواقع عن واقعه.

ولم يبق مخفياً أن الحجر الأساسى لهذا التدهور غير المنتظر، كان هو الذى بنى هناك فى المدينة المنورة، وقامت عليه سقيفة بنى ساعدة بما أبرم فيها من حبل جديد هو غير الحبل الممدود ـ عمودياً ـ من السماء إلى الأرض الذى عناه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فى حديثه الآنف الذكر. ولكنه حبل آخر أريد ليمتد مع التاريخ ـ أفقياً ـ وكما قال الشاعر:

وتوالت تحت السقيفة أحداثٌ
أثارت كوامناً وميولاً

نزعات تفرقت كغصون العوسج
الغض شائكاً مدخولاً [۵۸] .

ووقف صاحب الحق بالخلافة من المتأولين، موقف المشرف الذى دل بذاته، وبما حفظ الإسلام من الانهيار، على انه وحده كان الوسيط بين الناس وحبل السماء. وتلكأ عن بيعتهم بمقدار ما نبه الذهنية الإسلامية إلى الحق المغلوب على أمره، وأخذ إلى البيعة، بعد ذلك أخذاً [۵۹] وسأله بعض أصحابه: (كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحق به؟) فقال: (إنها كانت أثرة، شحت عليها نفوس قوم، وسخت عنها نفوس آخرين، والحكم لله والمعود إليه القيامة. ودع عنك نهبا صيح فى حجراته) [۶۰] ...

لغة تنبئك عما تكظمه فى دخيلتها من غيظ، وعما تحمله فى ظاهرتها من تسليم. وعشا عن الوزارة مناوئوه، وعلى أبصارهم غشاوة الذهول.

فغفلوا عنه غير منكرين سبقه وجهاده وقرابته وصهره وأخوته وعلمه وعبادته، وتصريحات رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فى شأنه، التى كانوا يستوعبونها يومئذٍ أكثر ممّا نستوعبها نحن.

ولكنهم نقموا عليه كثرة فضائله هذه، ونقموا عليه شدته فى إحقاق الحق، ونقموا عليه سيفه الذى خلق منهم أعداء موتورين، منذ كان يصنع الإسلام بهذا السيف فى سوح الجهاد المقدس.

ونقموا عليه سنّة لأنه فى العقد الرابع. ولا عجب إذا رأى ذوو الحنكة المسنون، أن لا يكون الخليفة بعد رسول الله مباشرة، إلا وهو فى العقد السابع مثلاً.

وخفى عليهم إن الإمامة فى الإسلام دين كالنبوة نفسها، ويجوز فيها ما يجوز فى النبوة ولا ـ يجوز عليها ما لا ـ يجوز على النبوة فى عظمتها.

فما شأن الاجتهاد بالسن فى مقابل النص على التعيين. وما شأن الملاحظات السياسية فى مقابل كلمات الله تعالى وتصريحات نبيه (صلّى الله عليه وآله). وكانت سن علىّ (عليه السلام) يوم وفاة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) سن عيسى بن مريم يوم رفعه الله عز وجل، أفيجوز لعيسى أن ينتهى بقصارى نبوته فى الأرض إلى هذه السن، ولا يجوز لعلىّ أن يبتدئ خلافته فى ثلاث وثلاثين، وهى السن التى اختارها الله لسكان جنانه يوم القيامة! ولو لم تكن خير سنّى الإنسان لما اختارها الله للمصطفين من عباده فى الجنان.

الأمة عاشت بعيدة كل البعد عن إرشادات وتوجيهات رسول الله (صلّى الله عليه وآله) واشتغلت بالصراعات السياسية وحروب المناصب حتى أخذت الخلافة تنقلب من واحد إلى آخر فتفاقمت الأزمات وتدهورت الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية..

وغيرها، وظهرت علامات التذمر والتمرد فى أوساط المسلمين وكل ذلك نتيجة حتمية للروح القبلية التى سادت وتحكمت بمنطق المتنافسين تحت سقيفة بنى ساعدة والاتجاه الذى سار فيه هؤلاء إلى حصر السلطة بكل واحد منهم وعدم مشاركة الآخرين فى الحكم، والتأكيد على المبررات الوراثية، واستعداد كثير من الأنصار لتقبل فكرة أميرين أحدهما من الأنصار والآخر من المهاجرين، حتى كان يرى كل جناح أنه أحق من غيره بالأمر، وعلى بن أبى طالب (عليه السلام) وغيره من الصحابة بعيدون عنهم لانشغالهم بجثمان النبى (صلّى الله عليه وآله) الذى كان لم يدفن بعد [۶۱] حين اندفع عمر بأبى بكر إلى السقيفة ليبتوا فى أمر الخلافة وحين بلغ الإمام على (عليه السلام) بالنبأ رفض البيعة [۶۲].

واعتبرها اعتداءً صارخاً عليه، فهو يعلم أن محله من الخلافة محل القطب من الرحى ينحدر عنه السيل، ولا يرقى إليه الطير ـ على حد تعبيره ـ وما كان يظن إن القوم يزعجون هذا الأمر ويخرجونه عن أهل بيت نبيهم، فقد بادر إليه عمه العباس قائلاً له:

(يابن أخى أمدد يدك أبايعك، فيقول الناس: عم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بايع ابن عم رسول الله فلا يختلف عليك اثنان).

فقال له الإمام: (ومن يطلب هذا الأمر غيرنا؟) [۶۳].

وعلق الدكتور طه حسين على ذلك بقوله: (نظر العباس فى الأمر فرأى ابن أخيه، أحق منه بوراثة السلطان لأنه ربيب النبى، وصاحب السابقة فى الإسلام وصاحب البلاء الحسن الممتاز فى المشاهد كلها، ولأن النبى كان يدعوه أخاه حتى قالت له أم أيمن: ذات يوم مداعبة تدعوه أخاك وتزوجه ابنتك؟! ولأن النبى (صلّى الله عليه وآله) قال له: أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى، وقال للمسلمين يوماً آخر: من كنت مولاه فعلىّ مولاه. من أجل ذلك أقبل العباس بعد وفاة النبى على ابن أخيه، وقال له: أبسط يدك أبايعك) [۶۴].

لقد تخلف الإمام (عليه السلام) عن بيعة أبى بكر ساخطاً، وأعلن شجاه وأساه على ضياع حقه، واستبداد القوم بالأمر من دون أن يعنوا به وفى نهجه شذرات من بليغ كلامه عرض فيها لذلك.

فى سقيفة بنى ساعدة تجسدت الروح القبلية التى فتحت على المسلمين باباً من أبواب الفتنة كما يصرح بذلك عمر بقوله: (إن بيعة أبى بكر كانت فلتة وقى الله شرها فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه، فأيما رجل بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين فإنها تغره يجب أن يقتلا) [۶۵].

ومضى زمن يجادل الإمام على (عليه السلام) القوم ويعيد إلى ذاكرتهم ما غاب عنهم من أفعال الرسول وأقواله ومواقفه، وسرد لهم نصوص تلك الخطب والتوصيات التى تؤيّد دعواه، فالكثير تجسمت لهم الأخطار وأحسوا بالمسؤولية حيث جرفهم التيار الجديد الذى غيّر وبدّل.

والمنافقون استغلوا تلك الفترة فكانت ردة جماعة من مسلمى العرب فى الجزيرة، ومسيلمة الكذاب أعلن النبوة واستغل الموقف الراهن، كما أن صدى النزاع على الخلافة تجاوز العاصمة الإسلامية فبدأ العصيان والتمرد على مبادئ الإسلام. لذا خشى الإمام على (عليه السلام) إن استمر على محاججة القوم أن تذهب جهود النبى سدى.. فسكت عن حقه السليب ورجع إلى ما كان عليه ينشر تعاليم الإسلام متفانياً فى سبيل توطيد دعائم الدين.

ورأى أن الحكمة تقضى بمبايعة الخليفة حفاظاً على الإسلام حماية لوحدة المسلمين، وفى هذا يقول: (فأمسكت يدى حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد (صلّى الله عليه وآله) فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله، أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المُصيبة به على أعظم من فوت ولايتكم، التى إنما هى متاع أيام قلائل، فنهضت فى تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق، واطمأن الدين وتنهنه).

فمصلحة الإسلام فى نظره تفوق على كل شىء وقبل كل شىء. وما مطالبته بحقه فى الخلافة إلا لكى يعمل بقوة على بعث الدين فى النفوس.

والخلافة كما هو معلوم لا تساوى عنده شيئاً إذا لم تكن سبيلاً وطريقاً إلى هذه الغاية وهو الذى خاطب ابن عباس عندما كان يخصف نعله بيده بقوله: والله إن إمرتكم لأهون عندى من هذا النعل. إلا أن أحق حقاً وبطل باطلاً.. [۶۶] .

على والخلفاء

فى خلافة أبى بكر كان جهاز الحكم الإدارى خاضعاً لإدارة عمر بن الخطاب فهو المخطط لسياسة الدولة، والواضع لبرامجها الداخلية والخارجية قد وثق به أبو بكر، وأسند إليه جميع مهام حكومته، فلم يعقد أى عقد أو يقطع أى عهد إلا عن رأيه، ومشورته، كما لم يوظف أى عامل إلا بعد عرضه عليه.

أما تعيين الولاة على الأقطار والأقاليم الإسلامية، أو إسناد أى منصب حساس من مناصب الجيش فإنّه لا يمنح لأحد إلا بعد إحراز الثقة به والإخلاص منه للحكم القائم والتجاوب مع مخططاته السياسية، فمن كانت له أدنى ميول معاكسة لرغبات الدولة، فإنّه لا يرشح لأى عمل من أعمالها ويقول المؤرخون: إن أبا بكر عزل خالد بن سعيد بن العاص عن قيادة الجيش الذى بعثه لفتح الشام، لم يكن هناك أى موجب لعزله إلا ـ لأن عمر نبهه على ميوله لعلىّ وبيّن له مواقفه يوم السقيفة التى كانت مناهضة لأبى بكر. [۶۷] ولم يعهد أبو بكر بأى عمل أو منصب لأحد من الهاشميين، وقد كشف عمر الغطاء عن سبب حرمانهم فى حواره مع ابن عباس من أنه يخشى إذا مات وأحد الهاشميين والياً على قطر من الأقطار الإسلامية أن يحدث فى شأن الخلافة ما لا يحب [۶۸] .

كما حرم الأنصار من وظائف الدولة، وذلك لميولها الشديد إلى على (عليه السلام) أما عماله وولاته فقد كان معظمهم من الأسرة الأموية وهم:

أبو سفيان:

استعمله عاملاً له على ما بين آخر حد للحجاز وآخر حد من نجران [۶۹] .

يزيد بن أبى سفيان:

استعمل يزيد بن أبى سفيان والياً على الشام [۷۰] ويقول المؤرخون انه خرج مودعاً له إلى خارج يثرب.

عتاب بن أسيد:

عين أبو بكر عتاب بن أسيد بن أبى العاص والياً على مكة [۷۱] .

عثمان بن أبى العاص:

جعله والياً على الطائف [۷۲] ومنذ ذلك اليوم علا نجم الأمويين، واستردوا كيانهم بعد أن فقدوه فى ظل الإسلام.

وأبدى المراقبون لسياسة أبى بكر دهشتهم من حرمان بنى هاشم من التعيين فى وظائف الدولة ومنحها للعنصر الأموى الذى ناهض النبى (صلّى الله عليه وآله) وناجزه فى جميع المواقف، يقول العلائلى:

(فلم يفز بنو تيم بفوز أبى بكر بل فاز الأمويون وحدهم، لذلك صبغوا الدولة بصبغتهم، وآثروا فى سياستها، وهم بعيدون عن الحكم كما يحدثنا المقريزى فى رسالته (النزاع والتخاصم) [۷۳] .

إن القابليات الدبلوماسية والإحاطة بشؤون الإدارة والحكم، والمعرفة بشؤون الدين كانت متوفرة عند الكثيرين من المهاجرين والأنصار من صحابة النبى (صلّى الله عليه وآله) فكان الأجدر تعيين هؤلاء فى مناصب الدولة، وإبعاد الأسرة الأموية عنها لوقاية المجتمع الإسلامى من مكائدها وشرورها.

أما السياسة المالية التى نهجها أبو بكر ـ والمفروض أن تكون ـ على النهج الإسلامى الذى يستهدف إذابة الفقر، ومكافحة الحرمان وتطوير الحياة الاقتصادية بحيث تتحقق الفرص المتكافئة لعامة المواطنين، بحيث لا يبقى أى ظل للبؤس والحاجة، ويعيش الجميع حياة يسودها الرخاء والرفاه.

وكان أهم ما يعنى به الإسلام إلزام الولاة بالاحتياط فى أموال الدولة فلم يجز لهم بأى حال أن يصطفوا منها لأنفسهم شيئاً كما لم يجز لهم أن ينفقوا أىّ شىء منها لتوطيد حكمهم ودعم سلطانهم. الطابع العام لهذه السياسة المساواة بين المسلمين فى العطاء فليس لرئيس الدولة أن يميز قوماً على آخرين فإن ذلك يخلق الطبقية، ويوجد الأزمات الحادة فى الاقتصاد العام، ويعرض المجتمع إلى كثير من الويلات والخطوب، ويقول المؤرخون إن أبا بكر قد ساوى فى العطاء بين المسلمين ولم يشذ عما سنه الرسول (صلّى الله عليه وآله) فى هذا المجال إلا أن بعض البوادر التى ذكرت تجافى ذلك فقد وهب لأبى سفيان ما كان فى يده من أموال الصدقة كسباً لعواطفه التى تشترى وتباع بالأموال. [۷۴] كما قام بتوزيع شطر من الأموال على المهاجرين والأنصار فبعث إلى امرأة من بنى عدى بقسم من المال مع زيد ابن ثابت فأنكرت ذلك وقالت:

ـ ما هذا؟

قسم قسمه أبو بكر للنساء.

أترشوننى عن دينى، والله لا أقبل منه شيئاً؟!

وردت المال عليه [۷۵] هذه بعض المؤاخذات التى ذكرها بعض النقاد لسياسته المالية.

ولم يطل سلطان أبى بكر فقد ألمت به الأمراض بعد مضى ما يزيد على سنتين من حكمه وقد صمم على تقليد زميله عمر بن الخطاب شؤون الخلافة إلا أن ذلك لاقى معارضة الكثيرين من الصحابة فقد انبرى إليه طلحة قائلاً:

(ماذا تقول لربك: وقد وليت علينا فظاً غليظاً؟ تفرق منه النفوس وتنفض منه القلوب) [۷۶] .

وسكت أبو بكر فاندفع طلحة يوالى إنكاره عليه قائلاً:

(يا خليفة رسول الله، إنا كنا لا نحتمل شراسته، وأنت حى تأخذ على يديه، فكيف يكون حالنا معه، وأنت ميت وهو الخليفة..) [۷۷] .

وبادر اكثر المهاجرين والأنصار إلى أبى بكر يعلنون كراهيتهم لخلافة عمر فقد قالوا له: (تراك استخلفت علينا عمر، وقد عرفته وعلمت بوائقه فينا وأنت بين أظهرنا، فكيف إذا وليت عنا، وأنت لاق الله عزّ وجل فسائلك فما أنت قائل؟

فأجابهم أبو بكر: (لئن سألنى الله لأقولن استخلفت عليهم خيرهم فى نفسى..) [۷۸] وكان الأجدر به فيما يقول المحققون أن يستجيب لعواطف الأكثرية الساحقة من المسلمين فلا يولى عليهم أحداً إلا بعد أخذ رضاهم واتفاق الكلمة عليه أو يستشير أهل الحل والعقد عملاً ـ بقاعدة الشورى إلا ـ انه استجاب لعواطفه الخاصة المترعة بالحب لعمر، وقد طلب من معقيب الدوسى أن يخبره عن رأى المسلمين فى ذلك فقال له:

(ما يقول الناس فى استخلافى عمر؟)

(كرهه قوم ورضيه آخرون.)

(الذين كرهوه أكثر أم الذين رضوه؟)

(بل الذين كرهوه) [۷۹] .

ومع علمه بأن أكثرية الشعب كانت ناقمة عليه فى هذا الأمر فكيف فرضه عليهم، ولم يمنحهم الحرية فى انتخاب من شاءوا لرئاسة الحكم.

وعلى أى حال فقد لازم عمر أبا بكر فى مرضه لا يفارقه خوفاً من التأثير عليه، وكان يعزز مقالته ورأيه فى انتخابه له قائلاً:

(أيها الناس، اسمعوا وأطيعوا قول خليفة رسول الله (صلّى الله عليه وآله)) [۸۰] ، وطلب الله أبو بكر من عثمان بن عفان أن يكتب للناس عهده فى عمر، وكتب عثمان ما أملاه عليه، وهذا نصه:

(هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافة، آخر عهده فى الدنيا نازحاً عنها. وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها، إنى استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن تروه عدل فيكم فذلك ظنى به، ورجائى فيه، وإن بدل وغيّر فالخير أردت ولا أعلم الغيب (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ

مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ..) [۸۱] ووقع أبو بكر الكتاب فتناوله عمر، وانطلق به يهرول إلى المسجد ليقرأه فانبرى إليه رجل وقد أنكر عليه ما هو فيه قائلاً:

(ما فى الكتاب يا أبا حفص؟)

فنفى عمر عليه بما فيه إلا أنه أكد التزامه بما جاء فيه قائلاً: (لا أدرى، ولكنى أول من سمع وأطاع..).

فرمقه الرجل، وقد علم واقعه قائلاً:

ولكنى والله أدرى ما فيه، أمرته عام أول، وأمرك العام..) [۸۲] وانبرى عمر إلى الجامع فقرأه على الناس، وبذلك تم له الأمر بسهولة من دون منازع إلا أن ذلك قد ترك أعمق الأسى فى نفس الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) فراح بعد سنين يدلى بما انطوت عليه نفسه من الشجون يقول (عليه السلام) فى خطبته الشقشقية:

(فصبرت وفى العين قذى، وفى الحلق شجا أرى تراثى نهبا، حتى ما مضى الأول لسبيله، فأدلى بها إلى فلان (يعنى عمر) بعده، ثم تمثل بقول الأعشى:

شتان ما يومى على كورها

ويوم حيان أخى جـــابر

فيا عجباً!! بينما هو يستقيلها فى حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته لشدّ ما تشطر أضرعيها..) [۸۳] .

وكشفت هذه الكلمات عن مدى أحزانه وآلامه على ضياع حقه الذى تناهبته الرجال، فقد وضعوه فى تيم مرة وفى عدى تارة أخرى، وتناسوا جهاده المشرق فى نصرة الإسلام، وماله من المكانة القريبة من رسول الله (صلّى الله عليه وآله). وعلى أى حال فقد تناهبت الأمراض جسم أبى بكر، ودفعته إلى النهاية المحتومة التى ينتهى إليها كل إنسان، وقد راح يبدى ندمه وأساه على ما فرط تجاه حبيبة رسول الله وبضعته قائلاً:

(وددت أنى لم أكشف بيت فاطمة، ولو انهم أغلقوه على الحرب) كما إنه ودّ لو سأل رسول الله عن ميراث العمة وبنت الأخ، وثقل حاله فدخلت عليه ابنته عائشة تعوده فلما رأته يعالج سكرات الموت أخذت تتمثل بقول الشاعر:

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى

إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فغضب أبو بكر وقال لها: ولكن قولى: (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد) [۸۴] .

ولم يلبث قليلاً حتى وافاه الأجل المحتوم، وانبرى صاحب عمر إلى القيام بشؤون جنازته، فغسله، وصلى عليه وواراه فى بيت النبى (صلّى الله عليه وآله) وألصق لحده بلحده، ويذهب النقاد الشيعة إلى أن هذا البيت كان من تركة النبى (صلّى الله عليه وآله) فإنه لم يؤثر عنه أنه وهبه لعائشة فلابد أن يكون خاضعاً لقواعد الميراث حسبما تراه العترة الطاهرة فى تركة النبى (صلّى الله عليه وآله) وعلى هذا الرأى فلا يحل دفنه فيه إلا بعد الإذن منها، ولا موضوعية لإذن عائشة لأنها إنما ترث من البناء لا من الأرض حسب ما ذكره الفقهاء فى ميراث الزوجة وإن كان البيت خاضعاً لعملية التأميم حسبما يرويه أبو بكر عن النبى (صلّى الله عليه وآله) من أن الأنبياء لا يورثون أى شىء من متاع الحياة الدنيا وإنما يورثون الكتاب والحكمة، وما تركوه فهو صدقة لعموم المسلمين، فلابد إذن من إرضاء جماعة المسلمين فى دفنه، ولم يتحقق كل ذلك بصورة مؤكدة.

وعلى أى حال فقد انتهت خلافة أبى بكر القصيرة الأمد، وقد حفلت بأحداث رهيبة، وكان من أخطرها فيما يقول المحققون معاملة العترة الطاهرة كأشخاص عاديين قد جرد عنها إطار التقديس والتعظيم الذى أضفاه النبى (صلّى الله عليه وآله) عليها، وقد مُنيت بكثير من الضيم والجهد، فقد كانت ترى أنها أحق بمقام النبى (صلّى الله عليه وآله) وأولى بمكانته من غيرها، وقد أدى نزاعها مع أبى بكر إلى شيوع الاختلاف وإذاعة الفتنة والفرقة بين المسلمين، كما أدى إلى إمعان الحكومات التى تلت حكومة الخلفاء إلى ظلمهم واستعمال البطش والقسوة معهم، ولعل أقسى ما عانوه من الكوارث هى فاجعة كربلاء التى لم ترع فيها أى حق لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) فى عترته وأبنائه.

ومهد أبو بكر الخلافة من عبده إلى عمر فتولاها بسهولة ويسر من غير أن يلاقى أى جهد أو عناء وقد قبض على الحكم بيد من حديد، فساس البلاد بشدة وعنف بالغين حتى تحاشى لقاءه أكابر الصحابة فإن درته ـ كما يقولون ـ كانت أهيب من سيف الحجاج حتى أن ابن عباس مع ماله من المكانة المرموقة والصلات الوثيقة به لم يستطع أن يجاهر برأيه فى حلية المتعة إلا بعد وفاته وقد خافه وهابه حتى عياله، وأبنائه، فلم يستطع أى واحد منهم أن يفرض إرادته عليه، ونعرض ـ بإيجاز ـ إلى بعض مناهج سياسته: فقد اتفقت مصادر التاريخ الإسلامى على أن عمر عدل فى سياسته عن منهج أبى بكر فلم يساو بين المسلمين فى العطاء وإنما ميز بعضهم على بعض وكان قد أشار على أبى بكر فى أيام خلافته العدول عن سياسته فلم يقبل وقال: (إن الله لم يفضل أحداً على أحد ولكنه قال: (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) ولم يخص قوماً دون آخرين) [۸۵] ، ولما أفضت إليه الخلافة عمل بما كان قد أشار به على أبى بكر، وقال: (إن أبا بكر رأى فى هذا الحال رأياً ولى فيه رأى آخر لا أجعل من قاتل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) كمن قاتل معه) وقد فرض للمهاجرين والأنصار ممن شهد بدراً خمسة آلاف، وفرض لمن كان إسلامه كإسلام أهل بدر ولم يشهد بدراً أربعة آلاف وفرض لأزواج النبى (صلّى الله عليه وآله) اثنى عشر ألفاً، إلا صفية وجويرية فقد فرض لهما ستة آلاف فأبتا أن يقيدا بذلك وفرض للعباس عم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) اثنى عشر ألفاً، وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف، وفرض لابنه عبد الله ثلاثة آلاف فأنكر عليه ذلك وقال: (يا أبت لم زدته علىّ ألفا؟ ما كان لأبيه من الفضل ما لم يكن لأبى، وكان له ما لم يكن لى..).

فقال له عمر: (إن أبا أسامة كان أحب إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) من أبيك.

وكان أسامة أحب إلى رسول الله منك..) [۸۶] .

وقد فضل عمر العرب على العجم، والصريح على المولى [۸۷] وقد أدت هذه السياسة إلى إيجاد الطبقية بين المسلمين، كما استدعت إلى تصنيف الناس بحسب قبائلهم وأصولهم فنشط النسابون لتدوين الأنساب وتصنيف القبائل بحسب أصولها [۸۸] ممّا أدى إلى حنق الموالى على العرب، وكراهيتهم لهم، والتفتيش عن مثالهم، ظهور النعرات الشعوبية والقومية فى حين أن الإسلام قد أمات هذه الظاهرة وجعل رابطة الدين أقوى من رابطة النسب، والزم السلطة بالمساواة والعدالة بين الناس على اختلاف قومياتهم وأديانهم حتى لا تحدث ثغرة فى صفوف المجتمع.

وقد اثارت هذه السياسة موجة الإنكار عند الكثيرين من المحققين، وفيما يلى بعضهم:

يقول الدكتور عبد الله سلام: (لست أدرى كيف اتخذ عمر هذا الإجراء؟ ولماذا اتخذه؟ إنه إجراء أوجد تفاوتاً اجتماعياً واقتصادياً، إجراء أوجد بذور التنافس والتفاضل بين المسلمين) [۸۹] .

وممن أنكر هذه السياسة الدكتور محمد مصطفى هدارة يقول: (وفرض العطاء على هذه الصورة قد أثر تأثيراً خطيراً فى الحياة الاقتصادية للجماعة الإسلامية إذ خلق شيئاً فشيئاً طبقة أرستقراطية غنية يأتيها رزقها رغداً دون أن تنهض بعمل ما مقابل ما يدخل إليها من أموال. ذلك أن فرض العطاء كان يرتكز على ناحيتين القرابة من رسول الله (صلّى الله عليه وآله)، والسابقة فى الإسلام ولهذه القرابة ولتلك السابقة درجات ودرجات، وبهذا لم يرع عمر فرض العطاء ذلك المقابل الذى لا بد أن تأخذه الدولة فى صورة عمل وجهاد) [۹۰] .

وأنكر ذلك الشيخ العلائلى بقوله: (هذا التنظيم المالى أوجد تمايزاً كبيراً، وأقام المجتمع العربى على قاعدة الطبقات بعد أن كانوا سوءا فى نظر القانون (الشرعية) فقد أوجد أرستقراطية وشعباً وعامة) [۹۱].

هؤلاء بعض الناقدين للسياسة المالية التى أنتهجها عمر، وهى حسب مقررات الاقتصاد الإسلامى لا تحمل أى طابع من التوازن الاقتصادى فقد خلقت الرأسمالية عند عدد من الصحابة وتضخمت الأموال الهائلة عندهم ممّا أوجب تغيير الحياة الإسلامية، وسيطرة الرأسماليين على سياسة الدولة. وتسخير أجهزتها لمصالحهم، وقيامهم بدور المعارضة لكل حركة إصلاحية أو سياسية عادلة فى البلاد، وقد اشتدت تلك الزمرة فى معارضة حكومة علىّ (عليه السلام) وزجت بجميع ما تملك من الوسائل الاقتصادية وغيرها لإسقاط حكمه لأن سياسته العادلة كانت تهدف إلى منعهم من الامتيازات ومصادرة ثرواتهم التى ابتزوها بغير حق.

وجهد عمر على فرض سلطانه بالقوة والعنف، فخافه القريب والبعيد وبلغ من عظيم خوفهم أن امرأة جاءت تسأله عن أمر، وكانت حاملاً، ولشدة خوفها منه أجهضت حملها [۹۲] وكان شديداً بالغ الشدة، خصوصاً مع من كان يعتد بنفسه،يقول الرواة، إنه كان يقسم مالاً بين المسلمين ذات يوم، وقد ازدحم الناس عليه فأقبل سعد بن أبى وقاص، وبلاؤه معروف فى فتح فارس، فزاحم الناس حتى خلص إلى عمر، فلما رأى اعتداده بنفسه علاه بالدرة، وقال: (لم تهب سلطان الله فى الأرض، فأردت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك)، وقصته مع جبلة تدل على مدى صرامته وشدته، فقد أسلم جبلة وأسلم من كان معه، وفرح المسلمون بذلك، وحضر جبلة الموسم، وبينما يطوف حول البيت إذ وطأ إزاره رجل من فزاره فحله فأنف جبلة وسارع إلى الفزارى فلطمه، فبلغ ذلك عمر فاستدعى الفزارى وأمر جبلة أن يقيده من نفسه أو يرضيه، وضيق عليه فى ذلك غاية التضييق، فارتد جبلة وخرج عن الإسلام وولى إلى هرقل فاحتفى به وأضفى عليه النعم، إلا أن جبلة كان يبكى أمر البكاء على ما فاته من شرف الإسلام وقد أعرب عن حزنه واساه بقوله:

تنصرت الأشراف من أجل لطمة
وما كان فيها لو صبرت لها ضرر

تكنفنى منها لجاج ونخوة
وبعث لها العين الصحيحة بالعور

فيا ليت أمى لم تلدنى وليتنى
رجعت إلى القول الذى قال لى عمر

ويا ليتنى أرعى المخاض بقفره
وكنت أسيراً فى ربيعة أو مضر

وقد أراد عمر أن يقوده بأول بادرة تبدو منه ببرة [۹۳] محاولاً بذلك إذلاله ويحدثنا ابن أبى الحديد عن شدة عمر مع أهله فيقول: كان إذا غضب على واحد منهم لا يسكن غضبه حتى يعض على يده عضاً شديداً فيدميها) [۹۴].

وعرض عثمان إلى شدة عمر حينما نقم عليه المسلمون، واشتدوا فى معارضته فأخذ يذكرهم بغلظته وقسوته لعلهم ينتهون عنه قائلاً: (لقد وطئكم ابن الخطاب برجله، وضربكم بيده،وقمعكم بلسانه فخفتموه ورضيتم به...) [۹۵].

ووصف الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) بعد حفنة من السنين سياسة عمر ومدى محنة الناس فيها بقوله:

(فصيرها ـ يعنى أبا بكر فى توليته لعمر ـ فى حوزة خشناء يغلظ كلمها، ويخشن مسها، ويكثر العثار فيها، والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة إن اشنق لها خرم، وإن أسلس لها تقحم، فمنى الناس لعمر الله بخبط وشماس وتلون واعتراض..) [۹۶].

وتتجافى هذه السياسة عن سيرة الرسول (صلّى الله عليه وآله) وسياسته، فقد سار بين الناس بالرفق واللين، وساسهم بالرأفة والرحمة، وكان لهم كالأب الرؤوف، وكان يشجب جميع مظاهر الرعب التى تبدو ومن بعض الناس تجاهه فقد جاءه رجل، وقد أخذته الرهبة منه، فنهره (صلّى الله عليه وآله) وقال له: (إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد) وقد سار (صلّى الله عليه وآله) بين أصحابه سيرة الصديق مع صديقه والأخ مع أخيه من دون أن يشعرهم بأن له أية مزية أو تفوق عليهم، وقد مدح الله تعالى معالى أخلاقه بقوله: (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ).

ويقول المؤرخون: إن عمر فرض الحصار على صحابة الرسول، ولم يسمح لهم بمغادرة يثرب، فكانوا لا يخرجون إلا بإذن خاص منه، وقد خالف بهذا الإجراء ما آثر عن الإسلام فى منحه الحريات العامة للناس جميعاً، فقد منحهم حرية الرأى والقول، وحرية العقيدة، وحرية العمل وجعلها من الحقوق الذاتية للإنسان، وألزم الدولة بحمايتها، ورعايتها وتوفيرها وليس للسلطة أن تقف موقفاً معاكساً أو مجافياً لها، شريطة أن لا يستغلها الإنسان فى الإضرار بالغير أو يحدث فساداً فى الأرض.

وسلك عمر ما سلكه أبو بكر فى إبعاد الأسرة الهاشمية عن جهاز الحكم، فلم يجعل لها أى نصيب فيه، وإنما عهد إلى من ولاهم أبو بكر، فأقرهم فى مناصبهم، ومن الغريب أنه لم يعين أى واحد من الصحابة النابهين أمثال طلحة والزبير، وقد قيل له: إنك استعملت يزيد بن أبى سفيان وسعيد بن العاص، وفلاناً وفلاناً من المؤلفة قلوبهم من الطلقاء وأبناء الطلقاء، وتركت أن تستعمل عليّاً والعباس والزبير وطلحة؟!! فقال: أما على فأنبه من ذلك، وأما هؤلاء النفر من قريش، فإنى أخاف أن ينشروا فى البلاد فيكثروا فيها الفساد، وعلق ابن أبى الحديد على كلامه هذا بقوله:

(فمن يخاف من تأميرهم لئلا يطمعوا فى الملك، ويدعيه كل واحد منهم لنفسه كيف لم يخف من جعلهم ستة متساويين فى الشورى، مرشحين للخلافة! وهل شيء أقرب إلى الفساد من هذا..) [۹۷].

اعتزال الامام

ولم يختلف المؤرخون فى أن الإمام على (عليه السلام) قد انطوت نفسه على حزن عميق وأسى شديد على ضياع حقه، وسلب تراثه، فقد جهد القوم على الغض من شأنه، ومعاملته كشخص عادى غير حافلين بمواهبه، ومواقفه ومكانته من النبى (صلّى الله عليه وآله) فكان فى معزل عنهم، لا ـ يشاركهم فى أى أمر من أمور الملك والسلطان، ولا ـ يشاركونه فيها، وأعرض عنهم وأعرضوا عنه، حتى ألصق خده بالتراب، كما يقول المؤرخون، يقول محمد بن سليمان فى أجوبته عن أسئلة جعفر بن مكى عما دار بين على وعثمان قال: (إن عليّاً دحضه الأولان ـ يعنى الشيخين ـ وأسقطاه، وكسرا ناموسه بين الناس، فصار نسياً نسياً) [۹۸].

ويعزوا الإمام (عليه السلام) فى حديث له مع عبد الله بن عمر إلى أبيه جميع ما لاقاه من النكبات التى منها تقدم عثمان عليه [۹۹].

وعلى أى حال فإن الإمام (عليه السلام) قد اعتزل عن الناس فى عهد عمر كما اعتزلهم فى عهد أبى بكر، فصار جليس بيته يساور الهموم، ويسامر النجوم، ويتوسد الأرق ويفترش الأرق، ويتجرع الغصص، قد كظم غيظه فلم يتصل بأحد إلا بخلّص أصحابه الذين عرفوا واقعه، ومكانته كعمار ابن ياسر، وأبى ذر، والمقداد، وقد عكف على جمع القرآن وكتابته والإمعان فى آياته.

وأجمع المؤرخون على أن عمر كان يرجع إليه فى مهام المسائل التى يسأل عنها، والإمام لم يضن عليه بالجواب، إظهاراً لأحكام الله التى يجب على العلماء إذاعتها بين الناس.. وكان عمر يذيع فضل الإمام (عليه السلام) ويقول: (لولا على لهلك عمر).

والشيء المحقق أن عمر كان فى أكثر المسائل الفقهية إذا سئل عنها لم يهتد لجوابها وإنما يفزع إلى الإمام (عليه السلام) والى سائر

الصحابة، وقد اشتهرت كلمته (كل الناس أفقه من عمر حتى ربات الحجال) وقال: (كل الناس أفقه من عمر حتى المخدرات فى البيوت) وقد دلّ المحقق الأمينى على ذلك بما لا مزيد عليه [۱۰۰] .

ويروى التاريخ كثيراً من الحوادث المستعصية التى واجهت الخلفاء،والتى لم تجد لها معالجاً سوى الإمام على (عليه السلام).

إذن كان دور الإمام على (عليه السلام) فى تلك الفترة، وهو حماية الدعوة من كل أشكال الانحراف والأخطار التى أخذت تهدد وجودها وهيمنتها، فشارك الخلفاء فى تحمل المسؤولية، فكان المستشار والمرشد والقاضى والمشرّع... كان الإمام على (عليه السلام) يردد دائماً: (والله لأسالمنّ ما سلمت أمور المسلمين ولو لم يكن جورٌ إلا علىّ خاصة).

واستمر أيضاً فى احتضان الإسلام وتدعيم وحدة المسلمين، حتى اغتيل عمر بن الخطاب على يد أبى لؤلؤة بعد عشر سنوات من ولايته، وسارع عمر قبل وفاته إلى وضع أمر الخلافة بين ستة من الصحابة يختارون واحداً منهم، وهم على (عليه السلام) وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص على أن يكون عبد الرحمن هو الحكم (وكان عبد الرحمن صهراً لعثمان) واجتمع الستة، وبعد التداول: وهب طلحة حقه لعثمان، والزبير لعلى، وسعد لعبد الرحمن ثم تنازل عبد الرحمن عن حقه لمن يقبل (على أو عثمان) البيعة على سنّة الله ورسوله ورأى الشيخين فقبل عثمان، ورفض علىٌ قائلاً: (أبايع على سنّة الله ورسوله واجتهاد رأى..).

إن مصدر التشريع فى الإسلام إنما هو كتاب الله وسنة نبيه، فعلى ضوئهما تعالج مشاكل الرعيّة، ويسير نظام الدولة، وليس فعل أبى بكر وعمر من مصادر التشريع الإسلامى، على أنهما اختلفا أشد الاختلاف فى النظم السياسية، فقد انتهج أبو بكر فى سياسته المالية منهجاً أقرب إلى المساواة من سياسة عمر، فإنه ألغى المساواة فى العطاء، وأوجد نظام الطبقية، فقدم بعض المسلمين على بعض، وشرع حرمة المتعتين متعة الحج ومتعة النساء فى حين أنهما كانتا مشروعتين فى عهد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وأبى بكر، وكانت له آراؤه الخاصة فى كثير من المجالات التشريعية.

فعلى أى المنهجين يسير ابن أبى طالب ربيب الوحى ورائد العدالة الاجتماعية فى الإسلام.

إن ابن عوف يعلم علماً جازماً لا يخامره أدنى شك أن الإمام لو تقلد زمام الحكم لطبق شريعة الله فى الأرض، وساس المسلمين سياسة قوامها العدل الخالص، والحق المحض، ولم يمنح الأسر القرشية أى جهة من الامتياز وساوى بينها وبين غيرها فى جميع الحقوق والواجبات، فتفوت بذلك مصالح هذه الطبقة التى جنت على الإسلام، وجرت للمسلمين أعظم الويلات والخطوب.

إن الإمام لو وافق على الالتزام بما شرط عليه ابن عوف لما أمكنه أن يطبق أى منهج من مناهج سياسته الهادفة إلى نشر العدل بين الناس، ومن المقطوع به أن الإمام حتى لو التزم بهذا الشرط ظاهراً لحالت قريش بينه وبين تطبيق أهدافه، ولم تدع له أى مجال لتحقيق العدالة الاجتماعية، ويكون خروجها عليه مشروعاً لأنه لم يف لها بوعده.

وعلى أى حال فإنّ عبد الرحمن لما يئس من تغيير اتجاه الإمام انبرى إلى عثمان فشرط عليه ذلك فسارع إلى إجابته، وأظهر استعداده الكامل لكل ما شرطه عليه وفيما أحسب أن هناك اتفاقاً سرياً بينهما أحيط بكثير من الكتمان فإنه بأى حال لا ينتخب الإمام وإن أجابه إلى ما شرط عليه. وإنما طلب منه البيعة لأجل التغطية على مخططاته فاستعمل هذه المناورة السياسية، ويرى بعض المؤرخين من الإفرنج أن عبد الرحمن استعمل طريقة المداورة والانتهازية، ولم يترك الانتخاب يجرى حراً. يقول المؤرخون: إن عبد الرحمن بادر إلى عثمان فصفق بكفه على يده وقال له:

(اللّهم إنى قد جعلت ما فى رقبتى من ذاك فى رقبة عثمان..). ووقعت هذه المبادرة كصاعقة على القوى الخيرة التى جهدت على أن يسود حكم الله بين المسلمين، وانطلق الإمام صوب ابن عوف فخاطبه قائلاً:

(والله ما فعلتها إلا لأنك رجوت منه ما رجا صاحبكما من صاحبه دق الله بينكما عطر منشم..) [۱۰۱] .

وألقى الإمام الأضواء على اختيار عبد الرحمن لعثمان من أنه لم يكن من صالح الأمة وإنما كان وليد الأطماع والأهواء السياسية فقد

رجا ابن عوف أن يكون خليفة من بعد عثمان، واتجه الإمام صوب القرشيين فقال لهم:

(ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا فصبر جميل والله المستعان على ما تصنعون).

ولذع منطق الإمام ابن عوف فراح يهدده (يا على لا تجعل على نفسك سبيلاً) [۱۰۲] وغادر الإمام المظلوم المهتضم قاعة الاجتماع، وهو يقول: (سيبلغ الكتاب أجله ـ إذن عارض ـ الإمام (عليه السلام) نتائج المسرحية، ولما لم تكن الظروف ملائمة للتحرك السلبى، إذ لا يزال الخطر يحدق بالإسلام، سكت عن حقه، مكتفياً بتسجيل موقفه المبدئى بقوله: (إن لنا حقّاً إن نعطه أخذناه، وإن نُمنعه نركب أعجاز الإبل).

ولم تتغير سياسة الإمام على (عليه السلام) فى التوجيه والنصح والتقويم كما كانت فى السابق، ولكن الأوضاع الآن قد ساءت إلى حدّ كان يُنذر بالثورة لأن عثمان كان ضعيف الإرادة خائر العزيمة، فلم تكن له أية شخصية قوية متماسكة يستطيع بها أن يفرض آراءه وإرادته، كما لم تكن له أية قدرة على مواجهة الأحداث والتغلب عليها، قد أخذ الأمويون بزمامه، واستولوا على جميع مقدرات حكومته، لم يستطع أن يقف موقفاً إيجابياً يتسم بالصلابة ضد رغباتهم، وأهوائهم، فكان بالنسبة إليهم ـ فيما يقول بعض المؤرخين ـ كالميت فى يد الغاسل، وكان الذى يدير شؤون دولته مروان بن الحكم، فهو الذى يعطى ما يشاء ويمنع من يشاء ويتصرف فى مقدرات الأمة حسب ميوله من دون أن يعنى بأحكام الإسلام، ولا رأى لعثمان، ولا اختيار له فى جميع الأحداث التى تواجه حكومته، فقد وثق بمروان واعتمد عليه، وأناط به جميع شؤون الدولة، يقول ابن أبى الحديد نقلاً ـ عن بعض مشايخه: إن الخليفة فى الحقيقة والواقع إنما كان مروان وعثمان له اسم الخلافة. إن قوة الإرادة لها الأثر التام فى تكوين الشخصية واستقامتها، فهى تكسب الشخص قوة ذاتية يستطيع أن يقف بحزم أمام التيارات والأعاصير التى تواجهه فى هذه الحياة، ومن المستحيل أن يحقق الشخص أى هدف لأمته ووطنه من دون أن تتوفر فيه هذه النزعة، وقد منع الإسلام منعاً باتاً أن يتولى ضعيف الإرادة قيادة الأمة، وخطر عليه مزاولة الحكم لأنه يعرض البلاد للويلات والخطوب، ويغرى ذوى القوة بالتمرد والخروج من الطاعة وتمنى الأمة بالأزمات والأخطار. ووصفه بعض المؤرخين بالرافة والرقة واللين والتسامح إلا أن ذلك كان مع أسرته وذويه أما مع الجبهة المعارضة لحكومته فقد كان شديد القسوة، فقد بالغ فى إرهاقهم واضطهادهم، وقابلهم بمزيد من العسف والعنف، فنفى الصحابى أبا ذر الغفارى (رضى الله عنه) من يثرب إلى الربذة، وفرض عليه الإقامة الجبرية فى مكان انعدمت فيه جميع وسائل الحياة، حتى مات طريداً غريباً، ونكل بالصحابى العظيم عمار بن ياسر فأمر بضربه حتى أصابه فتق، وألقته شرطته فى الطريق مغمى عليه، وأوعز إلى شرطته. بضرب القارئ الكبير عبد الله بن مسعود فألهبت جسمه سياطهم وألقوه فى الطريق بعد أن هشموا بعض أضلاعه، وحرم عليه عطاءه، وهكذا اشتد فى القسوة مع أعلام المعارضة.

نعم كان شديد الرأفة والرقة بأرحامه من بنى أمية وآل أبى معيط فمنحهم خيرات البلاد وحملهم على رقاب الناس، وأسند إليهم جميع المناصب الحساسة فى الدولة.

وظاهرة أخرى من نزعات عثمان هو انه كان شديد القبلية فقد أترعت نفسه بالعواطف الجياشة تجاه قبيلته، حتى تمنى أن تكون مفاتيح الفردوس بيده ليهبها لبنى أمية، وقد آثرهم بالفىء، ومنحهم الثراء العريض، ووهبهم الملايين من أموال الدولة، وجعلهم ولاة على الأقطار والأقاليم الإسلامية وكانت تتواتر لديه الأخبار بأنهم جانبوا الحق وظلموا الرعيّة، وأشاعوا الفساد فى الأرض فلم يعن بذلك ولم يفتح معهم أى لون من ألوان التحقيق ورد الشكاوى الموجهة ضدهم...

وكان معروفاً عن عثمان بأنه كان يميل إلى الترف والبذخ ولم يعن ببساطة العيش والزهد فى الدنيا كما كان رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ففتن بالبذخ والترف فاتخذ القصور، واصطفى لنفسه ما شاء من بيت المال وأحاط نفسه بالثراء العريض من دون أن يتحرج فى ذلك، ووصفه الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) بقوله: (نافجاً حضنيه بين نثيله ومعتلفه) وكان ذلك من موجبات النقمة عليه. هذه بعض نزعات عثمان، وقد أوجبت إخفاقه وفشله فى الميادين السياسية، وإذاعة التذمر والنقمة عليه.

إزاء هذا الوضع المتردى عمل الإمام على (عليه السلام) باتجاهين:

۱ـ النصح لعثمان وتحذيره من سياسة ولاته وأقاربه.

۲ـ تهدئة المعارضة كى تتخلى عن العنف إلى اللين والمرونة.

واجتمع الإمام (عليه السلام) بعثمان مرات عديدة، وفى كل مرة كان ينصحه: ليكفّ أيدى الولاة المنحرفين، ويقيم العدل ويحقق المساواة، وبالتالى يحذره من العواقب الوخيمة المنتظرة... ولكن كل ذلك لم يجد أذناً صاغية، فبقيت الأمور على حالها. عندها، وفى المرة الأخيرة، ودع الإمام (عليه السلام) عثمان قائلاً: (ما يريد عثمان أن ينصحه أحد.. اتخذ بطانة غش، ليس منهم أحد إلا وقد تسيب بطائفة من الأرض يأكل خراجها ويستذل أهلها).

ولما لم تجد النصائح والأـصوات المعارضة.. تفجرة الثورة. وأحاط الثائرون ببيت عثمان، وعلم عثمان أن لا ملجأ له إلا الإمام أمير المؤمنين على بن أبى طالب (عليه السلام) فاستغاث به، وطلب منه أن يدعو القوم إلى كتاب الله وسنة نبيه، فأجابه إلى ذلك بعد أن أخذ منه المواثيق على الوفاء بعهده، ومضى الإمام إلى الثوار وهو يحمل الضمان لجميع مطالبهم..

ولكن عثمان نقض ما قطعه على نفسه، ولم يف للمسلمين بما عاهدهم عليه ويقول المؤرخون إن السبب فى ذلك أن مروان الذى كان مستشاراً له ووزيراً، قد دخل عليه فلامه على ما صنع قائلاً:

(تكلم واعلم الناس أن أهل مصر [۱۰۳] قد رجعوا، وإن ما بلغهم عن إمامهم كان باطلاً، فإن خطبتك تسير فى البلاد، قبل أن يتحلب الناس عليك من أمصارهم فيأتيك من لا يستطيع دفعه..) وامتنع عثمان عن إجابته لأنه دعاه لأن يناقض نفسه، وأن يقول غير الحق ولكنه ما زال به يحذره مغبة ما صنع، ويخوفه عاقبة الأمور، ولم تكن لعثمان إرادة صلبة، ولا عزم ثابت، فكان ألعوبة بيد مروان فاستجاب له، واعتلى المنبر فخاطب الناس قائلاً:

(أما بعد: إن هؤلاء القوم من أهل مصر كان بلغهم عن إمامهم أمر فلما تيقنوا انه باطل ما بلغهم رجعوا إلى بلادهم..) وانبرى المسلمون إلى الإنكار عليه، وناداه عمرو بن العاص: (اتق الله يا عثمان، فإنك قد ركبت نهابير [۱۰۴] وركبناها معك فتب إلى الله نتب معك).

فصاح به عثمان: (وإنك هنا يا ابن النابغة؟ قملت والله جبتك منذ تركتك من العمل؟) وارتفعت أصوات الإنكار من جميع جنبات الحفل وهى ذات لهجة واحدة. (اتق الله يا عثمان) (اتق الله يا عثمان). وانهارت أعصابه، وتحطمت قواه فحار فى الجواب، ولم يجد بُداً من أن يعلن التوبة مرة أخرى عما اقترفه، ونزل عن المنبر، وهو خائر القوى، ومضى إلى منزله [۱۰۵] .

ولما تبين للثوار أنه لم يقلع عن سياسته، وإنه جاد فى سيرته لا يغير منها ولا يبدل أحاطوا به، وطالبوه بالاستقالة من منصبه فلم يستجب لهم ورأى أن يستنجد بمعاوية [۱۰۶] ليبعث له قوة عسكرية تحميه من الثوار، وقد كتب إليه هذه الرسالة:

(أما بعد: فإن أهل المدينة قد كفروا، وخلعوا الطاعة، ونكثوا البيعة فابعث إلىّ من قبلك مقاتلة أهل الشام على صعب وذلول) [۱۰۷] ، وحمل الكتاب مسور بن مخرمة، لما قرأه معاوية قال له مسور: (يا معاوية: إن عثمان مقتول فانظر فيما كتب به إليك..). وصارحه معاوية بالواقع وبما انطوت عليه نيته قائلاً: (يا مسور: إنى مصرح أن عثمان بدأ بما يحب الله ورسوله ويرضاه ثم غيّر فغير الله عليه، أفيتهيأ لى أن أرد ما غير الله عز وجل) [۱۰۸] ولم يستجب معاوية له، وكان فيما يقول المؤرخون: يترقب مصرعه ليتخذ من دمه وسيلة للظفر بالملك والسلطان، وقد تنكر لألطافه وايادية عليه وعلى أسرته، يقول الدكتور محمد طاهر درويش:

(وإذا كان هناك وزر فى قتل عثمان فوزره على معاوية، ودمه فى عنقه، ومسؤوليته عن ذلك لا تدفع، فهو أولى الناس به، وأعظم الرجال شأناً فى دولته، وقد دعاه فيمن دعا، يستشيره فى هذا الأمر وهو داهية الدهاة فما نهض إليه برأيه، ولا دافع عنه بجنده، وكأنه قد استطال ـ كما استطال غيره ـ حياته فترك الأيام ترسم بيدها مصيره، وتحدد نهايته فإذا جاز لأحد أن يظن بعلىّ أو بطلحة والزبير وغيرهم تقصيراً فى حق عثمان فمعاوية هو المقصر، وإذا جاز أن يُلام أحد غير عثمان فيما جرى فمعاوية هو الملوم..) [۱۰۹] .

وعلى أى حال فإن معاوية لما أبطأ عن إجابته، بعث عثمان رسالة إلى يزيد بن كرز والى أهل الشام يستحثهم على القدوم إليه لإنقاذه

من الثوار ولما انتهى إليهم كتابه نفروا إلى إجابته تحت قيادة يزيد القسرى إلا أن معاوية أمره بالإقامة بذى (خشب) وأن لا يتجاوزه فأقام الجيش هناك حتى قتل عثمان.

وكتب عثمان رسائل أخرى إلى أهل الأمصار والى من حضر الموسم فى مكة يطلب منهم القيام بنجدته إلا أنهم لم يستجيبوا له لعلمهم بالأحداث التى ارتكبها.

وأحاط به الثوار فمنعوا عنه الماء والطعام، وحاصروه، وهو مصر على سياسته لم يقلع عنها، وقد أترعت النفوس بالحقد والكراهية له، وقد جنى هو على نفسه لإطاعته لمروان، وانصياعه لرغبات بنى أمية، وألقى عثمان جثة هامدة على الأرض، لم يسمح الثوار بمواراته، وقال الصفدى: إنهم ألقوه على المزبلة ثلاث أيام [۱۱۰] ، مبالغة فى تحقيره وتوهينه وتكلم بعض خواصه مع الإمام أمير المؤمنين على (عليه السلام) ليتوسط فى شأنه مع الثوار فى دفنه، فكلمهم الإمام فأذنوا فى دفنه [۱۱۱] ودفنوه فى حش كوكب [۱۱۲] ولم يرضى الأنصار دفنه فى مقابر المسلمين [۱۱۳] وعلى أى حال فقد كانت الثورة على عثمان ثورة اجتماعية لا ـ تقل شأناً عن أنبل الثورات الإصلاحية التى عرفها التاريخ فقد كانت تهدف إلى الحد من سلطة الحاكمين، ومنعهم من الاستبداد بشؤون الناس، وإعادة الحياة الإسلامية إلى مجراها الطبيعى.

حكومة الامام على

بعد مقتل عثمان، توجهت أنظار الثوار إلى الإمام على يطلبون منه أن يلى الحكم، خاصة بعد تدهور مجمل أوضاع المسلمين وبدأوا يفكرون بصورة جدّية فى اختيار القيادة الإسلامية الشرعية القادرة على إدارة شؤون الدولة الإسلامية والتى أوصى بها رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وجاء إجماع المسلمين على انتخاب الإمام أمير المؤمنين على (عليه السلام) فى ولاة الأمة.

ومع أن هذا الإجماع جاء متأخراً ربع قرن حينما تغافلت جماهير الأمة أحاديث ووصايا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فى حق على (عليه السلام) فى ولاية أمور المسلمين.

وجاء الناس بعد مقتل عثمان إلى الإمام (عليه السلام) وقد اجتمعوا من كل مصر ليبايعوا الإمام على (عليه السلام) وكان الإمام (عليه السلام) يتهرب منهم، وهم يتعقبونه ويصرّون عليه بقبول البيعة، واستمرت الحالة بين رفض الإمام (عليه السلام) وإصرار الجماهير لعدة أيام.

فالإمام (عليه السلام) كان يدرك نتيجة لوعيه العميق للظروف الاجتماعية والنفسية التى كانت تجتاح المجتمع الإسلامى فى ذلك الحين، ولأن المدّ الثورى الذى انتهى بالأمور إلى ما انتهت إليه بالنسبة إلى عثمان يقتضى عملًا ثورياً يتناول دعائم المجتمع الإسلامى من النواحى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية [۱۱۴] .

ومن هنا كان رفض الإمام (عليه السلام) وامتناعه عن الاستجابة الفورية لضغط الجماهير والصحابة عليه بقبوله الخلافة، فقد أراد أن يضعهم أمام اختبار يكتشف به مدى استعدادهم لتحمل أسلوب الثورة فى العمل لئلا يروا فيما بعد أنه استغفلهم واستغل اندفاعهم الثورى حين يكتشفون صعوبة الشروط التى يجب أن يناضلوا الفساد الذى ثاروا عليه فى ظلها) [۱۱۵] .

ولهذا أجابهم الإمام (عليه السلام) بقوله: (دعونى والتمسوا غيرى، فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول، وإن الآفاق قد أغامت والمحجة قد تنكرت واعلموا أنى إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل، وعتب عاتب، وإن تركتمونى فأنا كأحدكم، ولعلى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، وأنا لكم وزيراً خير لكم منى أمير) [۱۱۶] .

ولم يجد الإمام (عليه السلام) بداً ـ بعد انثيال الناس لمبايعته خليفة على المسلمين، فاستجاب لرغبة الناس وقبل الخلافة دونما إرادة منه.. وقد صوّر الإمام (عليه السلام) تدافع الناس وهم يلتمسون منه القبول فى تحمل مسؤولية الإنقاذ فيقول (عليه السلام): (فما راعنى إلا ـ والناس كعرف الضبع إلىّ، ينثالون علىّ من كل جانب حتى لقد وُطئ الحسنان، وشُقّ عطفاى، مجتمعين حولى كربيضة الغنم..)

ولكنه (عليه السلام)، يذكر فى نهاية خطبته جملة بعنوان اتمام الحجة، فيقول: (واعلموا إنى إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم): أى إذا استلمت زمام الخلافة فإنى سوف أقودكم وفق علمى، واجتهادى، وليس وفق ما تريدونه أنتم.

وكان آخر ما قاله لهم فى تلك الخطبة أيضاً؛ (وإن تركتمونى فأنا كأحدكم، ولعلى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، وأنا لكم وزيراً خير لكم منى أميراً) [۱۱۷] هذه الكلمات التى صدرت من على (عليه السلام)، تبين أنه كان يتوقع مشاكل كثيرة، تحدث فى عهد خلافته، وهى من التعقيد والغموض بحيث علم بأنه سوف يصعب على الناس فى كثير من الأحداث المقبلة، أن يتقبلوا أوامر القيادة الشرعية، ويتفهموها، وكان هذا هو السر فى كراهته لقبوله الخلافة، وقد حدث ما توقعه الإمام (عليه السلام) فيما بعد فماذا كانت المشاكل التى واجهها (عليه السلام)؟

مشكلات الامام على

أذكر فيما يلى بعضاً من هذه المشاكل، بصورة سريعة، ومجملة، لكى أصل إلى مشكلة المشاكل، وكبرى المعضلات التى واجهها على (عليه السلام)، وهى مشكلة الخوارج [۱۱۸] فأفصّل الكلام فيها بعض الشىء.

۱ـ مشكلة مقتل عثمان (مشكلة النفاق):

إن أولى المشاكل التى وقعت، والتى قال على (عليه السلام) بشأنها أن هناك مستقبلاً مظلماً ينتظر المسلمين وهى ذيول حادثة مقتل عثمان، حيث استلم على (عليه السلام) الخلافة، فى وضع غير عادى، فقد قتل الثوار الغاضبون، الخليفة السابق، ولم يسمحوا حتى بدفنه [۱۱۹] ، ثم انضم الثوار إلى صف على (عليه السلام)، فماذا كان رأى بقية المسلمين؟

بالطبع لم يكن عامة الناس يفكرون كما يفكر الثوار...

كما أن عليا (عليه السلام) نفسه، لم يكن تفكيره ينسجم، لا مع الثوار ولا مع مخالفيهم ولا مع عامة الناس...

فكانت النتيجة أن نفذ الثوار تهديدهم، دون أن يكون لعلى يد فى ذلك [۱۲۰] إن عليا (عليه السلام)، كان يعلم أن مقتل عثمان سوف يصبح مسألة توجب إثارة الفتنة [۱۲۱] ، خصوصاً عند الالتفات إلى نكتة مهمة كشف عنها مؤخراً علماء الاجتماع، والمؤرخون المحققون الذين طالعوا تاريخ الإسلام بدقة وتمعن، ونلاحظ أن نهج البلاغة ـ أيضاً ـ قد أشار إلى هذه المسألة، وهى أن بعض المؤيدين لعثمان كان لهم ـ أيضاً ـ يد فى قتله [۱۲۲] ، فكانوا يريدون أن يقتل عثمان لكى تقوم فتنة فى عالم الإسلام، فيصطادون صيدهم فى المياه العكرة.

وكان لمعاوية على الخصوص يد قوية فى مقتل عثمان، فعمل فى الخفاء على أن تستعر نار هذه الفتنة، ليستفيد هو بالتالى، من قتل الخليفة فى تحقيق أطماعه ومآربه.

وهنا أريد أن أركز على نقطة هامة فى هذه المشكلة التى واجهها على (عليه السلام)، وهى أنه نجد تفاوتاً واضحاً بين مخالفيه، ومخالفى النبى (صلّى الله عليه وآله) فى زمانه: فالنبى (صلّى الله عليه وآله) كان يواجه مجموعة من الكفار وعبدة الأوثان، وكانوا يحاربونه تحت شعار الوثنية، فكانوا ينكرون الله والتوحيد علناً، وكان أبو سفيان يصرّ على شعار (اعلُ هبل!) [۱۲۳] فسهل على الرسول (صلّى الله عليه وآله) مواجهتهم ومقاومتهم بهذا الشعار الواضح (الله أعلى وأجل).

أما على (عليه السلام) فكان يواجه طبقة من العلماء المنافقين [۱۲۴] ، يتظاهرون بالإسلام ولكنهم لم يكونوا فى الحقيقة مسلمين، فكانت شعاراتهم شعارات إسلامية: وأهدافهم ضد الإسلام.

وكان معاوية بن أبى سفيان مثل أبيه، يملك الروح السفيانية نفسها، والأهداف الشيطانية ذاتها، ولكن تحت شعار الآية القرآنية: (وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا) [۱۲۵] .

صحيح أن هذا الشعار، شعار جميل، ولكن ألاّ يوجد من يسأل معاوية: من هو ولى الدم الشرعى بالنسبة لعثمان؟ إن نسب معاوية لا

يتصل بنسب عثمان، إلا بأربعة أظهر صاعدة، أى أنهما يشتركان فى الجد الرابع فى حين أن عثمان له أولاد وأرحام أقرب إليه من معاوية، فكيف يتخطاهم معاوية جميعاً، وينصب نفسه ولياً للدم؟ ثم ما هى علاقة على (عليه السلام) بمقتل عثمان؟ ليس لعلى (عليه السلام) أى يد فى قتله ولكن شخصاً مخادعاً، مخاتلاً، مثل معاوية، لا يهمه كل ذلك، إنه يريد فقط أن يستغل الحادثة لصالحه، بأى صورة كانت.

وكان معاوية قد أوعز فى وقت سابق إلى عيونه وجواسيسه، الذين بثهم حول عثمان، بأن يرسلوا إليه فوراً ثوب الخليفة الملطخ بالدم عندما يسقط صريعاً.

وفعلاً ما إن قتل عثمان، حتى قاموا بتنفيذ الأمر، قبل أن يجف دم القتيل وبعثوا بالثوب الملطخ مع أصابع امرأة عثمان إلى معاوية على جناح السرعة. وما أن استلم معاوية ثوب الخليفة، والأصابع المقطوعة، حتى بدأ يلعب لعبته، فأمر أن تعلق أصابع امرأة عثمان إلى جانب منبره، وشرع فى الصباح: (يا أهل الشام، قد كنتم تكذبوننى فى على، وقد استبان لكم أمره، والله ما قتل خليفتكم غيره، وهو أمر بقتله، ألّب الناس عليه، وآوى قتلته، وهم جنده وأنصاره وأعوانه...) [۱۲۶] وجلس هناك يصرخ ويبكى على الخليفة المظلوم! وظل مدة فى الشام على هذا الحال، يقرأ التعازى على روح عثمان، ويستدر دموع الناس عليه، كما يعبئهم للمطالبة بدمه.

فيا ترى، ممن يزعمون أن يطلبوا بدم عثمان؟!

إن مؤامرة معاوية تقضى بأن يطلبوا دم عثمان من على (عليه السلام)، لأنه بزعمهم شريك للقتلة فى دم الخليفة، والدليل على ذلك، أن الثوار الذين هجموا على بيت عثمان، وقتلوه، يقفون الآن فى صف على، ويؤلفون قسماً من جيشه وعساكره!!

هذه هى المشكلة المفتعلة التى اتخذت من قبل أشخاص مغرضين ذريعة لإشعال نار حربين عظيمتين: (الجمل) و(صفين).

۲ـ التشدد فى إجراء العدالة:

وهناك مشكلة أخرى واجهها على (عليه السلام)، تتعلق من جهة بأسلوبه فى الحكم، ومن جهة أخرى بالتغيير الذى تعرض له المجتمع الإسلامى إبان خلافة (الثلاثة): وهى أنه (عليه السلام)، كان رجلاً صلباً، لا يلين فى تطبيق أحكام الإسلام.

فبعد النبى (صلّى الله عليه وآله)، ولسنوات عديدة، تعود المسلمون شيئاً فشيئاً على مسألة إعطاء الامتيازات للأفراد المقربين من الخليفة، والسلطة الحاكمة، ولكن علياً (عليه السلام)، أبدى تصلباً شديداً إزاء هذه المسائل، وكان يقول: (... فإن فى العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيق) [۱۲۷] ، حتى إن أصحابه جاءوا إليه يوماً وقد عاتبوه على التسوية فى العطاء، فقال لهم: (أتأمرونى أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه، والله لا أطور به ما سمر سمير) [۱۲۸] أى تطلبون منى أن أسعى لتحقيق أهدافى بالظلم، وغمط حقوق الناس؟ كلا لن يكون منى هذا أبداً، وإن طال الزمان.

۳ـ الصراحة والصدق فى السياسة:

والمشكلة الثالثة التى واجهها على (عليه السلام)، فى عهد خلافته، هى مسألة صدقه وصراحته فى مجال الحكم والسياسة، ولم يستحسن ذلك أيضاً بعض أصحابه، وقالوا فى ذلك: إنّ هذا غير معقول، لأن السياسة لا تتطلب هذا القدر من الصراحة والعفوية، ولا بد أن يشوبها شىء من المراوغة، والدّهاء لأن ذلك بمثابة ملح السياسة حتى أن بعضهم قالوا: إنّ علياً ليس عنده سياسة أصلاً، على العكس من معاوية الذى هو فى نظرهم سياسى داهية، فكان على (عليه السلام) يقول: (والله ما معاوية بأدهى منى، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية القدر، لكنت من أدهى الناس، ولكن كل غدرة فجرة، وكل فجرة كفرة، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة) [۱۲۹] .

فالتقوى هى التى حالت بينه (عليه السلام)، وبين أن يخوض مع الخائضين فى المؤامرات والألاعيب السياسية الماكرة، ودفعته إلى الالتزام بالصدق، والاستقامة فى كل مجالات الحياة، حتى فى السياسة والحكم.

وقد يفهم من العبارة الأخيرة: (ولكل غادر لواء) أن الإمام يقصد تحذير الناس من الانخداع والسير، وراء الحاكم الغادر الفاجر، وإلا حشدوا تحت لوائه يوم القيامة، ويا له من مصير سيئ!

۴ـ الخوارج [۱۳۰] : مشكلة على (عليه السلام) الرئيسية:

الخوارج الذين انفصلوا عن خط الإمام على (عليه السلام) وخرجوا عليه فى صفين، وأصبحوا فرقة تدعى بالخوارج [۱۳۱] .

ثم إنهم عملوا ما فى وسعهم لإيذاء الإمام والإساءة إليه، ولكن الأمير (عليه السلام) استعمل أقصى حد ممكن من المواراة معهم. ما دام أنهم لم يشهروا السيف، حتى أنه لم يقطع حقوقهم فى بيت المال، ولم يقيد حرياتهم. وكانوا يأتون إليه أمام الناس، ويتجاوزون بحضرته إلى حدّ توجيه الإهانات الوقحة، ولكنه (عليه السلام) كان يعتصم بالحلم، ولا يرد عليهم.

فمثلاً بينما كان الإمام (عليه السلام) يوماً على المنبر يخطب، كان أحد هؤلاء يثير الصخب والضجيج ويصدر أصواتاً غير مهذبة.

وفى يوم آخر سأله أحد الناس مسألة، فأجابه بجواب بليغ أثار تعجب الحاضرين واستحسانهم، فارتفعت أصواتهم بالتكبير، ولكن خارجياً كان بينهم فقال: (قاتله الله ما أفقهه!) فأراد أصحاب على (عليه السلام) أن ينقضوا عليه، فقال لهم الإمام: رويدكم، ماذا تريدون منه؟ إنه سبنى ولكم فقط أن تردوا عليه سبابه لا أكثر. اتركوه وشأنه.

وفى يوم ثالث، كان على (عليه السلام) منشغلاً بالصلاة، والناس يصلون خلفه (طبعاً لم يكن الخوارج يقتدون به، لأنهم سبق أن أفتوا بكفره)، وبينما كان يقرأ الحمد والسورة جاء أحدهم، ويدعى (ابن الكوا) وأخذ يقرأ هذه الآية بصوت عال: (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) [۱۳۲] .

فكان يريد أن يقول: يا علىّ، نحن نقر بأنك أول من دخل فى الإسلام، ونعترف بأن لك سوابق عظيمة، وخدمات جليلة للدين، وأنك من المجتهدين فى العبادة... ولكن لأنك كفرت، وجعلت لله شريكاً (إشارة إلى مسألة التحكيم) لقد حبط عملك، وليس لك أجر عند الله!!

فماذا كان من على (عليه السلام)؟ إنه ما إن بدأ الخارجى بتلاوة هذه الآية حتى توقف الإمام (عليه السلام) عن القراءة، عملاً بالآية الكريمة: (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا) [۱۳۳] ولما انتهى من التلاوة، عاد الإمام إلى قراءته، وهكذا ظل الخارجى يكرر الآية، وفى كل مرة، كان الإمام (عليه السلام) يسكت وينصت، ثم كان يعود ويواصل.

وفى المرة الرابعة: واصل الإمام صلاته، ولم يلتفت، وقرأ هذه الآية، (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ) [۱۳۴] .

هل اقتنع الخوارج بهذا القدر من الإيذاء؟ كلا، ولو كانوا فعلوا لما كانوا مشكلة كبيرة بالنسبة إلى على (عليه السلام). ولكننا نراهم أخذوا يتجمعون شيئاً فشيئاً، حول بعضهم، وشكلوا حزباً، بل فرقة إسلامية منشقة (عندما أقول إسلامية، لا أعنى أنهم فى الواقع جزء من المسلمين، فهم فى نظرنا كفار خرجوا عن الدين) [۱۳۵] ، وابتدعوا مذهباً جديداً فى الإسلام، واصطنعوا لمذهبهم أصولاً وفروعاً.

وأخذ أمر الخوارج يستفحل أكثر فأكثر، إلى أن وجد الإمام (عليه السلام) نفسه مضطراً إلى أن يضرب معسكراً فى مقابلهم، وكان عددهم قد بلغ حوالى اثنى عشر ألفاً، وأصبحوا يشكلون خطراً جدياً، بحيث لا تجوز المهادنة معهم، وإرخاء الحبل لهم، أكثر من ذلك.

وأرسل إليهم ابن عباس مندوباً عنه، يناقشهم ويفاوضهم، ولكنه لم يستطع أن يصنع شيئاً معهم، وعاد خالى الوفاض [۱۳۶] .

فذهب إليهم أمير المؤمنين (عليه السلام) بنفسه، وكان حديثه معهم مؤثراً، بحيث أن كثيراً منهم ندموا على عملهم، وطلبوا قبول توبتهم، فأمر على (عليه السلام) بنصب راية أمام معسكره، وأعلن أن كل من يأوى من الخوارج إلى هذه الراية، فهو فى أمان. وكان الذين رجعوا، وتجمعوا تحت راية الأمان، ثمانية آلاف رجلاً منهم، أما الأربعة آلاف الباقون، فأصروا على موقفهم، وأعلنوا استحالة رجوعهم عن عقيدتهم.

وعند ذاك شنّ عليهم الإمام بجيشه هجوماً عنيفاً، وأعمل فيهم السيف، برغم كونهم من العابدين والزاهدين، والمصلين الخاشعين، الذين كثرت الثفنات والقروح فى أيديهم، وجباههم، من كثرة السجود وظل يضرب منهم الرقاب إلى أن أتى عليهم جميعاً، ولم ينجُ

منهم إلا أقل من عشرة أشخاص، بينهم عبد الرحمن بن ملجم.

وهنا لابدّ من وقفة نتأمل فيها هذا الموقف الخطير الذى اتخذه الإمام تجاه هذه الفرقة الضالة، وهل أن اتخاذ مثل هذا الموقف، أمر ميسور لشخص آخر غير الإمام على (عليه السلام)؟

إن عامة المسلمين آنذاك، وخصوصاً الذين كانوا يقاتلون تحت لواء على (عليه السلام) كانوا ينظرون إلى أفراد هذه الفرقة على أنهم من المسلمين وإن اختلافهم مع القيادة لا يخرجهم من حظيرة الإسلام، سيما وأنهم أهل عبادة، وزهادة وآثار القداسة بادية على محاياهم، وهم يحرمون على أنفسهم حتى الصغائر ويتعصبون للدين بشكل يصعب على أى أحد ليس عنده بصيرة حادة، وبصر نافذ، أن يحكم عليهم بالكفر، ويجوز قتلهم.

وفى الواقع لا يمكن أن يتجرّأ أحد على قتل أفراد مسلمين متدينين، لا يفارق ذكر الله، وقراءة القرآن، شفاههم، إلا نوعان من الناس:

النوع الأول: أناس لا يعتقدون بالله واليوم الآخر، ولا بالإسلام، مثل جماعة يزيد، الذين قتلوا الحسين (عليه السلام) وأصحابه.

النوع الثانى: أناس يملكون من العلم والبصيرة، ما يتمكنون به من اختراق ستار القداسة والجلالة، ليصلوا إلى الجوهر الخبيث الكافر.

هذا النوع ينحصر فى فرد واحد، وهو شخص الإمام على (عليه السلام).

يقول أمير المؤمنين (عليه السلام)، فى نهج البلاغة: (أنا فقأت عين الفتنة، ولم يكن ليجترئ عليه أحد غيرى، بعد أن ماج غيهبها، واشتد كلبها...) [۱۳۷].

يقول (عليه السلام) بافتخار: أنا الذى وجهت ضربة قاصمة للخوارج، ولم يكن أحد غيرى يملك الجرأة على تصفية أولئك المنشقين، وإخماد فتنتهم، وقد تمّ هذا الأمر كما يقول الإمام (عليه السلام): (بعد أن ماج غيهبها، واشتد كلبها..).

والشق الأول من هذه العبارة: يشير فيه إلى ظلمات الشبهات والشكوك التى ترسل أمواجها بين المسلمين لتغمرهم، وتجعل هذا الأمر ملتبساً عليهم، بحيث لا يتمكنون أن يخرجوا من دائرة الحيرة والتردد فى أمر هؤلاء.

والشق الثانى: يشير فيه إلى إشعار هذه الفتنة، وقابليتها الكبيرة للانتشار بين المسلمين، باحتكاكهم مع هؤلاء، تماماً مثل انتشار مرض الكلب بين الذين يحتكون مع الكلاب المسعورة.

فكما أن كل من يرى كلباً مسعوراً، يعطى لنفسه الحق بأن يقتله، حتى لا يعض الآخرين ويسعرهم، فإن الإمام (عليه السلام) يقول:

لقد رأيت هؤلاء الكلاب المسعورة، فأدركت خطرهم على الإسلام، والمسلمين حالياً، وعلى مرّ العصور والأجيال، ورأيت أن لا مفر من إعدامهم وإلا فإنهم سرعان ما ينقلون مرضهم إلى غيرهم، ومن ثم يغرقون المجتمع الإسلامى فى بحار الحماقة والجهل، والجمود، والتحجر الفكرى.

۵ـ مشكلة الفساد المالى والإدارى والحقوقى

تسلّم الإمام (عليه السلام) الحكم فى مجتمع ورث الفساد وكانت تنتظره مشاكل معقدة كثيرة على مختلف الأصعدة، فعمل الإمام (عليه السلام) بسياسته الثورية الجديدة التى قرر أن يتبعها من أجل تحقيق الأهداف التى قبل الحكم لأجلها.

وقد تناولت سياسته الثورية ثلاثة ميادين هى:

۱ـ الميدان الحقوقى.

۲ـ الميدان المالى.

۳ـ الميدان الإدارى.

وقد أثيرت ـ مع الأسف ـ حول سياسة الإمام (عليه السلام) وإصلاحاته الكثير من الشكوك والأحكام المرتجلة [۱۳۸] .. ففى:

الميدان الحقوقى:

تناولت إصلاحاته فى المجال الحقوقى إلغاء مبدأ التفاضل فى العطاء، وإعلان مبدأ المساواة الذى يساوى فيه كل المسلمين ويعتبرهم

سواء فى الحقوق والواجبات.

فجاء قوله (عليه السلام): (الذليل عندى عزيز حتى آخذ الحق له، والقوى عندى ضعيف حتى آخذ الحق منه) [۱۳۹].

الميدان المالى:

وركز من خلاله على نقطتين مهمّتين:

أولاً: الثروات غير المشروعة التى تكونت أيام عثمان.

ثانياً: أسلوب توزيع العطاء التفضيلى.

حتى أن الإمام (عليه السلام) صادر جميع ما أقطعه عثمان من القطائع وما وهبه من الأموال العظيمة لطبقة الأرستقراطيين، وعالنهم بسياسته فى توزيع المال بقوله: (أيها الناس إنى رجل منكم لى ما لكم وعلى ما عليكم وإنى حاملكم على منهج نبيكم ومنفذ فيكم ما أمره، إلا وإن كل قطيعة أقطعها عثمان، وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود فى بيت المال، فإن الحق لا يبطله شىء، ولو وجدته قد تزوج به النساء وملك الإماء وفرق فى البلدان لرددته، فإن فى العدل سعة، ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق) [۱۴۰].

ولعل قادة الطبقة الثرية فكرت فى مساومة الإمام على (عليه السلام) على بذل طاعتهم له على أن يغض عما سلف منهم، فأرسلوا إليه الوليد بن عقبة بن أبى معطى، وقال له: (يا أبا الحسن، إنك قد وترتنا جميعاً ونحن أخوتك ونظراؤك من بنى عبد مناف، ونحن نبايعك اليوم على أن تضع عنا ما أصبناه من المال أيام عثمان وأن تقتل قتلته وإنا إن خفناك تركناك فالتحقنا بالشام) [۱۴۱].

أما الإمام على (عليه السلام) فأكد لهم فى خطبة له بكل وضوح على عزمه فى مواصلة تطبيق المنهج الذى بدأ به فقال: (فأما هذا الفىء فليس لأحد على أحد فيه أثره، وقد فرغ الله من قسمته فهو مال الله وأنتم عباد الله المسلمون، وهذا كتاب الله به أقررنا وله أسلما، وعهد نبينا بين أظهرنا فمن لم يرض به فليتول كيف شاء [۱۴۲].

وأما فى الميدان الإدارى:

فقد باشر الإمام (عليه السلام) سياسته الإدارية بعملين:

۱ـ بعزل ولاة عثمان على الأمصار قائلاً: ولكنى آسى أن يلى أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها، فيتخذوا مال الله دولاً وعباده خولاً، والصالحين حرباً، والفاسقين حزباً، فإن منهم الذى قد شرب فيكم الحرام، وجلد حداً فى الإسلام وإن منهم من لم يسلم حتى رضخت له على الإسلام الرضائخ) [۱۴۳].

فقد قرب عثمان ممن طردهم الرسول (صلّى الله عليه وآله) أو أقصاهم، لقد رد عمه الحكم ابن أمية إلى المدينة بعد أن طرده الرسول (صلّى الله عليه وآله) وأصبح يسمى طريد الرسول (صلّى الله عليه وآله) وآوى عبد الله بن سعد بن أبى سرح وكان النبى (صلّى الله عليه وآله) قد أهدر دمه وولاه عثمان مصر كما ولى عبد الله بن عامر البصرة فأحدث فيها من الأحداث ما جعل المؤمنين ينقمون عليه وعلى عثمان [۱۴۴].

۲ـ إسناد ولايتها إلى رجال من أهل الدين والفقه والحزم، وذلك لأنه (عليه السلام) وجد أن أكبر عناصر الشكوى، وأهم أجزائها هو الجزء الخاص بالأمراء والولاة فبادر (عليه السلام) إلى تغيير التعيينات القديمة فأصدر أمره بتولية عثمان بن حنيف على البصرة وسهل بن حنيف على الشام وقيس بن سعد بن عبادة على مصر وأبى موسى الأشعرى على الكوفة وهى الأمصار الكبرى آنذاك.

وقد كلمه الكثيرون ومنهم المغيرة بن شعبة بشأن ولاة عثمان فأشار عليه بأن يثبت هؤلاء الولاة على أعمالهم، ولكنه أبى عليه ذلك وعزلهم، وهكذا فعل مع طلحة والزبير بشأن ولاية الكوفة والبصرة وردهما رداً رفيقاً ممّا حملهما للضغط على الإمام على (عليه السلام) والتشكيك بقيادته ونكث بيعتهما له والمجاهرة بمطالبته بدم عثمان، متناسيين أنهما كانا من بين المحضرين على الثورة على عثمان، بل وطالبوا بإعادة طرح أمر الخلافة شورى بين المسلمين وزعما أنهما بايعا عليّاً عن إكراه وأن بيعتهما لهذا لا تجوز [۱۴۵].

وبينما الإمام على (عليه السلام) يحث الخطى لصياغة نظم الدولة الإسلامية من الجذر، وأيضا تطبيق القوانين واللوائح الدستورية فى كافة مرافق الدولة، أعلنت فى غضون ذلك الطبقة البرجوازية، ـ كما كان متوقعاً ـ عن تمردها وعدم ارتياحها للتحولات الحاصلة فى مجمل جوانب المجتمع منذ تسلم الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) مقاليد الحكم، وخاصة ذلك التحول الذى خلط فيه أوراق الأغنياء وأصحاب الثروة.. فجاء طلحة والزبير يطلبان الإذن من الإمام على (عليه السلام) للعمرة، فأعطى الإمام (عليه السلام) الإذن لهما، مع كونه على يقين تام بأن الهدف لم يكن العمرة وإنما هو قيادة حركة التمرد السياسى ضد الإمام على (عليه السلام) وجاء الزبير وطلحة إلى مكة المكرمة وتحديداً إلى بيت عائشة زوجة النبى (صلّى الله عليه وآله) وراح الزبير وطلحة يحرّضان عائشة على الخروج لحرب الإمام على (عليه السلام)، هذا مع أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قد حذرها من أن تكون هى المرأة التى تنبح فى وجهها كلاب الحوأب.. غير أن التحريض والتشجيع والدفع الذى لقيته من طلحة والزبير ومروان وغيرهم ساق بها للمضى فى قيادة جيش التمرد والإعلان عن الحرب ضد حاكم الدولة الإسلامية أمير المؤمنين ووصى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) الإمام على (عليه السلام).

.. وفى يوم ۲۰ جمادى الأول سنة ۳۶هـ ـ أى بعد خمسة أشهر وواحد وعشرين يوماً من خلافة الإمام على (عليه السلام) ـ وصلت كتيبة عسكرية تتقدمها ناقة تركبها عائشة وعلى جانبيها طلحة والزبير، فأقدمت الكتيبة على مشارف البصرة.

وصل الخبر إلى الإمام على (عليه السلام) فجاء على راس جيش إلى حيث الموقع الذى حطّت به كتيبة عائشة، وبدأ الإمام (عليه السلام) يبث نصائحه وإرشاداته فى أفراد جيش التمرد للتخلى عن قرار الحرب.. إلا ـ أن القوم أبوا إلا إشعال نارها، وحينما لم يصغ هؤلاء المتمردون للسان الحق، لم يكن أمام أمير المؤمنين (عليه السلام) خيار آخر سوى مواجهة جيش التمرد، فبدأ الحملات العسكرية من الطرفين التى استمرت إلى يوم واحد وانتهت بهزيمة المتمردين، ثم قام الإمام على (عليه السلام) بإرجاع عائشة إلى مكة المكرمة وأصحب معها أربعين فارساً ملثماً وكانوا من النساء... وعاد الإمام على (عليه السلام) إلى الكوفة واستأنف مراحل المشروع الإصلاحى فى الدولة الإسلامية إضافة إلى القيام بتسوية الخلافات العالقة خلال فترة غيابه إلى جانب الخلافات الموروثة من العهد السابق... غير أن حركة التمرد بقيادة طلحة والزبير ومروان بن الحكم وغيرهم لم تنطفئ نارها بعد، بل تأججت واستعرت ثم سرت إلى مناطق أخرى.

وقام قادة التمرد بتحريك جبهة الشام الواقعة تحت سيطرة معاوية.. وجبهة الشام هذه كما نعلم جميعاً لم تدن فى يوم ما للنظام الإسلامى تماماً كما هو الحال عند معاوية الذى احتسب الشام مملكة اموية غير خاضعة للنظام الإسلامى ولذلك: ظل معاوية والياً على الشام والأردن طيلة خلافة عمر يتصرف حيثما يشاء، قد استأثر بالأموال فشرى بها الضمائر، وأحاط نفسه بالأتباع من دون أن تكون لأى أحد عليه رقابة، ولم توجه له أىّ مسؤولية، وإنما كان يرى التسديد والمديح والرضا بما يعمل، وبعد وفاة عمر أقره عثمان على عمله، وزاد فى رقعة سلطانه فضم إليه فلسطين بعد موت عاملها عبد الرحمن بن علقمة الكنانى كما ضم إليه حمص بعد أن استعفاه عاملها عمير بن سعد الأنصارى، وبذلك خلصت أرض الشام كلها، وأصبح من أعظم الولاة قوة ومن أكثرهم نفوذاً، وأصبح قطره من أهم الأقطار الإسلامية وأمنعها وأكثرها هدوءاً واستقراراً [۱۴۶] .

وصل كل من الزبير وطلحة ومروان إلى الشام، وعقدوا على الفور اجتماعاً مغلقاً وعاجلاً فى قصر معاوية بحضور عمرو بن العاص وآخرين من المقربين للبيت الأموى.. كانت المباحثات تدور فى هذا الاجتماع حول التخطيط لشن حرب جديدة ضد الإمام على (عليه السلام)، فانتهى الاجتماع بمقررات تجمع على قرار شن الحرب على الدولة الإسلامية من الجبهة الغربية.

تحركت جيوش الشام نحو الشرق وتمركزت عند الحدود العراقية، فوصل خبرها إلى الإمام على (عليه السلام) وأعلن التعبئة العسكرية العامة فى صفوف الشعب، فلبى جمع هائل من المسلمين نداء الإمام (عليه السلام) وتوجه هذا الجمع إلى معسكرات الجيش استعداداً لخوض المعركة مع جيش الشام.

وصل جيش الإمام على (عليه السلام) منطقة صفين فى مقابل جيش الشام وكعادته (عليه السلام) شرع فى إسداء النصيحة وإلقاء الحجة على القوم للحيلولة دون اشتعال نار الحرب ولحفظ الدماء، غير أنّ قادة التمرد بزعامة معاوية هذه المرة كانوا فى شوق إلى الدماء وزج أفراد الجيش فى محرقة الأحقاد فى أتون حرب قذرة يكون الرابح فيها ـ حال الانتصار ـ تلك الطبقة المصلحية التى تطمح إلى استرجاع سابق عهدها فى عيش البذخ والترف والإثارة.

وفى اليوم الخامس من شهر شوال سنة ۳۶هـ ـ أى بعد أربعة أشهر ونصف من حرب الجمل ـ انقدحت شرارة حرب صفين والتى استمرت مائة وعشرة أيام، تكبد خلالها جيش الشام خسائر هائلة فى الأرواح والمعدات، وقدرت بعض الإحصاءات التاريخية أن تسعين ألفاً من جيش الشام لقوا حتفهم فى هذه الحرب بينما استشهد عشرون ألفاً من جيش الإمام على (عليه السلام).. وكان من أشد معارك هذه الحرب الطويلة، هى التى جرت فى ليلة الهرير حيث لم يسمع فيها إلا اصطكاك السيوف وقراع الأسنة وقعقعة الخيل وتساقط الأيدى والأرجل ولا يرى فيها سوى الغبار المتصاعد إلى عنان الفضاء، حتى بلغ الحال بجيش الشام إلى حد التقهقر والانهيار وبانت عليه علامات الهزيمة والتراجع... هنا سارع عمرو بن العاص لإنقاذ الجيش من الهزيمة المنكرة التى ستقع عليها فطلب من معاوية أن ترفع المصاحف على الأسنة إيذاناً بإيقاف الحرب والرغبة فى المفاوضات.. وكانت هذه خدعة استخدمها عمرو بن العاص ومعاوية لإنقاذ ما يمكن إنقاذه قبل أن تحل الهزيمة بدارهما فتتعرض سلطة بنى العاص وبنى أمية إلى الانهيار فى منطقة الشام.

وللأسف فلقد انطلقت هذه المؤامرة الأموية على قطاع كبيرة من جيش الإمام على (عليه السلام)، فهذا الأشعث بن قيس أحد الواجهات البارزة فى جيش الإمام (عليه السلام) يأتى ويقول للإمام (عليه السلام): (إنا لك اليوم ما كنا عليه أمس ولسنا ندرى ما يكون غداً وقد والله فلّ الحديد وكلت البصائر...) ثم جاء بعده آخرون وتكلموا بأكثر من ذلك، فرد الإمام على (عليه السلام) على هذه التبريرات والأعذار قائلاً: (ويحكم إنهم ما رفعوها لأنكم تعلمونها ولا يعلمون، وما رفعوها لكم إلا خديعة ودهاءاً ومكيدة) فقالوا له: (إنه ما يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله) فقال (عليه السلام): (ويحكم إنما قاتلتهم ليدينوا بحكم الكتاب فقد عصوا الله فيما أمرهم به، ونبذوا كتابه فامضوا على حقكم وقصدكم وخذوا فى قتال عدوكم فإن معاوية، وابن العاص، وابن أبى معيط وحبيب بن مسلمة وابن النابغة وعدداً غير هؤلاء ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن وأنا أعرف بهم منكم صحبتهم أطفالاً ورجالاً، فهم شر أطفال ورجال) [۱۴۷] ولمّا رأى الإمام على (عليه السلام) إصرار الجيش على قضية التحكيم والقبول بالمفاوضات ولما لم يجد (عليه السلام) حيلة لثنى الجيش عن قناعته، سوى اضطرار القبول بالواقع المفروض خارج إرادته.. ثم أقدم الطرفان على تنفيذ خطوات عملية فى موضوع المفاوضات (التحكيم) فكان الاتفاق مبدئياً على أن يخرج رجل من جيش الإمام على (عليه السلام) وآخر من جيش الشام لبدء المفاوضات وإنهاء النزاع سلمياً.

وقد اختار معاوية ممثلاً عنه وهو عمرو بن العاص، أما بالنسبة لجيش الإمام على (عليه السلام) فقد قام الأشعث وطلب من الإمام تعيين أبى موسى الأشعرى، فرفض الإمام (عليه السلام) وقال: (قد عصيتمونى فى أول هذا الأمر فلا تعصونى الآن إنى لا أرى أن أولّى أبا موسى الأشعرى، فقال الأشعث ومن معه لا نرضى إلا بأبى موسى الأشعرى، قال: (ويحكم هو ليس بثقة قد فارقنى وخذل الناس منى.. ثم إنه هرب شهوراً حتى أمنته لكن هذا عبد الله بن عباس أولّيه ذلك فقال الأشعث وأصحابه: والله لا يحكم فينا مضريان، قال على (عليه السلام): فالأشتر، قالوا: وهل هاج هذا الأمر إلا الأشتر. فقال الإمام (عليه السلام): فاصنعوا الآن ما أردتم وافعلوا ما بدا لكم أن تفعلوه. فبعثوا إلى أبى موسى وكتبوا له القصة وقيل لأبى موسى: إن الناس قد اصطلحوا، فقال: الحمد لله، قيل: وقد جعلوك حكماً، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون [۱۴۸] .

وليس ثمة شك فى أن انعكاسات الموقف الخاسر الذى اتخذه القطاع الأكبر فى جيش الإمام على (عليه السلام) إزاء إيقاف الحرب من جهة ثم مسألة التحكيم من جهة ثانية، خلفت آثاراً خطيرة للغاية على الأوضاع السياسية والاجتماعية، حيث أن هذا الموقف أحدث انعطافة خطيرة فى مسيرة الدولة الإسلامية، كما أربكت موازين القوى إذ بدأ العد التنازلى فى مؤشر السلطة السياسية للإمام (عليه

السلام) لا سيما وأن مصدر هذه المخاطر والأزمات من قضية مركزية ومحورية فى موضوع النظام والمجتمع، وهى مسألة طاعة القيادة والتى ألغيت من راس خلال لحظات معدودة وفى أمر من أشد الأمور حساسية وخطورة وهو الحرب.

ولكن الذى جرى هو صدور قرارات بعيدة كل البعد عن قناعة أو شرعية القيادة الإسلامية، وإنما خروج على حكم الإمام (عليه السلام) المفترض الطاعة، ولعل من سخريات القدر أن عمرو بن العاص يتدخل فى مصير المسلمين حينما سفّه أحلام أبى موسى الأشعرى بعد أن طلب منه خلع صاحبه أى الإمام على (عليه السلام) فيقوم ابن العاص ليعلن تثبيت صاحبه معاوية على الحكم..

ومهما يكن فإن الهدنة بين جيش الإمام على (عليه السلام) وجيش الشام قد حصلت على أساس إجراء مفاوضات مباشرة وثنائية بصورة مستمرة لإنهاء موضوع التحكيم، وإن كان قد حصل نزاع على أصول التحكيم.. ورجع الإمام على (عليه السلام) من صفين إلى الكوفة وقد اعتصره الألم وعلته سحابة من الكآبة والحزن بسبب ما أبداه أصحابه من عصيان وتراخى نفسى قبال حرب معسكر الشام... والغريب فى الأمر أن هؤلاء الذين كانوا قد أكرهوا الإمام على (عليه السلام) للقبول بقضية التحكيم، هم اليوم يرفعوا لواء المعارضة ضد الإمام على (عليه السلام) لقبوله التحكيم، فخرج اثنا عشر ألفاً منهم إلى حروراء (قرية من قرى الكوفة) للإعلان عن حركة معارضة جديدة.

وبعد عودة الإمام على (عليه السلام) إلى الكوفة اجتمع هؤلاء فى المسجد وكان (عليه السلام) على المنبر فنادوه: جزعت من البلية ورضيت بالقضية وقبلت الدنية لا ـ حكم إلا ـ لله. فرد عليهم:حكم أنتظر فيكم وقال (عليه السلام) حينما سمع قول هؤلاء الخوارج (لا حكم إلا ـ لله) كلمة حق يراد بها باطل! نعم إنه لا حكم إلا لله، ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله، وإنه لابد للناس من أمير برّاً وفاجر يعمل فى إمرته المؤمن ويستمتع فيها الكافر، فيبلّغ الله فيها الأجل، ويجمع به الغى ويقاتل به العدو، وتأمن به السبل، ويؤخذ به للضعيف من القوى حتى يستريح بر، ويستراح من فاجر [۱۴۹] .

وبهذه الكلمة يكون الإمام (عليه السلام) قد كشف عن الخواء الفكرى والمرتكزات العقائدية الباطلة التى كانت عند الخوارج، وأظهر حقيقة الأهداف التى يسعى الخوارج إلى تحقيقها ـ كما ذكرنا سابقاً.

ولكن الواقع انه بعد حرب صفين أصبحت الأوضاع السياسية فى تدهور مستمر فلم تهدأ جبهة الشام حتى أشعل الخوارج حرباً جديدة فجاءت حرب النهروان سنة ۳۸ هجرية فخرج الإمام (عليه السلام) لصدّ الخوارج وقتالهم، ثم بعد أن اشتد أوار الحرب واقترب جيش الإمام (عليه السلام) من مرحلة النصر قام الإمام (عليه السلام) خطيباً فى جيشه يستحثه على مواصلة الحملات العسكرية قائلاً: (إن الله قد أحسن إليكم وأعز نصركم فتوجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم. فقالوا: يا أمير المؤمنين قد كلّت سيوفنا ونفذت نبالنا ونصلت أسنة رماحنا فدعنا نستعد بأحسن عدتنا.

ولم تكن هذه الأعذار والمبررات تعبر سوى عن حالة التململ والتداعى والانهيار فى أوساط جيش الإمام (عليه السلام) من الحرب، ممّا جعل الجنود ينسلون من الجبهات والعودة إلى المدن، حتى لم يصمد مع الإمام (عليه السلام) إلا الطليعة الرسالية القليلة العدد، والتى هى غير قادرة على تعبئة الفراغ الهائل فى الساحة والذى نجم عن نكوص الجيش وتمرده على قرارات قيادته والتى لم تورث هذه الحالة سوى هزائم متتابعة ومتواصلة.

فلم يكن زمن النزاع العسكرى بن النظام الإسلامى وجيش الشام محدوداً بإيقاف حرب صفين وإعلان التحكيم، بل أن حملات عسكرية شكلت امتداداً لحرب صفين قادها جيش الشام على المناطق الواقعة تحت سلطة الدولة الإسلامية. فهذا بسر بن ارطأة يبعث به معاوية إلى الحجاز واليمن ليقوم بمجزرة رهيبة فى أوساط المسلمين والمسؤولين فى الدولة الإسلامية من أتباع الإمام (عليه السلام) فحينما دخل بسر اليمن وكان عليها عبيد الله بن العباس عامل الإمام على (عليه السلام)، ارتكب بسر أبشع الجرائم من قتل ونهب وسلب حتى هرب منها عبيد الله بن العباس، ثم جاء بسر إلى المدينة فأثار الرعب فى أهلها وحتى الصالحين من أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لم يسلموا من بطش بسر، بينما هرب قسم منهم مثل جابر بن عبد الله الأنصارى وأبو أيوب الأنصارى كما هرب

جمع كبير من النساء والشيوخ والأطفال الذين لم يجدوا ملجأ من جرائم الطاغية بسر إلا الهروب، وفيما لقى بسر ابنى عبد الله بن العباس ذبحهما أمام أعين الناس، وكان يدخل بيوت المدينة وينتزع الطفل من أمه ويرمى به إلى الحائط فيصطبغ بالدم ويلتصق به أجزاء من مخ هذا الطفل البرىء كما هدم دوراً كثيرة فى المدينة بعد أن استباحها أياماً.

وهو بسر الذى هجم على حمدان وسبى نساءها كُنَّ أول مسلمات يسبين فى الإسلام والمجزرة الرهيبة فى أحياء بنى سعد.

وعندما وصل خبر بسر إلى الإمام على (عليه السلام) اغتاظ كثيراً وقام فى الناس خاطباً وقال: (أنبئت بسراً، قد اطّلع من اليمن وإنى والله لأظن أنّ هؤلاء القوم سينالون منكم باجتماعهم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم وبمعصيتكم إمامكم فى الحق وطاعتهم إمامهم فى الباطل وبأدائهم الأمانة إلى صاحبهم وخيانتكم وبصلاحهم فى بلادهم وفسادكم، فلو ائتمنت أحدكم على قعب لخشيت أن يذهب بعلاقته..) وقال (عليه السلام) أيضاً بعد هذه الحادثة: (اللّهم إنى قد مللتهم وملّونى وسئمتهم وسئمونى فأبدلنى بهم خيراً منهم وأبد لهم بى شراً منى، اللّهم مث قلوبهم كما يماث الملح فى الماء، أما والله لوددت أن لى بكم ألف فارس من بنى فراس بن غنم: هنالك لو دعوت أتاك منهم فوارس مثل أرمية الحميم.

وهناك حادث آخر فى مصر حيث كان محمد بن أبى بكر والياً عليها من قبل الإمام على (عليه السلام) فأرسل معاوية جيشاً من أهل الشام بقيادة عمرو بن العاص لحرب محمد بن أبى بكر فتقابل الجيشان واندلعت نار الحرب بينهما، غير أن جيش مصر خذل والى الإمام على (عليه السلام) محمد بن أبى بكر، فدخل عمرو بن العاص مصر وارتكب جريمة بشعة حيث أدخل محمد بن أبى بكر فى جوف حمار ثم أحرقه وهو فى داخله، فوصل خبره إلى الإمام على (عليه السلام) فبكى لشهادته وترحم عليه، ثم بعث بعده مالك الأشتر فوصل الخبر إلى معاوية فدسّ إليه السّم فاستشهد مالك وقال معاوية آنذاك: (إن لله جنوداً من عسل).

شعر الإمام (عليه السلام) آنذاك بخطورة الموقف خاصة وأن الطليعة الرسالية التى كان يعتمد عليها فى كثير من المسؤوليات تتعرض اليوم إلى عملية تصفية بشعة.. فلقد قتل بالأمس عمار بن ياسر وهاشم المرقال فى صفين، ومات حذيفة بن اليمان بالمرض كما قتل ابناءه فى صفين وغيرهم، واليوم يستشهد محمد بن أبى بكر ومالك الأشتر، ولذلك وجد الإمام على (عليه السلام) نفسه وحيداً فى ساحة المواجهة مع العدو... ومن هنا بدأت تحاك خيوط المؤامرة من قبل المناوئين للإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)، خاصة وقد تقطعت أوصال الدولة الإسلامية أثر الحروب الداخلية والخارجية.

وكان للتداعى الهائل من أفراد الأمة للضغوطات التى تسببت من جراء سلسلة الحروب المفروضة عليها أثراً بارزاً وجرحاً عميقاً أنهك كاهل الدولة وأوقع هزيمة نفسية فى أوساط المجتمع الإسلامى، فتعرضت الطليعة الرسالية لمؤامرة التصفية والاغتيالات الجسدية، بحيث كشفت الحزام الأمنى الذى كان يشكله الطليعة حاجزاً بين العدو ومركز القيادة، فلمّا تساقط أفراد الطليعة شهداء فى معركة الكرامة أو فى المهام الرسالية انفرط عقد الحزام ولم يبق أمام العدو سوى شخص القيادة الإسلامية المتمثلة فى أمير المؤمنين (عليه السلام)، فقرر العدو تنفيذ مخطط اغتيال القيادة.

وكانت هذه من أخطر انعكاسات الهزيمة النفسية فى الأمة، والتى يكون فيها المجال سانحاً لمثل هذه المخططات الحساسة والتى لا تتم سوى فى حالة وصول الصراع إلى ذروته القصوى أو فى حال تساوى موازين القوى بين النظام الحاكم والمعارضة، أو فى حالة الفوضى وعدم استقرار الأوضاع الداخلية أو غيرها من الأسباب سواء بصورة منفصلة أو مجتمعة.

وفى التاسع عشر من شهر رمضان سنة أربعين هجرية وقعت الجريمة العظمى عبد الرحمن بن ملجم ونفذ عملية الاغتيال، حينما كان الإمام على (عليه السلام) فى محراب المسجد أثناء انشغاله بالصلاة فجرد عدو الله ورسوله سيف البغى، ثم هوى به على هامة الإمام (عليه السلام) فسقط (عليه السلام) مضرجاً بدمه ونادى (فزت ورب الكعبة، قتلنى ابن اليهودية) [۱۵۰].

وبقى الإمام على (عليه السلام) ثلاث ليال يكابد ألم الضربة الحاقدة التى أصابت رأس العدل وهوّت ركن الحق وأسقطت علم التقى وقلعة الإيمان وغيبت روح الإسلام ولسان الصدق وسلوك الرسالة...

وفى الحادى والعشرين من شهر رمضان سنة أربعين هجرية ارتجت الكوفة بأهلها فلقد استشهد أمير المؤمنين (عليه السلام) فنادى جبرائيل فى السماء (تهدمت والله أركان الهدى قتل علىٌ المرتضى، قتله أشقى الأشقياء..) فبكى عليه الملأ الأعلى كما بكى عليه أهل الأرض.

تلك كانت إطلالة عاجلة على التاريخ الإسلامى فى سبيل إعداد رؤية تمهيدية للفترة القادمة التى نبدأ فيها الحديث. بتركيز كبير ـ عن عهد الإمام الحسن (عليه السلام).

ولأن بعض الاستنتاجات التى نرى بأنها موضوعية فيما يرتبط بثمة قضايا وقعت خلال عهد الإمام المجتبى (عليه السلام) فوجدنا أن مخاطبة التاريخ وربط وقائعه وأحداثه الماضية والحاضرة والمستقبلية تجعلنا أكثر قدرة على معايشة الواقع التاريخى بروح موضوعية ومتجردة، وربما تفيدنا هذه الطريقة فى التوصل إلى نتائج جديدة لم نوفق نحن للوصول إليها والاستفادة منها فى فصول البحث.

خاتمة حكومة الامام على

تركت حكومة الإمام آثاراً بالغة الأهمية والخطورة فى المجتمع الإسلامى ولعل من أهمها ما يلى:

١ـ إنها أبرزت الواقع الإسلامى بجميع طاقاته فى عالم السياسة والحكم، فقد كان الإمام يهدف فى حكمه إلى إزالة الفوارق الاجتماعية بين الناس، وتحقيق الفرص المتكافئة بينهم على اختلاف قومياتهم وأديانهم، ومعاملة جميع الطوائف بروح المساواة والعدالة فيما بينهم من دون أن تتمتع أى طائفة بامتياز خاص وقد أوجدت هذه السياسة للإمام رصيداً شعبياً هائلاً، فقد ظل علىّ قائماً فى قلوب الجماهير الشعبية بما تركه من صنوف العدل والمساواة وقد هام بحبه الأحرار، ونظروا إليه كأعظم مصلح اجتماعى فى الأرض، وقدموه على جميع أعلام تلك العصور، يقول أيمن ابن خريم الأسدى مخاطباً بنى هاشم وعلى رأسهم الإمام:

أأجعلكم وأقواما سواء
وبينكم وبينهم الهواء

وهم أرض لأرجلكم وأنتم
لرؤوسهم وأعينهم سماء [١٥١].

٢ـ إن مبادئ الإمام وآراءه النيرة ظلت تطارد الأمويين وتلاحقهم فى قصورهم فكانوا ينظرون إليها شبحاً مخيفاً يهدد سلطانهم، ممّا جعلهم يفرضون سبه على المنابر للحط من شأنه، وصرف الناس عن قيمه ومبادئه.

٣ـ إن حكومة الإمام التى رفعت شعار العدالة الاجتماعية الكبرى قد جرت لأبنائه كثيراً من المشاكل والمصاعب، وألحقت بهم التنكيل والقتل من حكام عصرهم، وقد تنبأ النبى الأعظم (صلّى الله عليه وآله) بذلك فقد روى أبو جعفر الإسكافى أن النبى (صلّى الله عليه وآله) دخل على فاطمة فوجد علياً نائماً فذهبت لتوقظه، فقال (صلّى الله عليه وآله): (دعيه فرب سهر له بعدى طويل، ورب جفوة لأهل بيتى من أجله). فبكت فاطمة فقال لها: لا تبكى فإنّه معى وفى موقف الكرامة عندى [١٥٢].

لقد أمعن الحكم الأموى والعباسى فى ظلم أبناء الإمام لأنهم تبنوا حقوق المظلومين والمضطهدين تبنوا المبادئ العليا التى رفع شعارها الإمام أمير المؤمنين فناضلوا كأشد ما يكون النضال فى سبيل تحقيقها على مسرح الحياة، وكان من أشد أبناء الإمام حماساً واندفاعاً فى حماية مبادئ أبيه الإمام الحسين (عليه السلام) فقد انطلق إلى ساحات الجهاد عازماً على الموت آيساً من الحياة ليحمى مبادئ جدّه وأبيه ويرفع راية الإسلام عالية خفاقة وينكس أعلام الشرك والإلحاد، ويحطم قيود العبودية والذل.

۴ـ وأوجد الإمام فى أثناء حكمه القصير وعياً أصيلاً فى مقارعة الظلم، ومناهضة الجور فقد هب فى وجه الحكم الأموى أعلام أصحابه كحجر بن عدى، وعمرو بن الحمق الخزاعى، وعبد الله بن عفيف الأزدى وأمثالهم من الذين تربوا بهدى الإمام، فدوخوا أولئك الظالمين بثورات متلاحقة أطاحت بزهوهم وجبروتهم، لقد كان حكم الإمام ـ حقاً ـ مدرسة للنضال والثورة، ومدرسة لبث الوعى الدينى والإدراك الاجتماعى، وبهذا ينتهى بنا الحديث عن مخلفات حكومة الإمام (عليه السلام).

عهد الامام الحسن ــ البيعة العامة

اشاره

.. بالأمس خسرت الأمة الإسلامية سيد المسلمين، وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين ولم تعرف الأمة كيف تحافظ على قيادتها، وبذلك تعثرت فى حركتها، وغارت فى غياهب الخنوع والهزيمة، فى وقت كانت تمتلك فرصة ذهبية بوجود الإمام على (عليه السلام)، فى أن تشيد حضارة إسلامية شامخة تستند على ركائز العدل والحرية والرفاه والأمن...

غير أن الأمة حينما تستسلم للضغوطات الداخلية أو الخارجية وتخضع لرياح المؤامرات فيغزوها الوهن ويخبطها الضعف، فإن النتيجة هى الوقوع تحت نير القوى الطاغوتية.

عاد الإمام الحسن (عليه السلام) وأهل بيته (عليهم السلام) وأصحابه من تشييع أمير المؤمنين (عليه السلام) من قبره الطاهر، فخرج ابن عباس إلى الناس وقال: (إن أمير المؤمنين توفى، وقد ترك لكم خلفاً، فإن أحببتم خرج إليكم، وإن كرهتم فلا أحد على أحد) فبكى الناس وقالوا: بل يخرج إلينا.

فخرج الإمام الحسن (عليه السلام) وقد لبس ثوب السواد وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (لقد قبض فى هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون، ولا يدركه الآخرون، ولقد كان يجاهد مع رسول الله صلّى الله عليه وآله فيقيه بنفسه، ولقد كان يوجّهه برايته، فيكتنفه جبرائيل عن يمينه، وميكائيل عن يساره، فلا يرجع حتى يفتح الله عليه؛ ولقد توفى فى الليلة التى قبض فيها موسى بن عمران (عليه السلام)، ورفع فيها عيسى بن مريم (عليه السلام)، وأنزل القرآن، وما خلف صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم من عطائه، أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله) [۱۵۳] أيها الناس: من عرفنى فقد عرفنى، ومن لم يعرفنى فأنا الحسن بن على وأنا ابن النبى، وأنا بن الوصى، أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن الداعى إلى الله عز وجل بإذنه، وأنا ابن السراج المنير... وأنا من أهل البيت الذى كان جبرائيل ينزل إلينا ويصعد من عندنا، وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، وأنا من أهل البيت الذين افترض الله مودتهم على كل مسلم، فقال تبارك وتعالى لنبيّه: (قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَ الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى) [۱۵۴] ، (وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا) [۱۵۵] فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت..).

بعد أن انتهى الإمام (عليه السلام) من خطبته، قام عبد الله بن العباس يستحث الناس لمبايعة الإمام الحسن (عليه السلام) وقال: معاشر الناس هذا ابن نبيكم ووصى إمامكم فبايعوه) وفى الناس إلى ذلك اليوم، كثير ممن سمع نص رسول الله (صلّى الله عليه وآله)، على إمامته بعد أبيه.

فقالوا: ما أحبه إلينا وأوجب حقه علينا وأحقه بالخلافة فأقبل الناس واجتمعوا على الإمام (عليه السلام) يبايعونه بالخلافة ويسلمونه زمام أمورهم...

وكان ذلك يوم الواحد والعشرين من شهر رمضان، يوم وفاة أبيه (عليه السلام) سنة أربعين للهجرة [۱۵۶] .

وهكذا وفقت الكوفة لأن تضع الثقة الإسلامية فى نصابها المفروض لها، من الله عز وجل ومن العدل الاجتماعى، وبايعته ـ معها ـ البصرة والمدائن وبايعه العراق كافة، وبايعه الحجاز واليمن على يد القائد العظيم (جارية بن قدامة)، وفارس على يد عاملها (زياد بن

عبيـد)، وبايعه ـ إلى ذلك ـ من بقى فى هذه الآفاق من فضـلاء المهاجرين والأنصار، فلم يكن لشاهد أن يختار ولا لغائب أن يرد، ولم يتخلـف عن بيعته ـ فيمـا نعلم ـ إلاـ معاويـة ومن إليه، واتبع بقومه غير سبيـل المؤمنين، وجرى مع الحسن (عليه السـلام) مجراه مع أبيه بالأمس. وتخلف أفراد آخرون عرفوا بعد ذلك بالقعّاد.

ويعود الإمام الحسن (عليه السـلام) بعـد أن أخـذت البيعة له ـ فينفتح عهده الجديد، بخطابه التاريخى والبليغ، الذى يسـتعرض فيه مزايا أهل البيت وحقهم الصريح فى الأمر، ثم يصارح الناس فيه بما ينذر به الجوّ المتلبد بالغيوم من مفاجئات وأخطار..

فيقول (عليه السلام) وهذا بعض خطابه:

(نحن حزب الله الغالبون، وعترة رسول الله الأقربون، وأهل بيته الطيبون الطاهرون، وأحد الثقلين اللذين خلّفهما رسول الله فى أمته، ثانى كتاب الله الـذى فيه تفصـيل كل شـىء، لا يأتيه الباطل من بين يـديه ولا من خلفه، فالمعوّل علينا فى تفسيره، لا نتظنّى تأويله بل نتيقن حقـائقه، فأطيعونـا فإن طاعتنا مفروضـة، إذ كانت بطاعـة الله ورسوله مقرونـة، قال الله عز وجل: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)، وقال: ولو (ردّوه إلى الرسول وأولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم).

ثم يمضـى فى خطابه، ويردف أخيراً بقوله: (وأحذركم الإصـغاء لهتاف الشـيطان فإنه لكم عدوٌ مبين فتكونون كأوليائه الذين قال لهم: (لاَ غَـالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِنْكُمْ إِنِّى أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ) فتلقون إلى الرماح أزراً، وللسـيوف جزراً وللعمد حطماً [۱۵۷] ، وللسـهام غرضاً ثم (لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْرًا) ثم نزل من على منبره، فرتب العمّال، وأمر الأمراء ونظر فى الأمور) [۱۵۸] .

بداية الأزمة

بعد أن أطلق جموع الناس البيعة للإمام الحسن (عليه السـلام)، قام الإمام (عليه السلام) بدوره فى إدارة الدولة الإسلامية، فاختار العمال والولاة على المناطق الإسلامية، ورسم مخطط تنظيم شؤون الدولة، وإعداد مستلزمات إدارة النظام السياسى فى الأمة...

فى الجبهـة المقابلـة، كان معاويـة ـ آنـذاك ـ مسـتمراً فى تنفيـذ مخطط المؤامرات السياسـية بهـدف تقويض الدولـة الإسـلامية... هـذا المخطط الذى بدأ منذ عهد الإمام أمير المؤمنين (عليه السـلام)، والذى كان يهدف معاوية بذلك إلى توسيع مملكته وبسط نفوذه إلى خارج حدود الشام...

وبقيت جبهة الشام ثغرة واسعة فى جدار الدولة الإسلامية، كما شكلت خطورة جدية على الاستقرار السياسى والهدوء الداخلى للأقطار الإسلامية الأخرى...

ولذلك حينما علم معاوية بأن الناس قد اجتمعت على بيعة الإمام الحسن (عليه السـلام) بدأت تعتمل فى مخيلته فكرة شـيطانية تقضـى بإثـارة الفتن الداخليـة وخلق منـاخ متقلب بهـدف زعزعـة الأوضـاع وخلق أجواء من البلبلـة وإشاعـة القلاقل فى الـداخل فبـدأ بإرسال الجواسيس إلى عاصمة الدولة الإسلامية فى الكوفة ومدينة البصرة ذات الثقل السياسى والاجتماعى المميز.

فأرسل معاويـة رجلًا يـدعى الحميرى إلى الكوفـة، وآخراً يـدعى القينى إلى البصـرة، وقد طلب من هذين الجاسوسـين مراقبة الأوضاع السياسـية فى العاصـمة (الكوفـة) ومدينـة البصـرة، ورصد حجم ولاء الجماهير للإمام الحسن (عليه السـلام)، إضافة إلى الاتصال ببعض العناصـر فى الـداخل وربطها بجهـة المعارضـة فى الشام عبر الإغراء والترغيب، وهكذا التعرف على نقاط الضـعف والنفوذ فى الداخل، والتى تمكن معاوية من تمرير مؤامراته للإطاحة بالنظام الإسلامى.

غير أن خطـة التآمر هـذه لم تنجح حيث تم القبض على الجاسوسـين، وأمر الإمام الحسن (عليه السـلام) بإعدامهما فى الساحات العامة أمام الناس.. فأعـدم الحميرى فى الكوفـة، كما أعدم القينى فى البصـرة التى كان عبيد الله بن العباس والياً عليها. من جهة أخرى أعرب

الرأى العام الإسلامى عن سخطه إزاء المؤامرة الأموية، فيما كشف الإمام الحسن (عليه السلام) عن مخطط معاوية من وراء إرسال الجواسيس، فأرسل خطاباً شديد اللهجة يعلن فيه الإمام (عليه السلام) عن استعداده لخوض الحرب ضد جبهة التمرد التى يقودها معاوية وجاء فى الخطاب (أما بعد: فإنك دسست إلىّ الرجال، للاحتيال والاغتيال، وأرصدت العيون، كأنك تحب اللقاء، وما أشك فى ذلك، فتوقعه إن شاء الله، وقد بلغنى إنك شمت بما لا يشمت به ذوو الحجى، وإنما مثلك فى ذلك كما قال الأولون:

وقل للذى يبقى خلاف الذى مضى
تجهّز لأخرى مثلها فكأنّ قد

وأنا ومن قد مات منّا لكالذى
يروح فيمسى فى المبيت ليفتدى)

ومن الواضح أن رسالة الإمام الحسن (عليه السلام) إلى معاوية تضمنت تهديداً مباشراً لمعسكر الشام كما انه (عليه السلام) أبرز جانب القوة فى قبال التهديدات التى وجهها معاوية بعد إرساله الجاسوسين.

ولعلنا نستوحى من رسالة الإمام (عليه السلام) أن الأمة حينما تدخل الصراع والمواجهة مع العدو يتطلب منها إظهار مواقع القوة والقدرة، فى سبيل إدخال الرعب والهزيمة النفسية فى قلب العدو، وإضعاف معنوياته، وتفويت الفرصة عليه للتفكير فى استغلال جوانب الضعف ـ إن وجدت ـ والاستفادة منها فى حالة المواجهة معه.

من جهة ثانية استطاع الإمام الحسن فى هذه الرسالة أن يسحب البساط من تحت معاوية فى أن يمتلك زمام المبادرة فى تقرير الحرب ضد الدولة الإسلامية ولذلك نجد أن جواب معاوية على رسالة الإمام الحسن كان خالياً من الإثارة حيث جاء بصورة أراد فيها معاوية أن يتملق للإمام وأن يبعد نفسه عن قضية إرسال الجواسيس فقد كتب، (أما بعد: فقد وصل كتابك وفهمت ما ذكرت فيه ولقد علمت بما حدث فلم أفرح، ولم أشمت، ولم أيأس، وأن على بن أبى طالب لكما قال أعش بن قيس بن ثعلبة:

وأنت الجواد وأنت الذى
إذا ما القلوب ملأن الصدورا

وما مزيد من خليج البحور
يعلو الأكام ويعلو الجسورا

بأجود منه ممّا عنده
فيعطى الألوف ويعطى البدورا [۱۵۹])

وكتب عبيد الله بن العباس الوالى على البصرة رسالةً مماثلة إلى معاوية جاء فيها: فإنك ودسك أخابنى قين إلى البصرة، تتلمس من غفلات قريش، مثل الذى ظفرت به من يمانيتك لكما قال أمية ـ يعنى ابن الأشكرى ـ:

لعمـــــرك إنى والخزاعى طارقاً
كنعجة غار حتـــــــفها تتحضر

وثارت عليـــها شفرة بكراعها
فظلت بها مـــن آخر الليل تنحر

شمت بقوم مـن صديقك أهلكوا
أصـــابهم يوم من الدهر أصـغر

وبعـد أن تمكن الإمـام الحسن (عليه السـلام) أن ينتزع المبادرة من يـد معاويـة، أرسل الإمام (عليه السـلام) رسالـة ثانيـة أكثر تفصـيلاً وتعنيفـاً، سـلط فيهـا الأـضواء على حقه المشـروع فى ولايـة المسـلمين كما بيّن فيها فضائل أهل البيت (عليهم السـلام) وحقوقهم، كما ضمّن الرسالة تهديداً لمعاوية وتحذيره من التمادى فى غيّه، وشق الصف الإسلامى، وهذا نص الرسالة:

(من الحسن بن على أمير المؤمنين، إلى معاوية بن أبى سـفيان، سلام عليكم، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو. أما بعد؛ فإن الله جلّ جلاله، بعث محمـداً رحمـة للعالمين، وكافّة للناس أجمعين ينذر من كان حياً، ويحقّ القول على الكافرين، فبلّغ رسالات الله، وقام بأمر الله، حتى توفّاه الله غير مقصّر ولا واهن، وبعد أن أظهر الله به الحق ومحق به الشرك، وخصّ به قريش خاصة. فقال له: (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ) فلما توفّى، تنازعت سـلطانه العرب فقالت قريش، نحن قبيلته وأسرته وأولياؤه، ولا يحلّ لكم أن تنازعونا سلطان محمد وحقه فرأت العرب أن القول ما قالت قريش، وأنّ الحجة فى ذلك لهم على من نازعهم أمر محمد، فأنعمت لهم وسلّمت إليهم.

ثم حاججنا نحن قريش، بمثـل مـا حـاججت به العرب، فمـل تنصـفنا قريش إنصـاف العرب لهـا. إنهم أخـذوا هـذا الأـمر دون العرب بالإنصـاف والاحتجـاج، فلمـا سـرنا أهل بيت محمـد وأولياؤه إلى محاججتهم، وطلب النصف منهم، باعـدونا واسـتولوا بالاجتماع على ظلمنا، ومراغمتنا وللعنت منهم لنا فالموعد إليه، وهو الولىّ النصير.

ولقد كنا تعجبنا لتوثب المتوثبين علينا فى حقنا، وسـلطان بيتنا وإذ كانوا ذوى فضيلة وسابقة فى الإسلام، أمسكنا عن منازعتهم، مخالفة على الدين، أن يجد المنافقون والأحزاب فى ذلك مغرماً يثلمون به، أو يكون لهم بذلك سببٌ إلى ما أرادوا إفساده، فاليوم فليتعجّب المتعجّب من توثبك يا معاوية، على أمر لست من أهله لا بفضل فى الدين معروف، ولا أثر فى الإسلام محمود.

وأنت ابن حزب من الأحزاب، وابن أعدى قريش لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) ولكتابه. والله حسيبك فسترد عليه، وتعلم لمن عقبى الـدار وبـالله لتلقين عن قليل ربّك، ثم يجزينّك بما قـدّمت يـداك. وما الله بظلام للعبيـد. إن عليّاً لمّا مضـى لسبيله رحمـة الله عليه يوم قبض، ويوم، منّ الله عليه بالإسلام، ويوم يبعث حيّاً، ولانى المسلمون الأمر من بعده، فأسال الله أن لا يؤتينا فى الدنيا الزائلة شيئاً، ينقصنا به فى الآخرة، ممّا عنده من كرامة. وإنما حملنى على الكتابة إليك، الأعذار فيما بينى وبين الله عز وجل فى أمرك ولك فى ذلك إن فعلته الحظ الجسيم والصلاح للمسلمين.

فـدع التمـادى فى الباطـل، وادخـل فيمـا دخل فيه الناس من بيعتى، فإنك تعلم، أنى أحقّ بهـذا الأمر منك، عنـد الله، وعنـد كل أواب حفيـظ، ومن له قلب منيب، واتق الله ودع البغى، واحقن دمـاء المسـلمين، فوالله ما لك خير فى أن تلقى الله من دمائهم، بأكثر ممّا لاقيه به. وادخل فى السّلم والطاعة، ولا تنازع الأمر أهله، ومن هو أحقّ به منك، ليطفئ الله النائرة بذلك، ويجمع الكلمة ويصلح ذات البين. وإن أنت أبيت إلا التمادى فى غيّك، سرت إليك بالمسلمين، فحاكمتك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين) [۱۶۰].

كانت هـذه رسالـة الإمام الحسن (عليه السـلام) لمعاوية والتى فيها دلائل وإثباتات واضـحة وصـريحة لحق أهل البيت (عليهم السـلام)

وحق الإمام (عليه السلام) بصورة خاصة... هذه الرسالة كانت بمثابة الحرج الذى ألجم معاوية عن المراوغة والتملص من قوة البرهان القاطع، والذى قطع لسان معاوية عن إيراد حجة مقابلة لذلك راح يبحث عن قشة تنقذه.

فمعاوية الذى يجد نفسه متورطاً أمام دلائل واحتجاجات الإمام الحسن (عليه السلام)، ماذا يمكنه أن يفعل سوى اعتماد أسلوب المكر والخديعة الذى تربى عليهما من صُغرِه حتى تعشعشا فى صدره.

ونحن إذ نورد نص جواب معاوية إلى الإمام الحسن (عليه السلام) لنرى إلى أى حد وصلت وسائل المكر بمعاوية فى أن يلبس مسوح الإسلام ويغطى نفسه بجلباب الرعيّة ليتحدث باسم الإسلام، فيقول فى رسالته: (قد بلغنى كتابك وفهمت ما ذكرت به محمداً رسول الله من الفضل، وهو أحق الأولين والآخرين بالفضل كله، قديمه وحديثه، وصغيره وكبيره، وقد والله بلّغ وأدّى، ونصح وهدى، حتى أنقذ الله به من الهلكة وأنار به من العمى، وهدى به الجهالة والضلالة، فجزاه الله أفضل ما جزى نبياً عن أمته... وذكرت وفاته وتنازع المسلمين الأمر بعده وتغلبهم على أبيك، فصرّحت بتهمة أبى بكر الصديق، وعمر الفاروق، وأبى عبيدة الأمين، وحوارىى رسول الله، وصلحاء المهاجرين والأنصار، فكرهت ذلك لك،.. وإنك أمرؤ عندنا وعند الناس غير الظنين، ولا المسىء ولا اللئيم، وأنا أحب لك القول السديد والذكر الجميل، وإن هذا الأمة لما اختلفت بينها لم تجهل فضلكم، ولا سابقتكم ولا قرابتكم من نبيكم، ولا مكانكم فى الإسلام وأهله، فرأت الأمة أن تخرج من هذا الأمر لقريش، لمكانها من نبيها، ورأى صلحاء الناس من قريش، والأنصار وغيرهم، وسائر الناس وعوامها، أن يولوا من قريش هذا الأمر أقدمها إسلاماً وأعلمها بالله، وأحبها وأقواها على أمر الله، فاختاروا أبا بكر وكان ذلك رأى ذوى الدين، والفضل، والناظرين للأمة، فارفع ذلك فى صدوركم لهم التهمة، ولم يكونوا متهمين، ولا فيما أتوا بالمخطئين، ولو رأى المسلمون إنّ فيكم من يغنى غناءه ويقوم مقامه، ويدب عن حريم الإسلام دبه، ما عدلوا بالأمر إلى غيره، رغبة عنه ولكنهم عملوا فى ذلك بما رأوه صلاحاً للإسلام وأهله، والله يجزيهم عن الإسلام وأهله خيراً.

وقد فهمت الذى دعوتنى إليّ من الصلح والحال فيما بينى وبينك اليوم، مثل الحال التى كنتم عليها أنتم وأبو بكر بعد وفاة النبى! فلو علمت إنك أضبط منى للرعية، وأحوط على هذه الأمة وأحسن سياسة وأقوى على جمع الأموال، وأكيد للعدو، لأجبتك إلى ما دعوتنى إليه، ولو رأيتك لذلك أهلاً لسلمت لك الأمر بعد أبيك، فإن أباك سعى على عثمان، حتى قتل مظلوماً فطالب الله بدمه، ومن يطلبه الله فلن يفوته ثم ابتز الأمة أمرها، وخالف جماعتها فخالف نظراءه، من أهل السابقة والجهاد، والقدم فى الإسلام، وادعى إنهم نكثوا بيعته، فقاتلهم، فسفكت الدماء واستحلت الحرم، ثم أقبل إلينا لا يدعى علينا بيعة ولكنه، يريد أن يملكنا اغتراراً فحاربناه وحاربنا، ثم صارت الحرب إلى أن أختار رجلاً واخترنا رجلاً ليحكما بما يصلح عليه، وتعود به الجماعة والألفة وأخذنا بذلك عليهما ميثاقاً، وعليه مثله، على الرضا بما حكما فأمضى الحكمان عليه الحكم، بما علمت وخلعاه، فوالله ما رضى بالحكم، ولا صبر لأمر الله، فكيف تدعونى إلى أمر، إنما تطلبه بحق أبيك وقد خرج، فانظر لنفسك ولدينك... وقد علمت، إنى أطول منك ولاية وأقدم منك بهذه الأمة تجربة وأكبر منك سناً، فأنت أحق أن تجيبنى إلى هذه المنزلة التى سألتنى، فادخل فى طاعتى أعاننا الله وإيّاك على طاعته، انه سميع مجيب الدعاء) [۱۶۱] ...

ومن خلال نظرة خاطفة على رسالة معاوية فإنها تحتوى على مغالطات مفضوحة وكذب صريح ويكفى أن ندلل على ذلك أنه قال فى رسالته إن الأمة اجتمعت على أبى بكر واختارته، فإذا كان كذلك، أو لم تجمع الأمة على الإمام على (عليه السلام) فلماذا شهر سيف البغى ضده وأعلنها حرباً على الدولة الإسلامية وحتى قتل أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) كعمار بن ياسر الذى قال عنه رسول الله (صلّى الله عليه وآله): (يا عمار تقتلك الفئة الباغية..). ومن فمك ندينك فلم يطلب معاوية البيعة من الإمام الحسن (عليه السلام) وقد بايعته الأمة وسلمته زمام أمورها؟ ثم إذا كانت جبهة الشام لم تبايع الإمام الحسن (عليه السلام)، فهى أيضاً لم تبايع ولم تدن فى يوم من الأيام سلطة الخلفاء السابقين منذ ولاية معاوية عليها فى عهد الخليفة الثانى عمر.

فأية ولاية يتشبث بها معاوية، وهى إنما كانت بئس الولاية وبئس التجربة، أراد منها زعامة سياسية وثاراً جاهلياً، وطمعاً شخصياً، وملكاً

قلبياً. غير أنه لم يتخلّ عن مغالطاته الصريحة وكذبه المفضوح فقام ثانية بكتابة رسالة أخرى وبعث بها إلى الإمام (عليه السلام) وقال فيها: (بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فإن الله عز وجل، يفعل فى عباده ما يشاء، لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب فاحذر أن تكون منيتك على أيدى رعاع من الناس، وآيس أن تجد فينا غمزة وإن أنت أعرضت عما أنت فيه وبايعتنى، وفيت لك بما وعدت وأجزت لك ما شرطنا، وأكون فى ذلك كما قال الأعشى بن بنى قيس بن ثعلبة:

وإن أحـــداً أســـدى إليك أمانة
فاوف بها تدعـــى إذا مـت وافياً

ولا تحسب المولى إذا كـان ذا غنى
ولا تجـــفه إن كـــان للمال فانياً

ثم الخلافة لك من بعدى، فأنت أولى الناس بها والسلام) [۱۶۲].

حاول معاوية فى رسالته هذه أن يرفع الإثارة والحدية مع الإمام (عليه السلام) فاعتمد أسلوب المراوغة والالتفاف، غير أن الإمام الحسن (عليه السلام) كشف النقاب عن الإطراء الأموى المزيف وكتب جواباً مختصراً أكد فيه الإمام (عليه السلام) موقفه الثابت تجاه السياسة الأموية وقال فيه: (أما بعد: فقد وصل إلىّ كتابك، تذكر فيه ما ذكرت، وتركت جوابك، خشية البغى عليك، وبالله أعوذ من ذلك، فاتبع الحق تعلم أنى من أهله، وعلىّ إثم أن أقول فأكذب والسلام) وبهذه الرسالة يكون الإمام الحسن (عليه السلام) قد أوصد باب المراوغة أمام معاوية بعد أن ألقى عليه الإمام (عليه السلام) الحجة فى رسالته الأولى، خاصة وأن معاوية عكف على استخدام الخداع والحياد عن الحق، وعلى ذلك تكون ـ والحال هذه ـ لغة المخاطبة والحوار هى الحرب ولهذا أنهى الإمام (عليه السلام) بجوابه الأخير لمعاوية أسلوب التفاوض وتسوية الخلاف على أساس الطرق السليمة، طالما أن المعتدى يصر على موقفه الرافض للتسليم للإمام الحق والحاكم الشرعى.

التعبئة العسكرية فى الدولة الاسلامية

وبعد أن أوقف الإمام (عليه السلام) المكاتبات مع معاوية، قام بالتعبئة العسكرية العامة وتثوير الشعب، وتشجيعه وتكتيل الطاقات فى الداخل للاستعداد لخوض الحرب ضد معاوية ومعسكر الشام.

وخطب الإمام الحسن (عليه السلام) فى الناس بهدف اطلاع الرأى العام الإسلامى على أبعاد القضية الراهنة وطرق علاجها فاجتمع الناس حول الإمام حسن (عليه السلام) فقام الإمام (عليه السلام) خطيباً فيهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

(أما بعد: فإن الله كتب الجهاد على خلقه وسمّاه كرهاً، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين: (وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) فلستم نائلين ما تحبون إلا الصبر على ما تكرهون، وبلغنى أن معاوية بلغه أنّا كنا أزمعنا على المسير إليه فتحرّك، لذلك اخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بالنخيلة حتى ننظر وتنظرون) [۱۶۳] أراد الإمام (عليه السلام) فى هذه الخطبة حث الناس على الجهاد وبعث فيهم الروح الثورية واستنهاض طاقات جماهير الأمة للحرب ضد معاوية.

أين الأمة من مسؤولية الجهاد؟

كانت الصدمة الأولى التى وقعت فى بدء مرحلة الإعداد والتعبئة أن حصل إحجام من جماهير الأمة عن تلبية نداء قيادتها ورغبتها فى الخنوع والراحة والتالى التنصل من الواجب المقدس..

وإن هـذا الموقف المتخـاذل الـذى اتخـذته جمـاهير الكوفـة من الإمام الحسن (عليه السـلام) إنما يعبر فى حقيقته عن الروح الانطوائية وحب الراحة التى تعكس صورة الثقافة التخديرية الجامدة التى راجت وماجت فى أوساط المجتمع الكوفى بعد أن خذل هذا المجتمع ـ من قبل ـ أمير المؤمنين (عليه السلام) وأكرهته على القبول بالمفاوضات مع معاوية.

وفى الواقع أن مثل هذه الثقافة من الممكن أن تغزو أى مجتمع خاصة وأنها تنمى عند الإنسان رغبة الراحة وحب الاستقرار وربما تجد لها مبرراً فى أداء بعض المسؤوليات الدينية غير المجهدة أو المتعبة.. كما أن الناس حينما تعشق ثقافة الجمود يدفعها ذلك لأن تقف إلى جانب ذلك القائد الذى لا يطلب منها مسؤولية التحرك، ولا يكلفها مهمة البذل والعطاء، ولا يدفعها للإيثار والتضحية والذى بالتالى لا يعكر صف وضعها المعيشى...

ولذلك فإنّ مثل هذه الأمة تبحث وتتبنى الثقافة المخدرة الخاوية والخالية من المسؤوليات وتكتفى بتأدية الفرائض الاعتيادية والمسؤوليات البسيطة والتى لا تشكل خطورة عليها ولا تهدد مصالحها ورغباتها..

وفى مثل هذه الحالة، فإن البعض من الناس ترفض تبنى الثقافة الثورية الداعية إلى الجهاد والتحرك والثورة ضد الواقع الفاسد، فتضع لنفسها التبريرات الواهية المستقاة من ثقافتها الجامدة فتعتبر التحرك الثورى تطرفاً، وأن الجهاد تهوراً وهكذا.

وهذا النمط من الثقافة ظهر وبوضوح فى موقف الناس فى الكوفة حينما دعا الإمام (عليه السلام) للتحرك والجهاد ضد معسكر الشام، حيث قابلت دعوة الإمام (عليه السلام) بالرفض ونكصت على عقبها وكأنما ألجمت أفواهها بالصمت معلنة عن تراجعها أمام قرار الحرب الذى اتخذه الإمام الحسن (عليه السلام).

وأمام هذا الموقف المتخاذل قام عدى بن حاتم من طليعة الإمام الحسن (عليه السلام) ليمزق طوق الصمت، مستنكراً من جواب الجماهير الانهزامى، ومعرباً عن سخطه وقال: (أنا ابن حاتم، سبحان الله ما أقبح هذا المقام ألا تجيبون إمامكم وابن بنت نبيكم، أين خطباء المصر الذين ألسنتهم كالمخاريق فى الدعة، فإذا جد الجد فرّوا مراوغين كالثعالب أما تخافون مقت الله ولا عيبها وعارها...).

نستوحى من كلمة عدى بن حاتم هذه أنه كان يوجه انتقاداً لاذعاً لتلك الفئة المتبنية للثقافة الاستهلاكية والترف الفكرى، والتى تتغذى على ثقافتها فى زمن الهدوء والاستقرار، وتتخلى عن ثقافتها ـ كما يشير عدى فى خطبته ـ فى وقت الصراع والمواجهة... ثم اقترب عدى من الإمام الحسن (عليه السلام) وقال كلمات أعرب فيها عن استعداده للجهاد معه قائلاً: (أصاب الله بك المراشد، وجنّبك المكاره، ووفقك لما تحمد ورده وصدره، قد سمعنا مقالتك، وانتهينا إلى أمرك وسمعنا لك وأطعناك فيما قلت وما رأيت وهذا وجهى إلى معسكرى فمن أحب أن يوافينى فليواف..).

قال بعده قيس بن سعد، وقيس بن عبادة الأنصارى، ومعقل بن قيس الرياحى، وزياد بن صعصعة التميمى، وقالوا بمثل ما قال عدى فأنّبوا الناس ولا موهم على الموقف المتخاذل الذى اتخذوه من الإمام (عليه السلام)، ثم استحثوا الناس للحرب ومقاومة المد الأموى ثم جاءوا للإمام (عليه السلام) وأعلنوا له عن استعدادهم لخوض الحرب معه، والإمام (عليه السلام) بدوره أعرب لهم عن ارتياحه من الموقف البطولى لصحابته فقال لهم: (صدقتم رحمكم الله ما زلت أعرفكم بصدق النية والوفاء والقبول والمودة الصحيحة فجزاكم الله خيراً)..

ولكن الحال أن خوض الحرب بحاجة إلى جيش، وهذا لا يكون إلا بتجنيد أعداد كبيرة من الناس محاولاً استنهاضهم وتشجيعهم ثانية للالتحاق بجبهات الحرب فقام الإمام (عليه السلام) خطيباً وقال: (معشر الناس: عفت الديار، ومحيت الآثار، وقلّ الاصطبار فلا قرار على همزات الشياطين وحكم الخائنين، الساعة والله صحّت البراهين وفصّلت الآيات، وبانت المشكلات، ولقد كنا نتوقع تمام هذه الآية تأويلها، قال الله عز وجلّ: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) [۱۶۴] .

فلقد مات والله جدى رسول الله (صلّى الله عليه وآله)، وقتل أبى (عليه السلام)، وصاح الوسواس الخنّاس فى قلوب الناس، ونعق ناعق

الفتنـة، وخـالفتم السـنّة، فيـا لهـا من فتنـة صـمّاء عميـاء لا يسـمع لـداعيها، ولا يجاب مناديها، ولا يخالف واليها، أظهرت كلمـة النفاق، وسيّرت رايـات أهل الشـقاق، وتكالبت جيوش أهل العراق، من الشام والعراق، هلّموا رحمكم الله إلى الافتتاح، والنور الوضّاح، والعلم الجحجاح، والنور الذى لا يطفئ، والحق الذى لا يخفى.

أيها الناس: تيقظوا من رقـدة الغفلـة ومن تكاشف الظلمـة، فوالـذى فلق الحبـة وبرأ النسـمة، وتردى بالعظمـة، لئن قام إلىّ منكم عصبـة بقلوب صافيـة وبنيّات مخلصـة لا يكون فيها شوب نفاق ولا نيـة افتراق، لأجاهـدن بالسـيف قـدماً ولأضـيقنّ من السـيوف جوانبها ومن الرماح أطرافها، ومن الخيل سنابكها فتكلموا رحمكم الله).

بهذا الخطاب البليغ الذى تقشعر له الأبدان وتصدع له العقول والأذهان، شرح الإمام الحسن (عليه السلام) خطورة الموقف، فدعا الناس إلى تحمـل المسؤوليـات الملقـاة على عواتقهم. إلا أنه عميت أبصار قلوبهم عن مناصـرة الحق ومقارعـة الباطل، فاختارت لنفسـها حياة الذل وسنرى ـ فيما بعد ـ كيف أن هذا الموقف الجبان كلف جماهير الكوفة وقطاع كبير من الأمة ثمناً باهظاً ومأساة رهيبة ونتائج سلبية فى غاية الخطورة بسبب ذلك الموقف.

ومع ذلك لم يستسـلم الإمام (عليه السـلام) بالرغم من موقف الأمة السلبى هذا من أن يبادر فى الاستعداد والتجهيز لحربه ضد معاوية، مع المجموعـة تلك التى خرجت للقتال معه، هـذه المجموعـة التى سـنأتى على شـرح تركيبتها وقوامها، والدوافع الأساسـية التى اعتمد عليها الإمام الحسن (عليه السلام) فى إدخال هذه المجموعة ساحة الصراع المصيرى ضد معاوية.

الفكر الاستراتيجى عند الإمام الحسن

اشاره

بعد أن تمكن الإمام (عليه السـلام) من حشد وتجنيد ما أمكنه من أبناء الأمة لحرب جيش الشام بدأ الإمام الحسن (عليه السلام) مرحلة تعبئة الصفوف إلى الجبهات...

وكانت أول فرقـة عسـكرية بعث بها الإمام (عليه السـلام) هى فرقة عبيد الله بن العباس والتى تتشـكل من اثنى عشـر ألف مقاتل، وهذه أكبر الفرق العسـكرية فى جيش الإمام الحسن (عليه السـلام)، وقبل أن تتحرك هذه الفرقة وجه الإمام (عليه السلام) وصايا هامة لقائد الفرقة عبيد الله بن العباس جاء فيها: (يا ابن عمّ: إنى باعث معك اثنى عشـر ألفاً من فرسان العرب وقرّاء مصر... فسر بهم وألن جانبك، وأبسـط وجهـك، وافرش لهم جناحـك، وأدنهم من مجلسك، وسـر بهم نحو الفرات، حتى تقطع بهم الفرات، ثم تصـير بمسـكن، ثم امضى حتى تستقبل معاوية فإن أنت لقيته، فاحبسه حتى نأتيك، فإنى فى أثرك وشيكاً، وليكن خبرك عندى كل يوم، وشاور هذين ـ يعنى قيس بن سـعد ـ وسعيد بن قيس ـ فإذا لقيت معاوية فلا تقاتلنّه حتى يقاتلك، وإن فعل فقاتله، فإن أصبت فقيس على الناس، وإن أصيب قيس، فسعيد بن قيس على الناس).

والإمام (عليه السـلام) فى حديثه مع عبيد الله بن العباس، تضمن مجموعة من الوصايا الضرورية للقائد العسكرى والتى ترتبط بالصفات النفسية والأخلاقية عند القائد العسكرى تجاه القيادة العليا للدولة من هذه الوصايا تنقسم إلى:

أولاً: أخلاقيات القائد العسكرى:

فلقـد سـلط الإمـام الحسن (عليه السـلام) فى وصايـاه لعبيـد الله بن العبـاس الضوء على بعـد هـام وهو البعـد الأخلاقى فى تعامل القائد العسـكرى مع عناصـر فرقته هـذا التعامل الـذى ينعكس فى طاعـة جنود الفرقة واخلاصـها لقائدها وتنفيذ القرارات الصادرة عنه بجدية وتفانى، وهذه بالتالى تترك آثارها فى نتائج الحرب.

ومن الصفات الأخلاقية التى أوحى بها الإمام (عليه السلام) إلى عبيد الله بن العباس هى كالتالى:

أ. الرفق بالجنود:

إن طبيعة العمل العسكرى والتدريبات البدنية الشاقة تتطلب من الجنود بذل جهود كبيرة حتى يتمكن الجنود من تأدية هذه المهمة على أحسن وجه، كقطع المسافات الطويلة، وصعود الجبال، والسهر فى الليل، والبقاء فترة من الزمن دون غذاء أو شراب وغيرها...

غير أن المطلوب من القائد العسكرى، ـ مع ضرورة هذه التدريبات فى سبيل صقل شخصية الجندى وإعداده ـ أن لا يغفل هذا القائد قدرة تحمل الجنود والقابليات النفسية عند كل فرد من أفراد الفرقة خاصة إذا كان القائد يهدف من وراء كل ذلك تخريج كوادر عسكرية قادرة على القيادة فى المستقبل، دونما الجمود على الأوامر، وتفريغ القرارات العسكرية من محتواها الأساسى.

ولذلك يوصى الإمام الحسن (عليه السلام) عبيد الله العباس بالرفق بالجنود (ألن جانبك).

ب. إدخال السرور على الجنود:

قد تكون الصرامة والجدية المفرطة فى الجهاز العسكرى حائلاً دون إشاعة المودة والسرور بين الجنود وقيادتها. فإذا كان الجهاز العسكرى يعمل فى إطار تربية الجنود على أساس خلق روحية خشنة تناسب مناخ العمل العسكرى لا يعنى ذلك أن يتعامل القائد العسكرى مع جنوده وأفراد فرقته بخشونة وبصرامة خارج فترات التدريب.

وفى سبيل تشذيب هذا الأسلوب عند القائد العسكرى، أى فى تعامله مع عامة الناس والذى بالتالى يؤدى إلى صناعة حواجز نفسية ما بين القائد وجنوده، فتكون حلقات الوصل بين القرار القيادى وطاعة الجنود متشنجة ومشدودة لهذا يدخل عنصر التواضع فى تفتيت الحواجز النفسية بين القائد العسكرى وبين الجنود، ممّا يشكل عاملاً مهماً فى التزام واحترام الجنود للقائد وتنفيذ الأوامر العسكرية باخلاص وقبول تام ورضى.

من هنا فالإمام الحسن يوصى ابن عباس (وافرش لهم جناحك).

ح. التعرف على مشاكل وهموم الجنود:

فى سبيل إعداد كادر عسكرى مخلص وقوى يتطلب من القائد العسكرى أن يكون قادراً على توفير الإمكانيات النفسية الفاعلة فى الجيش وهذا لا ـ يتم إلا ـ بالتعرف على المشاكل التى تكتنف مسيرة أفراد الجيش وتعميق نموهم واستقامتهم هذا ويلزم على القائد العسكرى أن يضع فى عين الاعتبار أن الجندى ليس آلية عسكرية جامدة تتحرك بفعل المؤثرات الخارجية، بل هو روح تنقبض وتنبسط له هموم ورغبات كغيره من أفراد المجتمع، وأن انتمائه فى السلك العسكرى لا ينفى أى من تلك الهموم والرغبات.. بل إن وظيفة القائد هى تشذيب تلك الهموم والرغبات والتعامل معها بواقعية معتمداً فى ذلك على قاعدة (لا إفراط ولا تفريط) وهذا إنما يتم عبر تعرف القائد العسكرى على هموم ومشاكل الجنود من خلال عقد اللقاءات الودية والحوار المشترك حتى يكون هذا القائد على علم بما يجرى فى الداخل أفراد الفرقة ومدى الاستعداد النفسى عند كل فرد مستوى التفاعل مع قرارات القائد العسكرى فالإمام يقول (وأدنهم من محلك).

هذه كانت مجموعة من الوصايا التى وجهها الإمام الحسن (عليه السلام) إلى عبيد الله ابن العباس الذى نصبه الإمام (عليه السلام) قائداً عسكرياً على الفرقة الأولى المتوجهة إلى معسكر النخيلة وترتبط هذه الوصايا بالبعد الأخلاقى.

وهناك مسؤوليات هامة على القائد العسكرى تجاه القيادة العليا للدولة، ذكرها الإمام الحسن (عليه السلام) لعبيد الله بن العباس ومنها.

أولاً: الالتزام بالقرارات العليا:

هناك مجموعة من الحدود الثابتة التى لا يحق للقائد العسكرى أن يتجاوزها، أو يبت فيها كونها تختص بالاستراتيجية العامة للدولة ومن تلك الحدود هى قرار بدء الحرب أو تقرير مصيرها والتى هى من صلاحيات القائد الأعلى للدولة وإن كان له فرصة التشاور ولكن لا يحق له أن يتخذ قراراً فردياً فى هذا الشأن، حيث أن مثل هذا القرار يرتبط بالخطة الاستراتيجية العامة فى الدولة.

هذا إضافة إلى أن تعاليم الإسلام توحى بأن لا يبدأ المسلمون الحرب من جانبهم حتى يبدأ العدو وفى ذلك لإتمام الحجة عليه

ويقول الإمام الحسن (عليه السلام) لابن عباس (فإن أنت لقيته فاحبسه).

ثانياً: رفع التقارير اليومية واطلاع القيادة العامة على مجريات الحرب:

للمهمة الصعبة والخطيرة التى يقوم بها الجيش ـ بكل فصائله ـ فى الحرب ضد العدو، والتحركات التكتيكية والاستراتيجية الحساسة والتى تؤثر فى مستقبل ومصير الحرب وبالتالى مستقبل الدولة وجوداً وعدماً، يلزم ذلك على القائد العسكرى رفع التقارير اليومية للقيادة العليا، يشرح فيها سائر الأوضاع على جبهات الحرب بما فيها تحركات العدو وإعداداته ومواقعه، كل ذلك بصورة تفصيلية، والتى تساعد القيادة العليا على ضوء تقارير القائد العسكرى فى أن تضع الخطط الكفيلة والمناسبة فى مواجهة تحركات جيش العدو، ومعرفة احتياجات قوات الجيش.

يقول الإمام الحسن (عليه السلام) لابن عباس، (وليكن خبرك عندى كل يوم).

ثالثاً: إقرار الشورى مع الكفاءات العسكرية فى الجيش:

كون الفرقة العسكرية لا ـ تقتصر تركيبتها على قائد عسكرى وجنود اعتياديين ـ فضلاً عن داخل الجيش ـ بل هناك رتب عسكرية متفاوتة وفى أوساط هذه الرتب توجد كفاءات قادرة على التخطيط والمشاركة فى صياغة القرار العسكرى المخوّل بيد القائد العسكرى ـ لاعتبارات مختلفة منها الخبرة والتجربة الطويلتين عند أفراد هذه الرتب خلال فترة العمل العسكرى، والتى ساعدتهم فى الوصول إلى مستوى متقدم فى ميدان العمل العسكرى.

ولهؤلاء الحق على القائد العسكرى أن يشركهم فى التفكير والمشاورة فيما يرتبط بمهام القائد العسكرى فيوصى الإمام (عليه السلام) عبيد الله بن عباس ويقول له: (وشاور هذين قيس بن سعد وسعيد بن قيس).

رابعاً: اعتماد النوّاب:

يمثل القائد العسكرى الرأس من الجسد، لذلك فهو أكثر حساسية وخطورة، وغالباً ما يقوم العدو بشل الجسد العسكرى عبر اقتناص الرأس المتمثل فى القائد العسكرى، وذلك بهدف إثارة البلبلة والتخبط بين أفراد الجيش، ممّا يؤدى إلى شلّ التحرك العسكرى وشقّ صفوف الجيش، وبالتالى القضاء على مفعول العمليات التى ينفذها عناصر الجيش كونها غير خاضعة لإشراف ونظر القائد العسكرى أو تعرضه للتصفية.

ولذلك جاءت ضرورة تعيين نواب يكونوا على درجة من الكفاءة والخبرة فى المجال العسكرى للحيلولة دون إصابة الجيش بحالات من التدهور والانهيار فى حال غياب القائد العسكرى أو تعرضه للتصفية.

وهناك نقطة ضرورية وحساسة هى أن تعيين النواب فى داخل الفرقة الواحدة يدفع خطر الانشقاق العسكرى والتمرد والذى يسبب إثارة النزاعات والخلافات بين أفراد الفرقة فى سبيل الاستئثار بمنصب القيادة... فالإمام (عليه السلام) يوصى ابن عباس: (فإن أصبت فقيس على الناس وأن أصيب قيس فسعد بن قيس على الناس).

وهنا قد يتساءل البعض عن ماهية الدوافع الرئيسية التى أدت بالإمام الحسن (عليه السلام) لأن يبعث فى المرحلة الأولى بأكبر فرقة عسكرية وهى فرقة عبيد الله ابن العباس التى يبلغ عددها اثنى عشر ألف جندياً والتى تضم أفضل الكفاءات العسكرية فى جيش الإمام (عليه السلام) وكان لها دور فاعل وبارز فى حرب صفين مع الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) فى حربه ضد جيش معاوية؟

والجواب على ذلك أن الهدف من وراء إرسال فرقة عبيد الله بن العباس بهذا الحجم والكيفية إنما كان لسببين وهما:

أولاً: إن الإمام الحسن (عليه السلام) أراد أن يظهر جانب القوة فى جيشه أمام جيش الشام لذلك كانت فرقة عبيد الله بن العباس هى أقوى فرقة فى جيش الإمام (عليه السلام) من حيث الكم والكيف، ومن جهة ثانية، الإمام (عليه السلام) إنما قدم أصحابه وطليعته لإثارة الحماس فى نفوس الناس الذين تثاقلوا عن نصرة الإمام (عليه السلام)، وبعث فيهم روح الحماس والشجاعة للخروج مع الإمام (عليه السلام) فى حربه ضد معاوية.

ثانياً: إدخال الرعب وإنزال الهزيمة النفسية بالعدو كون أن هذه الفرقة كانت تشكل خطورة بالغة على جيش الشام، حيث كان لها دوراً فاعلاً فى إنزال ضربات ساحقة فى معركة صفين حتى تكبد معاوية فى ليلة الهرير تسعين ألف قتيل والتى اعتبرت أكبر هزيمة عسكرية قبل أن يستخدم معاوية خدعة رفع المصاحف لإيقاف مسلسل هزائمه فى هذه المعركة.

لذلك الإمام الحسن (عليه السلام) فى هذه الفرقة أراد أن يذكّر جيش الشام بصفين لإضعاف معنويات أفراد العدو.

ثم، وبعد مغادرة أول فرقة عسكرية بقيادة عبيد الله بن العباس والتى نزلت مسكن والأنبار وجواريها، واصل الإمام الحسن (عليه السلام) نداءاته فى استنفار الجماهير للتعبئة العسكرية العامة، بينما بعث حجر بن عدى إلى العمال والولاة لكى يأمرهم باستنفار الناس والمسير بهم نحو معسكرات الإمام الحسن (عليه السلام) خارج الكوفة. وتمكن حجر أن يجند مجموعة من الناس للحرب مع الإمام (عليه السلام) ضد معاوية ويذكر الشيخ المفيد (رحمه الله) فى الإرشاد أنه (سار معاوية نحو العراق ليقلب عليه ـ أى على الإمام (عليه السلام) ـ فلما بلغ جسر منبج (عشر فراسخ عن حلب) تحرك الحسن (عليه السلام) وبعث حجر بن عدى يأمر العمال بالمسير، واستنفر الناس للجهاد فتثاقلوا عنه ثم خفّوا معه أخلاط من الناس بعضهم شيعة لأبيه، وبعضهم محكّمة يؤثرون قتال معاوية بكل حيلة وبعضهم أصحاب فتن وطمع فى الغنائم وبعضهم شكّاك، وبعضهم أصحاب عصبية اتبعوا رؤساء قبائلهم لا يرجعون إلى دين). وهذا المزيج من الناس التى خرجت مع الإمام (عليه السلام) كانت تشكل (۲/۵) من جيش الإمام (عليه السلام) ـ أى ثمانية آلاف رجلاً ـ وليس كما ذكر بعض الكتّاب المؤرخين على أن كل جيش الإمام الحسن (عليه السلام) تشكل من هذا المزيد ـ وذلك لأن حديث الشيخ المفيد (رحمه الله) يتعلق فقط بالفرق العسكرية التى خرجت مع الإمام الحسن (عليه السلام) بعد مغادرة فرقة عبيد الله بن العباس والتى بعثها بها الإمام (عليه السلام) فى أول الأمر.

وهنا يمكن أن نتوقف قليلاً للتعرف على طبيعة الفرق العسكرية التى تحدث عنها الشيخ المفيد (رحمه الله) والتى خرجت مع الإمام الحسن (عليه السلام) وهى كالتالى:

۱ـ الطليعة الرسالية:

وهذه تؤمن بحق الإمام الحسن (عليه السلام) المشروع فى ولاية المسلمين وتقف إلى جانبه كما وقفت إلى جانب أبيه أمير المؤمنين (عليه السلام)، وهذه الفئة هى قليلة قياساً بغيرها من الفئات الأخرى فى الفرق العسكرية لجيش الإمام الحسن (عليه السلام).

۲ـ المحكّمة:

وسُميت بهذا الاسم لأنها قبلت بالتحكيم فى حرب صفين وطلبت من الإمام على (عليه السلام) القبول بذلك، ثم تظاهرت على الإمام على (عليه السلام) بعدان أكرهته على التحكم. وهذه الفئة تكيد العداوة لمعاوية وتسعى لحربه بأى صورة كانت وتحت أية لواء كان طالما ضد معاوية إلا أن هذه الفئة لا تحمل ولاءً حقيقياً للإمام الحسن (عليه السلام)، وإنما أرادت أن تحارب مع الإمام (عليه السلام) ضد معاوية لأنها وجدت فى الإمام (عليه السلام) لواءً يمكنها الانضواء تحته فى الحرب ضد عدوها.

۳ـ المصلحيّون والمحاربون للمغنم:

وهذه الفئة لا تحمل هدفاً مقدساً أو غرضاً سامياً وإنما تستخدم الحرب كوسيلة لاكتساب المغانم وتحقيق المصالح والرغبات الشخصية. وهذه الفئة لا يمكن أن تدخل صراعاً حقيقياً بل لديها القابلية لانقلاب على الإمام الحسن (عليه السلام) والانحيار إلى جانب معاوية فى حالة لو تعرض جيش الإمام (عليه السلام) للانكسار والتقهقر.

۴ـ الشكّاكون والمتذبذبون:

هذه الفئة لا تقف على أرض ثابتة وليس لها قدم راسخ فهى كالماشى على رمال متحركة، لا يقر لها قرار، ولا يهدأ لها بال، فقد يطفح كيل الشك بها فتترك الموقع التى هى فيه وتنزح إلى الأعداء وهذه الفرقة من الصعب الاعتماد عليها أو إيلائها الثقة فى حال السلم فكيف فى حال الحرب التى فيها امتحان الإرادات.

۵ـ أتباع الفكر القبلى:

أما هـذه الفئـة فينحصـر ولاؤها لزعماء القبيلـة، فهى تتلقّى أوامرها من هؤلاء الزعماء، فتقـدم طاعـة رؤساء القبيلـة وزعاماتها على طاعة الإمام الحسن (عليه السـلام)... وعليه فإن هذه الفئة غير قابلة لأن تتبع استراتيجية الإمام (عليه السـلام) فى حربه مع معاوية إلا بما يمكن زعماء القبيلة عليها.

وهنا يطرح السؤال التالى: إذا كان هذا حال الفرق، إذن لماذا جندهم الإمام الحسن (عليه السلام) فى حربه ضد معاوية؟

والجواب على ذلك: لعل هناك سببين رئيسين فى ذلك وهما:

أولاً: أراد الإمام (عليه السـلام) توجيه كافـة الحراب نحو معاويـة، ولوجود جبهات معارضـة فى داخل الكوفـة ضد جبهة الشام، لذلك استفاد الإمام (عليه السلام) من حركات المعارضة فى الحرب مع معاوية بالرغم من اختلاف أهدافها وتطلعاتها.

ثانياً: لم يكن الإمام يأمن غائلة هذه الفرق خاصة وأن فيها من هى على اسـتعداد تام لشـهر السـلاح ضد الإمام فيما لو لم يتم اسـتغلالها وتوجيه سـهامها نحو عدو آخر لها، من جهة ثانية أن بعض هذه الفئات لديها القابلية للحرب مع معاوية ضد الإمام وإذا لم يستفد منهم الإمـام فى حربه ضـد معاويـة، من الممكن أن يغريهم معاويـة ويجنـدهم لصـالحه، وفيهم من يركع لبريق المعـدن ويسـجد لطعم المال والشهوة والمنصب.

خيانات الجيش

وبعـد أن تحرك الإمام الحسن بالناس ووصل بهم معسـكر المـدائن بدأ يعدّ الفرق ويجهز الصـفوف لخوض الحرب، وفى هذه الأثناء وصـلت رسالـة مسـتعجلة من قيس بن سـعد إلى الإمام جاء فيها (إنهم نازلوا معاويـة بقريـة يقال لها الجنوبية بإزاء مسـكن، وإن معاوية أرسـل إلى عبيـد الله بن العبـاس، يرغبه فى المسـير إليه، وضـمن له ألف ألف درهم يعجـل له فيها النصف، ويعطيه النصف الآخر عند دخوله الكوفة، فانسلّ عبيد الله فى الليل إلى معسكر معاوية فى خاصته...) [۱۶۵].

كانت هـذه الرسالـة تشـكل الصدمـة العنيفـة والكبرى التى هزّت القوى المجنّـدة فى جيش الإمام الحسن (عليه السـلام) وهذه الصدمة حـدثت بعـد أن بث معاويـة شائعة فى أوساط جيش الإمام المرابط فى الأنبار ومسـكن، فى رسالة بعثها معاوية إلى عبيد الله بن العباس قال فيها: (إن الحـــسن قـــد أرسـلنى فى الصـلح، وهـــو مسلّم الأمر إلىّ فـــإن دخلت فى طاعتى متـــبوعاً، وإلا دخلت وأنت تابع) [۱۶۶].

ولقـد قـدم معاوية فى رسالته الإغراءات المادية إلى عبيد الله بن العباس التى هى عبارة عن مائة ألف ديناراً يسـتلم نصـفها حال وصوله إليه، والنصف الآخر فى الكوفة بعد أن يدخلها معاوية للسـيطرة على السـلطة هذا إضافة إلى أن معاوية أخبر عبيد الله بأنه سيمنحه أحد كور الشام. وحينما وصـلت هـذه الرسالـة من معاوية إلى عبيد الله بن العباس، جلس الأخير ينظر فى ترغيبات معاوية، وراح يهيم بفكره المسـند بشيطان الهوى إلى ما سيناله من أموال وقطائع وغاب عن ذهنه الهدف المقدس الذى جاء من أجله لمحاربة معاوية، فلم يخطر بباله عاقبة السوء التى تنتظره فآثر حب الذات والشهوات على هدفه الكبير.

وفى منتصف الليل سار عبيـد الله على رأس ثمانيـة آلاف رجل، متخفياً صوب جبهـة معاويـة، فسـلّم نفسه إليه مؤثراً إلحاد معاوية على إيمان إمامه الحسن (عليه السلام).

يقول اليعقوبى: (أنه ـ أى معاوية ـ أرسل عبيد الله بن عباس، وجعل له ألف ألف درهم، فصار إليه فى ثمانية آلاف من أصـحابه، وأقام قيس بن سعد على محاربته) [۱۶۷].

... تسلم قيس بن سعد قيادة الجيش فى الأنبار ومسكن، فصلى بالناس ثم خطب فيها خطبة أراد فيها استعادة معنويات الجيش المنهارة، وتسوية ما جرى من شـكوك وظنون فى داخل أفراد الفرقة، من هول الفتق الذى سببه عبيد الله فى الجيش. فقال قيس فى خطبته: (أيها

الناس: لا يهولنكم ولا يعظمن عليكم ما صنع هذا الرجل المولّه، إن هذا وأباه وأخاه لم يأتوا بيوم خير قط، إن أباه عم رسول الله خرج يقاتله ببدر فأسره أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصارى فأتى به رسول الله فأخذ فداءه فقسمه بين المسلمين وإن أخاه ولّاه على (عليه السلام) البصرة (البصرة) فسرق ماله ومال المسلمين، فاشترى به الجوارى وزعم أن ذلك له حلال وأن هذا ولّاه على اليمن فهرب من بسر بن أرطأة وترك ولده حتى قتلوا وصنع الآن هذا الذى صنع).

وبعد أن وصل خبر عبيد الله بن العباس إلى الإمام الحسن (عليه السلام)، عمد بعدها الإمام (عليه السلام) إلى تعبئة الفراغ الذى خلّفه عبيد الله فى جبهة الأنبار فوجه رجلاً آخر من كندة على رأس أربعة آلاف مقاتل وطلب منه الإمام (عليه السلام) أن لا يحدث شيئاً حتى تأتيه الأوامر من الإمام (عليه السلام).

ثم سار هذا الرجل مع فرقته متوجهاً نحو الأنبار، فنزل بها يستعد لتنفيذ أوامر الإمام (عليه السلام)، ووصل خبره إلى معاوية يفيد بوصول فرقة عسكرية جديدة إلى الأنبار، فأرسل معاوية رسالة إغراء مماثلة إلى قائد هذه الفرقة وقال له فيها (إنك أن أقبلت إلىّ أوّلتك بعض كور الشام والجزيرة غير منفّس عليك).

كما أرفق معاوية مع رسالته هذه خمسمائة ألف درهم، فلما وصلت الرسالة إلى الكندى هاجت نفسه للقبول بإغراءات معاوية، والخضوع لترغيباته، فانسلّ ومائتا رجل باتجاه معسكر الشام، فترك فرقته دونما قيادة.

وعلم الإمام الحسن (عليه السلام) بخبر الكندى فقام وخطب فى الناس وقال: (هذا الكندى توجه إلى معاوية وغدر بى وبكم وقد أخبرتكم مرة بعد مرة أنه لا وفاء لكم، أنتم عبيد الدنيا، وأنا موجه رجلاً آخر مكانه وإنى أعلم أنه سيفعل بى ما فعل صاحبه ولا يراقب الله فىّ ولا فيكم).

ثم طلب الإمام (عليه السلام) رجلاً من مراد فسلّمه زمام القيادة العسكرية وأمدّه [۱۶۸] بأربعة آلاف رجل، وقبل أن يغادر المرادى المدائن، جاء إلى الإمام (عليه السلام) أمام جموع الناس وعلى مرأى ومسمع منهم وحلف بالإيمان المغلظة التى لا تقوم لها الجبال بأنه لن يفعل ما فعله من كان قبله من القادة العسكريين.

وسار المرادى مع كتيبته إلى الأنبار، فلمّا وصل، جاء خبره إلى معاوية فعاود الأخير الكرّة ثالثة وأرسل إلى المرادى يغريه ويرغبه فى المسير إليه وأرفق بالرسالة خمسة آلاف درهم كما وعده إحدى كور الشام والجزيرة، ولما وصلت الرسالة إلى المرادى مالت به ريح الشهوات إلى معاوية، فسلك الطريق إليه تاركاً وراءه العهود والمواثيق والأيمان التى اقتطعها على نفسه للإمام الحسن (عليه السلام).

ولما بلغ الخبر الإمام (عليه السلام) جاء إلى الناس وقال: (قد أخبرتكم مرة بعد أخرى أنكم لا تفون لله بعهد وهذا صاحبكم المرادى غدر بى وبكم وصار إلى معاوية).

وأخيراً فما صمدت من الثلاثة فرق العسكرية التى بعث بها الإمام الحسن (عليه السلام) إلى جبهات القتال سوى المجموعة المتبقية من فرقة عبيد الله بن العباس والتى يبلغ عددها أربعة آلاف رجل وقد تسلم قيس بن سعد قيادة هذه البقية من الفرقة تلك.

مخطط اغتيال الإمام الحسن

أ- المحاولة الأولى: بينما كان الإمام (عليه السلام) يستحث الناس للنهوض والانخراط فى صفوف الجيش لحرب معاوية، كان الأخير ـ حينئذ ـ يغرق الكوفة من رسائله إلى رؤساء العشائر وزعماء القبائل من أمثال عمرو بن حريث، والأشعث بن قيس، والحجر بن الحجر، وشبث بن ربعى... وكانت هذه الرسائل تحتوى على فكرة مشتركة واحدة وهى: (إنك إن قتلت الحسن بن على فلك مائتا ألف درهم وجند من أجناد الشام وبنت من بناتى).

وحينما كشف الإمام الحسن (عليه السلام) عن مؤامرة معاوية هذه، ارتدى درعاً واقياً فلا يتقدم الإمام (عليه السلام) للصلاة دونه، فيما كانت المجموعة ترسم مخطط الاغتيال ضد الإمام (عليه السلام) وقد اختارت هذه المجموعة موعد تنفيذ المخطط العدوانى فى وقت

يكون فيه الإمام (عليه السلام) متلبساً، بالصلاة، فتحرك أحد أفراد المجموعة فى الوقت المحدد لتنفيذ عملية الاغتيال، وبينما كان الإمام الحسن (عليه السلام) يصلى فى مسجد الكوفة، قام ذلك المجرم بتسديد سهم فى كبد قوسه، ثم أطلقه نحو الإمام (عليه السلام) فوقع السهم فى منطقة الدرع الذى كان يلبسه الإمام (عليه السلام) فحال ذلك دون نجاح مخطط الاغتيال وبالتالى فشلت مؤامرة معاوية.

ثم قام الإمام الحسن (عليه السلام) بعد أن انتهى من صلاته خاطباً فى الناس ومحذراً أقطاب المؤامرة وبعض الفئات المتعاطفة مع معاوية فقال: (يا قوم ويلكم والله أن معاوية لا يفى لأحد منكم بما ضمنه فى قتلى وإنى إن وضعت يدى فى يده فأسالمه لم يتركنى أدين بدين جدى وإنى أقدر أن أعبد الله عز وجل وحدى ولكن كأنى أنظر إلى أبنائكم واقفين على أبواب أبنائهم يستسقونهم ويستطعمونهم ممّا جعل الله لهم فلا يسقون ولا يطعمون فبعداً وسحقاً لما كسبته أيديهم (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) [۱۶۹].

وكشف الإمام (عليه السلام) فى خطبته هذه النقاب عن الجهة التى كانت وراء تنفيذ محاولة الاغتيال، حينما ذكر الإمام (عليه السلام) السبب الرئيسى وراء إقدام هذه الجهة على عملية عدوانية تسعى منها إلى تحقيق بعض المصالح والمطامع المادية التى وعدهم بها معاوية.

ثم انه (عليه السلام) حذر من مغبة النتائج التى تعقب تنفيذ مثل هذه المؤامرة الخبيثة، ومنها سيطرة معاوية على الحكم وإقراره نهجاً سياسياً فاسداً فى إدارة الدولة الإسلامية، خاصة وأن هذه السيطرة ستقوم على غير شرعية الجماهير وارادتها، وأنّ الهدف الرئيسى من إقدام مرتزقة زعماء القبائل على تنفيذ عملية الاغتيال ضد الإمام الحسن (عليه السلام) إنما هو ضرب الشرعية الجماهيرية المتمثلة فى قيادة الإمام الحسن (عليه السلام) وبذلك فرض نظام قمعى وإرهابى غير مستند على تأييد ودعم الجماهير.

وفى الواقع أن هذا يتم فى حال غياب الوعى السياسى فى الأمة، واسترسال الجماهير فى البحث عن وسائل الرفاه والراحة واستسلامها للضغوطات وانتشار حالة التململ من الجهاد والمقاومة، هذه وغيرها من الأسباب حالت دون وقوف أبناء المجتمع فى الكوفة والبصرة وغيرها، إلى جانب الإمام الحسن (عليه السلام).

هذا فى وقت أن الإمام (عليه السلام) يستصرخ ضمائر الناس، ويكشف لهم عن الطبخات الأموية ومؤامرات معاوية فى سبيل كرسى الحكم والتسلط على رقاب الشعب بالقوة والإكراه غير أن المشكلة الأم هى حينما تسكت الأمة عن حقوقها، وتطالب بالسلم وإن كان فيه الذلة لها وتهرب من الجهاد والمقاومة وإن كان فيه عزّتها وكرامتها.

إن مثل هذه الأمة تكون عرضة لألوان الهيمنة والتبعية، وبذلك تكون بمثابة الساحة المكشوفة التى تنفذ فيها المؤامرات فى وضح النهار، وتمر فى أرضها عربة المخططات السياسية، دونما اكتراث لصوت المعارضة، أو تأثير لصرخة الضمير الحر، فيقتل القادة، وتُباد الطليعة أو تُعتقل، ويُفرض الإرهاب فى كل مكان...

فحينما يخيّم التقاعس فى الأمة، ويضرب الملل أطنابه فيها فإنّ ذلك يعنى تسليم مفاتيح الدولة للقوى المناوئة الداخلية والخارجية والسماح لها فى التغلغل إلى داخل المجتمع والسيطرة على ممتلكاته وخيراته... وهذا إنما يتم حينما تنطفئ شمعة اليقظة، وتخبو روح المسؤولية عند أبناء هذه الأمة.

كما أن انكفاء الجماهير عن محاربة القوى المعادية والمتآمرة يعنى ذلك إطلاق اليد لتلك القوى لتنفيذ سلسلة من المؤامرات المتلاحقة والشديدة الخطورة التى تهدد وجود الدولة واستقلالها.

ولذلك لمّا تنصلت الجماهيرى عن المسؤولية الشرعية فى دعم وتأييد ومناصرة الإمام الحسن (عليه السلام) كانت النتيجة الطبيعية والأتوماتيكية هى أن تتحول هذه الجماهير إلى لقمة سائغة للمخططات السياسية التى ينفذها العدو ضدها، بل قد يدفع هذا العدو جماهير الأمة فى أن تشارك فى تنفيذ مخططه ضد نفس هذه الجماهير.

وعلى العكس تماماً فيما لو استنهضت الجماهير قواها، وقدراتها وطاقاتها الذاتية وانتزعت المبادرة من إشغال العدو، فإنها حينئذ تكون قد ساهمت فى صد الهجمات العدوانية، وتمكنت بذلك من تحصين حدودها من الغزو الخارجى، وضمان استقلالها.

وهنا نشير إلى مسألة هامة وهى أن البعض من الناس يعتقد بأن بث الوعى كفيل بتغيير الأوضاع السائدة فى الأمة. غير أن عملية التغيير لا يمكن أن تتم إذا لم تساندها إرادة التغيير، فوجود حالة الوعى فى الأمة لا تعنى بحد ذاتها تغييراً حقيقياً فى واقع الأمة حتى تنقدح هذه الحالة فى صورة إرادة تغييرية عند الجماهير تسعى عبرها فى تحريك الساحة الجماهيرية للثورة على الواقع الفاسد.

ب. المحاولة الثانية: أجرى الإمام الحسن (عليه السلام) ثلاث محاولات لاستعادة قوة الجيش، بعد ظهور الخيانات من قبل القادة العسكريين، بحيث تسلم بعدها الإمام (عليه السلام) قيادة الجيش فاجتمع الناس من حوله وقالوا: إن خانك الرجلان وغدرا بك فإنا مناصحون لك.

فقال الإمام (عليه السلام) لهم: لأعودن هذه المرة فيما بينى وبينكم وإنى لأعلم أنكم غادرون ما بينى وبينكم، إنّ معسكرى بالنخيلة فوافونى هناك والله لا تفون لى بعهدى ولتنقضن الميثاق بينى وبينكم) [۱۷۰].

وبعد أن اتخذ الإمام (عليه السلام) قرار قيادة الجيش، تحرك نحو النخيلة وكان معه أربعة آلاف رجل، وحينما وصل الإمام (عليه السلام) إلى دار بكر نزل فى ساباط ـ دون القنطرة ـ وهى إحدى قرى منطقة المدائن فبات الإمام (عليه السلام) مع جيشه فى هذه القرية.

وفى صباح الغد وقرب موعد المسير إلى النخيلة، أراد الإمام الحسن أن يمتحن إرادة الجيش وأن يستبرئ ذمم الجيش وطاعتهم للإمام (عليه السلام) بهدف فرز الموالين من الخائنين ويكون على بصيرة من لقاء معاوية وأهل الشام، فأمر (عليه السلام) أن ينادى بالصلاة جامعة، فاجتمعوا، فصعد المنبر فخطبهم فقال: (الحمد لله كلّما حمده حامد،وأشهد أن لا إله إلا الله كلّما شهد له شاهد، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالحق وائتمنه على الوحى (عليه السلام)، أما بعد:فوالله إنى لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله ومنّه وأنا أنصح خلق الله لخلقه وما أصبحت محتملاً على مسلم ضغينة ولا مريداً له سوءاً ولا غائلة إلا وإن ما تكرهون فى الجماعة خير لكم ممّا تحبون فى الفرقة، إلا ـ وإنى ناظر لكم خيراً من نظركم لأنفسكم فلا ـ تخالفوا أمرى ولا ـ تردوا علىّ رأيى، غفر الله لى ولكم، وأرشدنى وإياكم لما فيه المحبة والرضا) [۱۷۱].

ومن الواضح فى هذه الخطبة أن الإمام (عليه السلام) إنما أراد استيضاح طاعة الجيش للإمام (عليه السلام) خاصة وأن الخيانات التى ارتكبتها قيادات الجيش فى السابق تركت أثراً بالغاً وأعطت انطباعاً سيئاً عند أفراد الجيش، هذا بالإضافة إلى أن حبل الولاء بين الجندى والقائد أصبح شبه مقطوع.

وأن الإمام الحسن (عليه السلام) الذى عاش تجربة مريرة مع مختلف فصائل الجيش فوجد أن طاعة الجنود لقياداتها فى الباطل ـ أكبر ممّا هى عليه بالنسبة للحق ـ كيف وقد انسل قطاع كبير من الجيش مع القادة العسكريين إلى جبهة العدو، فكان من الضرورى غربلة النوايا فيما يرتبط بالحرب فبعد أن انتهى الإمام (عليه السلام) من خطبته، أخذ ينتظر ردود فعل الجيش فنظر الناس بعضهم إلى بعض وقالوا ما ترونه يريد بما قاله؟ قالوا:نظنه والله أن يصالح معاوية ويسلم الأمر إليه فقالوا: (كفر والله الرجل)، فهجموا على الإمام (عليه السلام) وانتهبوا متاعه وفسطاسه ثم كمن له رجل خارجى يدعى (الجراح ابن السنان) فى الساباط ليقوم بتنفيذ عملية الاغتيال فعندما مرّ الإمام (عليه السلام) على الساباط، صرخ الخارجى قائلاً: (الله اكبر أشركت كما أشرك أبوك من قبل) ثم طعن الإمام (عليه السلام) برمح فى فخذه حتى وصل العظم.

فسقط الإمام (عليه السلام) إلى الأرض وقد نزف دمه الشريف من فخذه ثم قال (عليه السلام): (عليكم لعنة الله من أهل قرية، فقد علمت أن لا ـ خير فيكم، قتلتم أبى بالأمس واليوم تفعلون بى هذا) [۱۷۲] فحمل الإمام الحسن (عليه السلام) إلى المدائن حيث دار سعد ابن مسعود الثقفى (والى المدائن) منذ عهد الإمام على (عليه السلام) لتلقى العلاج هناك.

أما عن الجيش فأقل ما يمكن أن يقال عنه أنه لا ـ يصلح لأن يخوض حرباً، ما دام يفتقر إلى العصب الرئيسى فى تحركه وهو طاعة القيادة والالتزام بأوامرها، خاصة وأن هذا الجيش ـ كما عرفنا ـ لم يقترب بعد من خط النار ومن جبهة المواجهة فلم تشتبك بعد السيوف والأسنة والتى فيها صراع خبايا وخفايا الجنود وامتحان الإرادات وإظهار المعدن والجوهر.

وإن جيشاً مثل هذا لا يعلن ولاءه الكامل لقيادته، بل ويحاول اغتيالها فمن الصعب الحديث عن مقومات القدرة العسكرية عند الجيش، فى ظل غياب المحور الأساسى وديناموقدرات الجيش وامكانياته وهى طاعة القيادة، والتى بدونها تعنى التخبط والفوضى والعشوائية... الخ، وبالتالى نزول الهزيمة بساحة المسلمين...

فى حين نجد أن الإمام الحسن (عليه السلام) حينما يتحدث عن الجسم العسكرى يركز على وحدة الصف والمصير ومحورها طاعة القيادة ففى خطبة للإمام (عليه السلام) ألقاها فى الناس وهو يستحثهم لقتال معاوية قال (عليه السلام): (الحمد لله لا إله غيره، ولا شريك له...، إن ممّا عظم الله عليكم من حقه، وأسبغ عليكم من نعمه ما لا يحصى ذكره، ولا يؤدى شكره ولا يبلغه قول ولا صفة، ونحن إنما غضبنا لله ولكم، إنه لم يجتمع قوم قط على أمر واحد إلا اشتد أمرهم، واستحكمت عقدتهم فاحتشدوا فى قتل عدوكم معاوية وجنوده، ولا تخاذلوا فإن الخذلان يقطع نياط القلوب، وإن الإقدام على الأسنة نخوة وعصمة، لم يمتنع قوم قط إلا رفع الله عنهم العلّة وكفاهم حوائج الذلّة، وهداهم معالم الملّة).

وفى هذه الخطبة الرائعة يؤكد الإمام (عليه السلام) على مسألة خطيرة وحساسة فى داخل الجيش وهى اتفاق أفراد الجيش على هدف واحد ومصير واحد، واعتبر الإمام (عليه السلام) ذلك قطب الرحى فى حركة الجيش بشتّى أنواعها وألوانها، ويشير الإمام (عليه السلام) إلى فائدتين عظيمتين من وراء وحدة الهدف والمصير فى داخل الجيش وهما:

الأولى: تصليب الإرادة وتقوية الجسم العسكرى، إضافة إلى بعث روح الجدّيّة والنشاط والتضحية فى المواجهة وإنزال الضربات الساحقة فى عمق مناطق حشود وتجمعات العدو، يقول الإمام (عليه السلام): (إلا واشتد أمرهم).

الثانية: توحيد صفوف الجيش للحيلولة دون عمليات الاختراق أو التسلل قد يقوم بها العدو فى داخل فصائل الجيش، أو إثارة الفتن والخلافات فى أوساط الجيش غير أن هذه المؤامرات تزول وتختفى فى حال توحيد الصفوف التى تعكسها وحدة الهدف والمصير وطاعة القيادة فى الجيش.

وهذا ما كان ينقص جيش الإمام الحسن (عليه السلام) بشكل واضح، بحيث كانت ثغرات الاختراق فى الجيش واسعة ومتعددة، والتى يرجع إلى تعدد الأهداف، واختلاف القيادات وتباين المصالح عند كل فرقة هذا إضافة إلى عدد جيش الإمام (عليه السلام) القليل كمّاً ونوعاً، مقارنة بالحشود الهائلة التى تقاطرت من كل المناطق الواقعة تحت سيطرة معاوية لحرب الإمام الحسن (عليه السلام) والدولة الإسلامية.

رسائل عملاء الكوفة إلى معاوية

جاء الإمام الحسن (عليه السلام) مع جيشه إلى معسكر النخيلة بفترة قصيرة، بعد أن أخبر الناس عن موقعه لمن شاء أن يلتحق به، فراح قطاعٌ من أهل الكوفة يبعثون الرسائل إلى معاوية يخبروه فيها (بأنا معك وإن شئت أخذنا الحسن أسيراً وبعثناه إليك) [۱۷۳].

وهكذا فعل الزعماء ورؤساء القبائل فى الكوفة من أمثال عمرو بن سعد بن أبى وقاص، وحجر بن عمرو، وعمرو بن حريث، وأبو موسى الأشعرى، وعمارة ابن الوليد بن عقبة، وعبد الله بن وهب الراسى، وشبث بن ربعى، والأشعث بن قيس... وغيرهم، وهؤلاء جميعاً كانوا قد بايعوا الإمام الحسن (عليه السلام) فى أول الأمر، قبل أن تتم المواجهة مع معاوية على السمع والطاعة.

وقد كتب هؤلاء رسائل عديدة يطلبوا فيها من معاوية بالتحرك والمسير إلى الكوفة كما وأعلنوا له عن استعدادهم التام للوقوف بجانبه

ضد الإمام الحسن (عليه السلام) ووعدوا بتسليم الإمام (عليه السلام) له عند وصول معاوية إلى الكوفة.

وبقى الإمام الحسن (عليه السلام) عشرة أيام ينتظر قدوم الناس للانضمام إلى جيشه لمحاربة جيش الشام، ولكن لم يحدث ذلك، بل تكثفت حجم المؤامرة ضد الإمام (عليه السلام) وتوسعت رقعة التواطؤ الداخلى مع جبهة الشام..

فالمؤامرة إذن فى غاية الخطورة فبالأمس خيانات فى الجيش، ثم محاولة اغتيال الإمام القائد (عليه السلام) والتى هذه كشفت عن شبكة عملية تضرب جذورها فى أعماق المجتمع الكوفى وتتلقى توجيهات من الخارج وتنفذ مخططاته فى داخل الدولة الإسلامية، واليوم تتسع هذه الشبكة لتطال قطاع كبير من أبناء الأمة، حتى دخل هذا القطاع فى تشكيلة جيش الإمام (عليه السلام)، وإذا بسيل من الرسائل تصل إلى معاوية وتطالبه فى الدخول إلى الكوفة والسيطرة على الحكم.

مطالبة الجماهير بالحل السلمى و ممارسة الضغوطات على الإمام

إن من أخطر الآفات التى تفتك بأى أمة من الأمم وتشل حركتها وتقدمها وتفقدها الاستقلالية هى أن تصاب بأحد هذين المرضين وهما:

أولاً: فى حال أن يغزو التعب والتململ مراكز القيادة والتوجيه فى الأمة، فتقوم هذه المراكز بممارسة مختلف الوسائل والطرق بهدف منع الجماهير عن التحرك والتقدم، بحيث تعمد قيادات الأمة إلى استخدام مواقعها فى توجيه الناس نحو التقاعس والتكاسل من خلال بث الأنماط الثقافية الانهزامية كالاهتمام بالقشور والظواهر من الدين، ومطالبة الناس بالابتعاد عن المواضيع الضرورية والحساسة فى حياة المجتمع بأكمله، كإغفال الجهاد والأمر بالمعروف وعليه فإنّ دور هذه القيادات ينحصر فى إقعاد وتخدير الجماهير عن التحرك، وهكذا تجبين فئات المجتمع عن النهوض والثورة فعوضاً من أن تقوم هذه القيادات بدفع القاعدة الجماهيرية نحو الثورة والمقاومة تبدأ هذه القيادات تفكر بالحلول السلمية، واعتماد الصيغ الدبلوماسية فى معالجة القضايا المصيرية.. وبذلك تصاب حركة الأمة بالشلل، فتفقد استقلاليتها. وتموت كرامتها وتندثر طاقاتها.

وكل ذلك بسبب اعتماد القيادات ومراكز التوجيه منهجية عقيمة فى التعامل مع قضايا المجتمع.

ثانياً: أن تصاب الأمة نفسها بالتعب والتململ والاستسلام للدعة والتقاعس وحب الراحة فلا تستجيب لنداءات قياداتها، ولا تعبأ بمطالبها، فتغزوها الجيوش من كل جانب ويهيمن عليها أشرار الأمة، فتبقى كالأسيرة لا ترد مظلمة ولا تتصدى لهجمة، وذلك لأنها لم تسند القيادات الشرعية الحقيقية فى الأمة ولم تؤثر طاعتهم على مصالحها وأهواءها وشهواتها.

وهنا المشكلة أنه حينما تؤثر الأمة السلم مع الذل، على الحرب مع العز، فإن مصير هذه الأمة يؤول نحو الهاوية والدمار الشامل. وكما يقول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): (أما بعد، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، فتحه الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة وجنته الوثيقة، فمن تركه رغبه عنه ألبسه الله ثوب الذلّ وشمله البلاء وديّث بالصّغار والقماءة أو ضرب على قلبه بالإسهاب وأديل الحق منه بتضييع الجهاد، وسيم الخسف ومنع النصف) [۱۷۴].

وليس ثمة شك فى أن الإمام الحسن (عليه السلام) عاش بين مجتمع يهوى الراحة ويبحث عن الدعة يكره الحرب وحر السيف، ويتثاقل عن الجهاد فى سبيل الله، ويخاف من زمجرة الجيوش ونقع العاديات..، ولذلك كان يعيش الإمام الحسن (عليه السلام) كالغريب فى مثل هذا المجتمع، كما كان أبوه أمير المؤمنين (عليه السلام) من قبل، فهو أيضاً كان قد استصرخ ضمائر الناس لأن يهبوا الدفاع عن حريم الإسلام وحرمات المسلمين، فإذا بالقوم جامدون كأنما على رؤوسهم الطير، يخافون أن يتخطفهم الموت... فتسرق الأموال وتهتك الحرمات، ويذبح الرجال والنساء والأطفال وكأنما خليت الديار من أصحابها أو غشى أهلها الظلام حتى لا تكاد تبصر ما يرى فى ساحتها!!

وطبيعى أن يكون مصير كل أمة تفضل الراحة على الحركة وتميل إلى التقاعس والتخلى عن النهضة والانتفاض والهروب من الواجب

المقدس رغبة أو رهبة، فإن أولى مصائبها الذلة والهوان وقد مارس المجتمع فى عهد الإمام الحسن (عليه السلام) الحالات تلك بحذافيرها، حتى ظهرت فيه معالم المجتمع المهزوم الناكص، وسيطرت عليه حالة التوافق الاجتماعى باتجاه الاستسلام والتثاقل والتهرب من كل ما من شانه أن يقود إلى الحرب أو يمت إليها بصلة...

ولذلك أقفل الإمام الحسن (عليه السلام) راجعاً إلى الكوفة بعد أن مكث طويلاً فى انتظار قدوم جموع من أهل الكوفة، وحينما بلغ اليأس حدّه عاد الإمام (عليه السلام) من معسكر النخيلة ودخل المسجد فى الكوفة ثم خطب فى الناس قائلاً: (أما والله ما ثنانا عن قتال أهل الشام ذلةٌ ولا قلة، ولكن كنّا نقاتلهم بالسلامة والصبر، فشيت السلامة بالعداوة، والصبر بالجزع، وكنتم فى مسيركم إلى صفين ودينكم أمام دنياكم، وقد أصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم، وكنا لكم، وكنتم لنا، وقد صرتم اليوم علينا، ثم أصبحتم تصدّون قتيلين، قتيلاً بصفين تبكون عليه، وقتيلاً بالنهروان تطلبون بثأره فأما الباكى فخاذل وأما الطالب فثائر، وإن معاوية قد دعا إلى أمر ليس فيه عز ولا نصفة، فإن أردتم الحياة قبلنا منه وأغضينا على القذى، وإن أردتم الموت بذلناه فى ذات الله، وحاكمناه إلى الله بظبا السيوف).

فنادى القوم بأجمعهم: بل التقية والحياة، أو قيل فناداه الناس من كل جانب: البقية البقية وأمضى الصلح) [۱۷۵].

فقال الإمام (عليه السلام): (يا عجباً من قوم لا حياء لهم ولا دين، ولو سلمت الأمر فأيم الله لا ترون فرجاً أبداً مع بنى أمية، والله ليسومونكم سوء العذاب حتى تتمنوا أنّ عليكم جيشاً ولو وجدت أعواناً ما سلمت له الأمر، لأنّه محرّم على بنى أمية فأف وترحاً يا عبيد الدنيا) [۱۷۶].

ثم كشف الإمام (عليه السلام) فى حديث عن طبيعة المجتمع وموقفه خلال فترة التحول السياسى والاستراتيجى بعد حرب صفين وحتى عهد الإمام الحسن (عليه السلام) يقول الإمام (عليه السلام): (خالفتم أبى حتى حكم وهو كاره، ثم دعاكم إلى قتال أهل الشام بعد التحكيم فأبيتم حتى صار إلى كرامة الله، ثمّ بايعتمونى على أن تسالموا من يسالمنى وتحاربوا من حاربنى وقد أتانى أن أهل الشرف منكم قد أتوا معاوية وبايعوه، فحسبى منكم لا تغرونى من دينى ونفسى. يا أهل العراق: إنما سخى عنكم بنفسى ثلاث: قتلكم أبى وطعنكم إياى، وانتهابكم متاعى) [۱۷۷].

وبطبيعة الحال إن الوضع العام كان فى غاية الخطورة كون المناخ الاجتماعى ظلّ مترديا للغاية... فالجماهير التى كانت من المفترض أن تصبح رأس مال يستثمر فى الضغط على العدو ودرء مؤامراته وأخطاره ـ تتحول هذه الجماهير ـ إلى عامل خسارة، وعنصر ضعف، ومؤشر انهيار فى حساب القوة الإسلامية.. فيكون القرار قرار العدو، وتكون الإرادة الحاكمة هى إرادة المستعمر، وبالتالى يكون الحكم هو حكم الغريب والمحتل!!

من هذا المنطلق نجد أن مثل هذه الأمة لا تنفع لقائد كالإمام الحسن (عليه السلام) والذى لم يوفر لنفسه جهداً أو طريقاً لاستنهاض الهمم وبعث الحميات فى جماهير هذه الأمة إلا وبذلها، ولكن حقيقة الأمر هى أنه (لا رأى لمن لا يطاع)، فماذا يمكن أن يقوم به الإمام (عليه السلام) لجماهير تصر على العمل خلاف مصلحتها، وتسرى فى ركب سياسة ليست تابعة لقافلتها، وتتمسك بعرى قرارات صادرة عن غير قيادتها.. ولذلك فهى الأمة وحدها التى خسرت وستدفع ضريبة موقفها المسالم هذا قسطين من العذاب، أوله العار والذل، وثانية ظلم الحاكم المستبد.

ولقد أخبرهم الإمام الحسن (عليه السلام) عن ذلك من قبل حين قال لهم: (عزرتمونى كما عزرتم من كان قبلى، مع أىّ إمام تقاتلون بعدى، مع الكافر الظالم الذى لا يؤمن بالله ولا برسوله قط، ولا أظهر الإسلام هو وبنو أمية إلا فرقاً من السيف؟ ولو لم يبق لبنى أمية إلا عجوز درداء لبغت دين الله عوجاً، وهكذا قال رسول الله) [۱۷۸].

وبالرغم من أن الإمام (عليه السلام) فى كلمته هذه وغيرها من الخطب والأحاديث يؤكد مراراً وتكراراً على حقه المشروع فى قيادة الأمة، كما يكشف عن طبيعة البيت الأموى وما يدور فى داخله من أطماع توسعية ومخططات للسيطرة والتسلط، إلا أن جماهير الكوفة عميت أبصارها عن معاينة الحق، بعد أن ربضت فى أذهانها فكرة الاستسلام والركوع والانحناء للمستعمر الأموى.. وكيف يحصل على

العزّ من له قابليـة الذلّ؟ وهل تسـرق كرامة من كان هو الحارس عليها؟ أم هل تنتزع إرادة من كان هو الكافل أمرها؟.. ولكن المجتمع الكوفى خرج من ذلك كله، فألقى بكلّه فى حضن معاوية، ولذلك عاش ذليلاً وبقى مهاناً وظل مسـلوب الإرادة، تماماً كالجسد الذى فقـد المناعـة التامة فلا هو قادر على الحفاظ على توازنه ولا هو قادر على توازنه ولا هو قادر على تنمية نفسه أو درء أخطار الهجومات الموجهة إليه من الخارج.

أما الإمام الحسن (عليه السـلام) فقـد وجـد بعد أن انكفأت الأمة عن نصـرته، أن يصبّ اهتمامه على كيفية الحفاظ على بيضة الإسـلام وهكذا حفظ الصفوة والبقية الباقية من أبناء الرسالة لضمان استمرارية الخط الرسالى وتفاعله فى أوساط الأمة وعبر الأجيال لتبقى شعلة الإسلام متقدة وبالتالى الاطمئنان على ديمومة الدين فى مراحل حياة المجتمع المختلفة.

وقد اجتمعت تلك الأسباب والتى مر الحديث عنها فكانت بمثابة عوامل الضغط التى دفعت بالإمام الحسن (عليه السلام) للوقوف أمام الخيار الصـعب والذى اختاره مرغماً وهو خيار الصلح، ليكون المخطط الاستراتيجى بعد (الصلح) ينحى باتجاه الإبقاء على نواة الرسالة والإعداد للمرحلة القادمة.

اتفاقية الهدنة... الشروط والنتائج

اشاره

لم يكن الإمام الحسن (عليه السـلام) فى خيار سوى ترجيـح كفة الحل السـلمى لمشـكلة الأمة، خاصة بعد أن تزاحمت عوامل الضـغط الداخليـة والخارجيـة، والتى اضـطر الإمام (عليه السـلام) للقبول باتفاقيـة الهدنة (الصـلح) بينه وبين معاوية، والتى جاءت بعد محاولات عديدة وجادة أجراها الإمام (عليه السلام) مع جماهير الأمة للوقوف بوجه الهجمة الأموية قبل الوصول إلى هذه المرحلة.

وبعد أن شـعر الإمام (عليه السلام) بخطورة موقف الأمة على مسيرة الحركة الرسالية، وجد (عليه السلام) أن السبيل الوحيد فى الحفاظ على أبناء الحركـة الرسالية هو فى توقيع اتفاقيـة هدنة مع معاوية، وبهذه الاتفاقية يستطيع الإمام (عليه السـلام) أن يحافظ على الميراث الرسالى ليصل إلى الأجيال القادمـة خاصـة وأن الأوضاع الأمنية باتت شـبه مهددة سواء من جانب معاوية وجلاوزته أو من جانب قطاع كبير من جماهير الأمـة... وعليه كان الأمر يتطلب تبريـد الموقف وحينما دخل زيد بن وهب الجهنى على الإمام (عليه السـلام) وما زال ألم الجرح فى فخـذ الإمـام (عليه السـلام) شديـداً فقـال زيـد للإمام (عليه السـلام): (يا ابن رسول الله لقـد اضـطرب الناس وتحيروا فى أمرهم ماذا تقدر لهم).

فأجـابه الإمام (عليه السـلام) قائلًا: (أرى والله أن معاويـة خير لى من هؤلاء، يزعمون أنهم لى شـيعة ابتغوا قتلى، وانتهبوا ثقلى، وأخـذوا مـالى، والله لأن آخـذ من معاويـة عهـداً أحقن به دمى، وآمن به فى أهلى، خير من أن يقتلونى، فيضـيع أهل بيتى والله لو قاتلت معاوية لأخـذوا بعنقى حتى يـدفعونى إليه سـلماً فوالله لأن أسالمه وأنا عزيز، خير من أن يقتلنى وأنا أسـيره، أو يمنّ علىّ فيكون سـبة على بنى هاشم إلى آخر الـدهر، ومعاويـة لا يزال يمنّ بها وعقبها على الحى منا والميت. ثم قال زيد الجهنى: وهل تترك شـيعتك كأغنام غاب عنها رعاتها؟! فقال الإمام (عليه السـلام): ما أصنع يا أخا جهينة؟ وإنى والله أعلم بأمر قد أدى به إلا عن تقاته، إن أمير المؤمنين قال لى ذات يوم وقـد رآنى فرحاً، يا حسن أتفرح؟ كيف بك إذا رأيت أباك قتيلاً؟ أو كيف بك إذا ولىّ هذا الأمر بنو أمية وأميرها الرحب البلعوم، الواسع الأعفاج، يأكل ولا يشبع يموت وليس له فى السـماء ناصر، ولا فى الأرض عاذر، ثم يستولى على غربها وشرقها، تدين له العباد، ويطول ملكه، يسـنّن بسنن البدع والضلال، ويميت الحق وسنّة رسول الله، يقسم المال فى أهل ولايته، ويمنعه من هو أحق به، ويـذلّ فى ملكه المؤمن ويقوّى فى سـلطانه الفـاسق، ويجعل المال بين أنصاره دولاً، ويتخـذ عباد الله خولاً، ويـدرس فى سـلطانه الحق ويظهر الباطـل، ويلعن الصـالحين، ويقتـل من نـاوأه على الحقّ، ويـدين من والاـه على الباطـل فكـذلك حتى يبعث الله رجلاً ـ فى آخر

الزمان، وكلب من الدهر، وجهل من الناس يؤيده الله بملائكته، ويعصم أنصاره، وينصره بآياته، ويظهره على الأرض، حتى يدينوا له طوعاً وكرهاً، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً، ونوراً وبرهاناً، يدين له عرض البلاد وطولها، حتى لا يبقى كافر إلا آمن، وطالح إلا صلح، وتصطلح فى ملكه السباع، وتخرج الأرض نبتها، وتنزل السماء بركتها، وتظهر له الكنوز، يملك ما بين الخافقين أربعين عاماً فطوبى لمن أدرك أيامه وسمع كلامه) [۱۷۹]، [۱۸۰].

وثيقة الهدنة... والإجراء الوقائى:

قبل أن يصادق الإمام الحسن (عليه السلام) على وثيقة الهدنة بينه وبين معاوية، كتب الإمام (عليه السلام) رسالة مقتضبة إلى معاوية يعلن فيها الإمام (عليه السلام) عن موقفه وسبب قدامه على توقيع الهدنة (أما بعد: فإن، خطبى انتهى إلى اليائس، من حقّ أحييته وباطل أمته، وخطبك خطب من انتهى إلى موارده، وإنى اعتزل هذا الأمر وأخلّيه لك، وإن كان تخليتى إيّاه شراً لك فى معادك، ولى شروط أشترطها لأبتهضنّك إن وفيت لى بها بعهد، ولا تخف إن غدرت، وستندم يا معاوية كما ندم غيرك، ممن نهض فى الباطل أو قعد عن الحق حين لم ينفع الندم) [۱۸۱].

وبعد أن وصلت رسالة الإمام (عليه السلام) إلى معاوية، بعث الأخير بورقة بيضاء مختومة إلى الإمام (عليه السلام) حتى يكتب فيها شروطه لتوقيع اتفاقية الهدنة (الصلح) وهذا نص ما كتبه الإمام (عليه السلام): (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما صالح عليه الحسن ابن على بن أبى طالب (عليه السلام) معاوية بن أبى سفيان. صالحه على أن يعمل فيهم بكتاب الله وسنة رسوله وبسيرة الخلفاء الصالحين.

وليس لمعاوية بن أبى سفيان أن يعهد لأحد من بعده عهداً، بل يكون الأمر للحسن من بعده فإن حدث به حدث، فلأخيه الحسين.

وأن يترك سبّ أمير المؤمنين والقنوت عليه بالصلاة، وأن لا يذكر عليّاً إلا بخير.

وأن لا يسمى الحسن (عليه السلام) معاوية أمير المؤمنين، ولا يقيم عنده شهادة. واستثناء ما فى بيت مال الكوفة وهو خمسة آلاف ألف، وعلى معاوية أن يحمل إلى الحسين كل عام ألفى ألف درهم، وأن يفرّق فى أولاد من قتل مع أمير المؤمنين يوم الجمل وأولاد من قتل معه بصفين، ألف ألف درهم، وأن يجعل ذلك من خراج دار ابجرد.

وعلى أن الناس آمنون، حيث كانوا من أرض الله، فى شامهم، وعراقهم، وحجازهم ويمنهم، وأن يؤمّن الأسود، والأحمر، وأن يحتمل معاوية ما يكون من هفواتهم وأن لا يتبع أحداً بما مضى، وأن لا يأخذ أهل العراق بإحنة.

وعلى أمان أصحاب على حيث كانوا، وأن لا ينال أحداً من شيعة على بمكروه، وأن أصحاب على وشيعته آمنون على أنفسهم، وأموالهم، ونسائهم وأولادهم. وأن لا يتعقب عليهم شيئاً، وأن لا يتعرض لأحد منهم بسوء، ويوصل إلى كلّ ذى حق حقه.

وعلى أن لا يبغى للحسن بن على، ولا لأخيه الحسين، ولا لأحد من أهل بيت رسول الله عائلة سراً ولا جهراً، ولا يخيف أحداً منهم فى أفق من الآفاق. وعلى معاوية بن أبى سفيان بذلك عهد الله، وميثاقه، وما أخذ الله على أحد من خلقه بالوفاء بما أعطى من نفسه. شهد عليه بذلك الله وكفى بالله شهيداً والسلام) [۱۸۲].

قبل أن نأتى على الحديث عن الظروف الموضوعية التى دفعت الإمام الحسن (عليه السلام) فى توقيع اتفاقية الهدنة مع معاوية وهدف الإمام (عليه السلام) من وراء هذه الاتفاقية نتوقف مع شروط الإمام (عليه السلام) للتعرف على المعانى الحقيقية منها.

اضواء على شروط الإمام الحسن

اشاره

فى نظرة فاحصة للوثيقة التى كتبها الإمام الحسن (عليه السلام) وفرض الشروط الكفيلة بتوقيع اتفاقية الهدنة مع معاوية، نجد أن الإمام (عليه السلام) قد أعدّ فى هذه الوثيقة برنامجاً متكاملاً لمعاوية فى إدارة الدولة الإسلامية وقد تناول هذا البرنامج الأصعدة التالية:

ادارة الدولة

أ. أن يلتزم معاوية فى إدارة الدولة الإسلامية بمقررات الدستور الإسلامى المستنبط من كتاب الله وسنّة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وسيرة الخلفاء الصالحين.

ب. أن لا يقوم معاوية بتعيين نواب عنه فى استلام منصب الرئاسة للدولة الإسلامية بل إن الإمام الحسن (عليه السلام) هو صاحب الحق فى ذلك فى حال موت معاوية، فإذا حدث للإمام الحسن (عليه السلام) حادث، ينتقل هذا الحق للإمام الحسين (عليه السلام) وليس لمعاوية أن يوصى لأحد من بعده.

ادارة الشؤون المالية

أ. أن يرفع معاوية يده عن بيت مال الكوفة، بمعنى أن تناط مسؤولية إدارة الشؤون المالية برجال خارج البيت الأموى.

ب. إقرار مليونان درهم من ميزانية الدولة الإسلامية، ليقوم الإمام الحسين (عليه السلام) بتوزيعها بين المسلمين.

ج. تخصيص ميزانية مالية لعوائل شهداء حربى الجمل وصفين بمقدار مليون درهم بحيث تكون هذه الميزانية من خراج دار ابجرد.

وأراد الإمام الحسن (عليه السلام) من ذلك أمرين هما:

أولاً: للحيلولة دون اعتماد معاوية السياسة الاقتصادية التى سار عليها الخليفة عثمان فى عهده حينما ضاعف العطاء وأفرط فى التوزيع لبنى العاص ممّا سبب فى نمو طبقة برجوازية فيما عاش قطاع كبير من المسلمين الفقر المدقع.

ولذلك أراد الإمام الحسن (عليه السلام) فى هذا الشرط أن يمنع معاوية من اعتماد ذات السياسة.

ثانياً: أن يمنع معاوية من استخدام موقعه وقوته فى الأخذ بالثارات الجاهلية ضد أبناء الحركات الرسالية الذين وقفوا بصمود وثبات مع قائد المسلمين وأمير المؤمنين على (عليه السلام) فى الجمل وصفين، ممّا يجعل معاوية يفكر فى الانتقام منهم بعد الوصول إلى السلطة.

سياسة الأمن فى الدولة

أ. استخدام مبدأ الأمن والسلام مع كل أبناء الأمة الإسلامية وفى جميع الأقطار، العراق، الشام، الحجاز، اليمن، ومع مختلف الألوان، الأسود والأحمر... فالناس جميعاً سواء فى العيش بأمن وسلام.

ب. الكف عن استخدام سياسة البطش والتنكيل مع الشعب، وعدم إنزال العقوبات بشتى صورها ضد أفراد الشعب.

سياسة الدولة مع المعارضة

أ. أن لا يسلط معاوية سيف الدولة على رقاب القوى المعارضة له، خاصة تلك القوى التى وقفت أمام معاوية عندما كان يقود حركة التمرد ضد الدولة الإسلامية فى عهد أمير المؤمنين (عليه السلام) وبداية عهد الإمام الحسن (عليه السلام)، والتى كانت تتخذ هذه القوى من العراق مركزاً لها وقاعدة لانطلاقها.

ب. أن يكف معاوية عن استخدام سياسة الإرهاب السياسى والإعلامى والاقتصادى وغيره ضد طليعة الإمام أمير المؤمنين على (عليه السلام) وأهل بيته (عليهم السلام) وبأن لا يلاحقهم أو يتعقبهم، بل يكونوا فى أمن من تنكيل النظام وبطشه.

ج. اعتماد مبدأ المساواة فى التوزيع بين أفراد الشعب والقوى المعارضة للنظام وأن لا يستغل معاوية موقفه المعادى للمعارضة فى فرض عقوبات اقتصادية عليها.

تعامل الدولة مع قادة التحرك

أ. أن لا يتعرض معاوية بسوء لقادة الحركة الرسالية وتحديداً الإمام الحسن (عليه السلام) وأخيه الإمام الحسين (عليه السلام) وهكذا أهل بيت الرسالة (عليه السلام).

ب. أن لا يحاول معاوية تنفيذ عمليات الاغتيال السرية أو العلنية ضد قيادات التحرك الرسالى، أو أن يستخدم معاوية سياسة إرهابية ضدهم.

ج. أن ينتهى معاوية من استعمال وسائل التضليل الإعلامى للنيل من قادة الحركة الرسالية وأن يكف معاوية عن سب أمير المؤمنين (عليه السلام)، وأن لا يجعل منبر الدولة وسيلة إعلامية لتصفية الحسابات الجاهلية مع الحركة الرسالية وقياداتها.

هذه كانت بعض الأضواء على وثيقة شروط الإمام الحسن (عليه السلام) لإبرام اتفاقية الهدنة مع معاوية قبيل عقد اللقاء بين الإمام (عليه السلام) ومعاوية فى العاصمة الكوفة.

والملاحظ فى شروط الإمام الحسن (عليه السلام) أنها لم تتضمن أى إشارة على تسليم الأمر لمعاوية، بل كانت هذه الشروط ـ فى الواقع ـ برنامجاً منظماً يعرضه الإمام (عليه السلام) لمعاوية فى كيفية إدارة الدولة.

وهنا نقطة فى غاية الأهمية وهى أن الإمام الحسن (عليه السلام) يؤكد فى هذه الوثيقة على أن الصلح مع معاوية يرتبط بتطبيق الشروط المكتوبة فى الوثيقة فإذا انتفى الالتزام بالشروط فإن الصلح بالضرورة ينتفى.

وهنا نقول أن الإمام الحسن (عليه السلام) قد كان على علم مسبق بأن معاوية ليس الشخص الذى يقبل بتطبيق هذه الشروط أو الالتزام بها، كيف به وهو يحمل منهجية التفكير الجاهلى الأموى القائم على أساس التسلط وفرض الهيمنة واستعمال الخدع والمكر وباقى القيم الجاهلية.

ويأتى السؤال: إذن لماذا قام الإمام الحسن (عليه السلام) بكتابة وثيقة الشروط طالما أنه (عليه السلام) يعلم بأنّ معاوية لن يقدم على تطبيقها؟

وللجواب على ذلك نقول:

أولاً: أن الظروف التى اكتنفت فترة الإعداد لتوقيع اتفاقية الهدنة كانت مساعدة فى أن يكتب الإمام (عليه السلام) شروطه فيها وأهمها أمرين: الأول: أن معاوية هو الذى طالب بالهدنة ووعد الإمام (عليه السلام) بتسليم الخلافة من بعده وقد طلب من الإمام (عليه السلام) أن يكتب شروطه الموافقة على توقيع اتفاقية الهدنة بينه وبين معاوية.

وقد عرفنا سلفاً أن معاوية بعث ورقة بيضاء مختومة بمهره، إلى الإمام (عليه السلام) ليكتب فيها شروط إجراء الهدنة.

وإن هذا الأمر ساعد الإمام (عليه السلام) فى أن يملى شروطه وبحرية تامة، والتركيز فى هذه الشروط على أهم المواضيع الأساسية المرتبطة بمصير التحرك الرسالى وقياداته. ونقطة القوة هنا أن شروط الإمام الحسن (عليه السلام) لم تكن ذات مطالب جزئية أو بسيطة بل كانت تمس الجوانب الرئيسية من أصل الصراع، وأبرزها إدارة الدولة على مختلف الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية... ورد غيرها.

إذن هذه الشروط تعبر عن المطالب الرئيسية والمباشرة لحركته الرسالية فى صراعها مع النظام الحاكم وإنّ عدم التزام النظام بتنفيذ هذه المطالبة يعنى استمرار حالة الصراع بطريقة أو بأخرى وهذه الشروط تكشف عن مسألة كبيرة وهى أن النظام الحاكم غير مؤهل لقيادة الجماهير وبالتالى يفتقر إلى الشرعية فى وجوده.

الثانى: أن جمعاً غفيراً من المسلمين بمختلف فرقهم وقبائلهم وكبار الشخصيات الدينية والاجتماعية، وبل وحتى أبناء الديانات الأخرى، ستشهد ذلك اليوم الذى سيتم فيه توقيع اتفاقية الهدنة بين الإمام (عليه السلام) ومعاوية.

وعليه فإن الإمام (عليه السلام) يجد فرصة فى هذا المحفل البشرى الكبير لأن يلقى بحجته على معاوية وأن يلزمه بكل البنود التى جاء

ذكرها فى وثيقة الهدنة والتى هذه تحمل ختم معاوية...

وفى حال مخالفة معاوية لبنود الاتفاقية يعنى كشف القناع عن الوجه القبيح لمعاوية وسياسته.. ومع أن معاوية يخالف هذه البنود ـ كما سنجد فيما بعد ـ إلا أنه لن يتجرأ على استخدام القمع والتنكيل ضد شيعة أهل البيت (عليهم السلام) فى ظل وجود الإمام الحسن (عليه السلام) على قيد الحياة.

وقفة مع رواية الصلح الشبهة والرد

إننا بحاجة إلى أن نتوقف حول ما أثير بالنسبة إلى مسألة الهدنة أو (الصلح) كون أنها أحيطت بملابسات كثيرة... ممّا يدفع ذلك إلى تدقيق النظر فى هذه المسألة، خاصة وقد لوحظ أن العديد من الكتب التى تناولت تاريخ الإمام الحسن (عليه السلام) قد جمدت عند الحديث عن ما أسمته بـ(معاهدة الصلح)، أو خصصت بعض هذه الكتب جانباً كبيراً من البحث حول الصلح وأسبابه ونتائجه، هذا فى حين أن بعضاً آخر من الكتب قد اختار الصلح كعنوان لها ممّا عكس ذلك أثراً سلبياً فى ذهنية القارئ بحيث أوصلته إلى فكرة باطلة وهى أن الإمام الحسن رجل الصلح والدعة والجمود ـ وحاشاه ذلك ـ فى وقت كان حرى بهؤلاء الكتّاب أن يدرسوا بموضوعية الظروف التى مرت بها الأمة الإسلامية وانعكاسات ذلك على الفترات المتقدمة من تاريخ الدولة الإسلامية ثم ما هى ظروف عهد الإمام الحسن (عليه السلام)؟ وكيف انتهى الأمر بصعود معاوية وما هى طبيعة الاتفاقية التى أجراها معاوية والإمام الحسن (عليه السلام)؟ وما هو هدف الإمام (عليه السلام) من وراء تلك الاتفاقية إلى غير ذلك من التساؤلات..؟ ولعل الدافع الرئيسى فى تركيز الكتّاب والمحلّلين التاريخيين والباحثين، على مسألة (الصلح) بحيث جهد هؤلاء فى إيراد وحشد اكبر قدر من الأخبار والنصوص التاريخية والتى نقلوها مباشرة دونما تمحيص أو تدقيق إلى أوراق البحث.. وإنما ذلك يرجع إلى وقوع البعض فى شرك أحد هذين المحذورين هما:

الأول: المصادر التاريخية:

فمن خلال مطالعة الغالبية العظمى من المصادر التاريخية التى تناولت حياة الإمام الحسن (عليه السلام) نجد أن هذه المصادر قد وقفت طويلاً عند أحداث ووقائع اتفاقية الهدنة أو ما أسموها بـ(الصلح) فى حين اكتفت هذه المصادر بالمرور الخاطف على الأحداث التى سبقت هذه الاتفاقية. ولم تنته عند هذا الحد بل حاولت تضخيم مسألة (الصلح) عبر رصد وتسجيل جميع النصوص المتعلقة بهذا الأمر.

أما البعض الآخر من المصادر التاريخية فقد اختصرت الحديث حول تاريخ الإمام الحسن (عليه السلام) فى قضية (الصلح) واعتبرته الحادثة الكبرى فى حياة الإمام (عليه السلام)، دونما الحديث عن خلفية هذه القضية وجذورها وأصولها الحقيقية.

والمشكلة هنا أن حركة تدفق النصوص والأخبار نشطت وراجت بين المصادر التاريخية. وكما هو معروف أن مهمة هذه المصادر هى نقل كافة النصوص المعلقة بالقضية المطروحة دونما النظر فى صحة أو سقم هذا الخبر أو ذاك فاختلط الحابل بالنابل...

... فأصبح قسم كبير من النصوص التاريخية يتردد بين التضارب والتناقض بين النصوص بعضها مع البعض الآخر، وأن هذه النصوص جاءت متناثرة ومشتتة بين ثنايا المصادر التاريخية.

وهنا يأتى دور الباحث والكاتب والمحلل فى كيفية انتقاء الجيد من الردىء بين كومة النصوص التاريخية وليس هذا فحسب، بل عليه أيضاً إيجاد عامل الربط الموضوعى بينها.

وهذه العملية قد تكون صعبة كونها تتطلب بذل جهود وطاقات كبيرة، كما تستوجب المزيد من البحث والتنقيب فى مصادر التاريخ وكتب السيرة، إضافة إلى التدقيق فى متونها، إلا أن هذه العملية هى الطريقة السليمة والصحيحة فى سبيل إعطاء نتائج ورؤى أكثر واقعية وأبلغ مصداقية إلى غير ذلك..

الثانى: رواج الروايات المختلفة والموضوعة حول مسألة (الصلح) بحيث أنها شغلت حيزاً خطيراً فى كتابات المؤرخين، حتى لا نكاد

نجد كتاباً تاريخياً تناول حياة الإمام الحسن (عليه السلام) إلا وأورد واحدة من تلك الروايات الموضوعة.

ولعل أشهر هذه الروايات، هى الرواية المنقولة ـ كذباً وزوراً ـ عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) حول الإمام الحسن (عليه السلام) (إن ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين عظيمتين).

بحيث أن الكثير من الكتّاب والباحثين اعتمدوا هذه الرواية لتدليل على مسألة (الصلح) بين الإمام الحسن (عليه السلام) ومعاوية، بل إن بعض الكتّاب المعروفين اعتبروا هذه الرواية من العوامل الأساسية التى دفعت الإمام الحسن (عليه السلام) لتوقيع ما أسموه بـ(الصلح).

وإذا كنا نقبل عذراً من هؤلاء الكتّاب فى مسالة التحقيق فى متون المصادر التاريخية ونصوصها، فإنا نرفض عذر إهمال هؤلاء مسألة التدقيق فى صحّة الرواية لأنه أمر ضرورى ولازم.

وإلا ـ فكيف يمكن إيراد النتائج دونما تحقيق فى المقدمات وكيف نتلقف الروايات ونرمى بها فى أبحاثنا وكتاباتنا دونما تدقيق فى اصل الرواية وسندها أو دونما إرجاع هذه الرواية إلى مصادر التشريع الأربعة الكتاب والسنة والإجماع والعقل، ثم نقوم بإصدار حكم واقعى من هذه الرواية ثم اعتبار ذلك من المسلمات.

ونحن هنا إذ نتوقف على أساس التحقيق فى سند ومتن هذه الرواية، لإثبات وضعية ما جاء فيها من خلال التالى:

أولاً: رواة التزوير والوضع:

فقد نشطت فى عهد معاوية حركة التزوير بصورة بالغة حيث تزايد عدد الرواة الوضّاعين والمفترين وذلك بهدف التغطية على فضائل أهل البيت (عليهم السلام)، وقد تركزت هذه الروايات الموضوعة فى مدح معاوية ومن لف لفّه، ومن جهة أخرى النيل والقدح فى أهل بيت النبوة (عليهم السلام). ونظرة سريعة على رواة الحديث ـ وخاصة رواية الصلح ـ نجد أن الكثير من هؤلاء قد أجمع المؤرخون على كذبهم وتزويرهم ـ كما سيأتى الحديث فيما بعد ـ وقد وجدت فى كتاب تاريخ ابن عساكر فى ترجمة الإمام الحسن (عليه السلام) خير مثال للتدليل على حقيقة هؤلاء الرواة كون هذا الرجل قد أورد أسماء رجال السند لهذه الرواية ونحن إذ نورد أقوال بعض المحققين فى سند هؤلاء الرواة:

أنبأنا أبو الحسن الحربى أنبأنا أبو بكر محمد بن هارون بن حميد بن المحدر، أنبأنا محمد بن حميد، أنبأنا عبد الرحمن بن مغراء، عن الأعمش، عن أبى سفيان الواسطى عن جابر وساق الحديث.

وأبو بكر محمد بن هارون يقول عنه السيد محسن الأمينى (ناصبى منحرف)، وكان يعرف بالأغراب عن أمير المؤمنين (عليه السلام) [۱۸۳].

وأخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أسعد: أبو أحمد الصوفى أنبأنا أبو الفضل محمد بن عبد الله بن محمد الصرّام أنبأنا أبو عمر محمد بن الحسين البسطافى، أنبأنا أبو بكر ابن عبد الرحمن الجارود الرقى، أنبأنا يونس بن عبد الأعلى وعلى أحمد بن حرب قالوا حدثنا سفيان أنبأنا موسى قال سمعت الحسن يتحدث عن أبى بكرة قال، (الحديث).

أحمد بن عبد الرحمن: اتفق كل من صاحب كتاب تاريخ البغدادى جزء ۱، ص۲۴۷، وصاحب كتاب ميزان الاعتدال جزء ۱، ص۵۵، وصاحب كتاب اللئالى المصنوعة جزء ۱، ص۱۷۲: على أنه (كذّاب وضّاع).

... أنبأنا عمرو بن هشام، أنبأنا محمد بن سلمة عن ابن إسحاق عن عمرو بن عبيد، عن الحسن، عن أبى بكرة (الحديث).

وعمرو بن عبيد: هو أبو عثمان المعتزلى البصرى المتوفى ۱۴۴، كان من الكذابين الآثمين مبتدعاً ولا كرامة له.

وقد ذكر ذلك أو شبهه البغدادى فى تاريخه جزء ۲، ص۱۸۲، وصاحب كتاب نصب الراية جزء ۱، ص۴۹، والغدير جزء ۵، ص۲۴۹.

۴ـ فى صفحة ۱۳۱ ذكر ابن عساكر وأخبرنا أبو عبد الله الغراوى أنبأنا أبو بكر البيهقى أنبأنا أبو عبد الله الحافظ أنبأنا أبو بكر البيهقى أنبأنا أبو عبد الله الحافظ أنبأنا أبو القاسم على بن المؤمل الماسر جرسى، أنبأنا محمد بن يونس القرشى أنبأنا محمد بن عبد الله الأنصارى أنبأنا أشعث بن عبد الملك عن الحسن عن أبى بكرة: الحديث).

محمد بن يونس الكريمى القرشى أحد الحفّاظ الأعلام بالبصرة المتوفى ۲۸۶هـ كذّاب يضع الحديث. عن النبى (صلّى الله عليه وآله) وعلى الثقات. قال ابن حبّان: قد وضع اكثر من ألف حديث.

ورد ذلك فى كل من تاريخ بغداد جزء۳، ص۴۴۱، وتذكرة الموضوعات ص۱۴، ۱۸، وشذرات الذهب للمكى جزء۲، ص۱۹۴، وميزان الاعتدال للذهبى جزء۳، ص۱۵۲، واللئالى المصنوعة للسيوطى جزء ۲، ص۱۴۲، وص۲۱۵، وطبقات الحفّاظ للذهبى جزء۲، ص۱۷۵.

۵ـ وفى صفحة ۲۱۲ أورد ابن عساكر أنه... أنبأنا أبو أيوب صاحب البصرى أنبأنا حمّاد بن زيد، عن على بن يزيد، وهاشم، عن الحسن، عن أبى بكرة قال: وساق الحديث.

على بن زيد: قال عنه ابن حبّان يروى الموضوعات عن الإثبات فإذا روى عن على بن يزيد أتى بالطّامات، وأضاف وإذا اجتمع فى إسناد خبر عبد الله بن زحر وعلى بن يزيد والقاسم بن عبد الرحمن لم يكن متن الخبر إلا ما عملته أيديهم من كتاب تهذيب التهذيب جزء ۷، ص۱۳.

وقال الأمينى فى الغدير جزء ۷، ص۲۸۷ ممّا اجتمع فيه هؤلاء الثلاثة فهو ممّا عملته أيديهم).

وهشام: هو هشام بن عمّار أبو اليد السلمى فقيه دمشق وخطيبها ومحدثها، قال أبو داوود: حدث بأربعمائة حديث لا أصل له. عن كتاب شذرات الذهب للمكى، جزء۲، ص۱۱۰.

وهناك عدد من رجال السند المرتبطين بالبيت الأموى أمثال يحيى بن سعد الأموى وعبد الله بن الحسن بن أحمد الأموى ويونس وأمثال هؤلاء الذين مارسوا الوضع فى مدح معاوية وزوّروا الروايات البعيدة عن العقل والمنطق فى تلميع آل سفيان وآل العاص وغيرهم.

إما عن اصل الرواية، ونحن إذ نعتقد بوضعيتها ولنا فى ذلك ثلاث أمور:

أولاً: من سياق الحديث نفهم على أن الإمام الحسن (عليه السلام)، وكأنه اليد المباشرة فى إدارة دفّة الصلح وصاحب المبادرة فى تنفيذه، بينما نعلم تعييناً ومن خلال الوقائع التاريخية التى حصلت فى عهد الإمام (عليه السلام) والنزاع الدار مع معاوية أن الإمام (عليه السلام) اضطر إلى القبول بالحل السلمى بعد أن استنفذ كافة الحلول الأخرى فى ردع العدوان الأموى على الدولة الإسلامية والذى جاء نتيجة انهيار القدرة العسكرية فى جيش الإمام الحسن (عليه السلام) وتتابع حالات الهزيمة والانفراط فى قطاعات الجيش كلما اقتربت مرحلة الحرب من ساعة الصفر حتى أصبح الإمام (عليه السلام) غير قادر على حشد عترة رسول الله (صلّى الله عليه وآله)، وكما ورد قوله فوالذى فلق الحبة وبرأ النسمة وتردى بالعظمة لئن قام إلىّ منكم عصبة بقلوب صافية ونيّات مخلصة لا يكون فيها شوب نفاق ولا نيّة افتراق لأجاهدنّ بالسيف قدماً قدماً ولأضيقنّ من السيوف جوانبها ومن الرماح أطرافها ومن الخيل سنابكها... ثم يقول الإمام الصادق (عليه السلام): فلم يجبه سوى عشرون رجلاً قاموا فقالوا له: يا ابن رسول الله ما نملك إلا أنفسنا وسيوفنا فها نحن بين يديك لأمرك طائعون وعن رأيك صادرون فمرنا ما شئت! فقال الإمام الحسن (عليه السلام): فنظرت يمنة ويسرة فلم أر أحداً غيرهم.

فقلت: لى أسوة بجدّى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) حين عبد الله سرّاً وهو يومئذٍ فى تسعة وثلاثين رجلاً فلما أكلم الله له الأربعين صار فى عدة وأظهر أمر الله فلو كان معى عدتهم جاهدت فى الله حق جهاده.

إذن لم يكن الإمام الحسن (عليه السلام) مختاراً لهذا الصلح بل كان صلحاً مفروضاً بعد أن تصدعت إرادة الأمة ثم انهارت وابتعدت عن ساحة الصراع والمواجهة.

ومن جهة ثانية إن الحديث يشير إلى أن الإمام الحسن (عليه السلام) يصلح بين فئتين وكأنه (عليه السلام) خارج دائرة الصراع أو أن الأهداف التى من أجلها وقع النزال ليست موضع اهتمام الحسن (عليه السلام) ولا ترتبط به بصورة مباشرة، وهذا نوع من التهميش لحقيقة الصراع!!

ثانياً: أن الحديث ذكر بأن الإمام الحسن (عليه السلام) يصلح بين فئتين عظيمتين. ولا ندرى أين موارد العظمة فى هاتين الفئتين فإن كان بالحجم فقد ذكر الإمام الحسن (عليه السلام) فيما سبق أنه لم يتمكن من حشد سوى عشرين رجلاً، إضافة إلى انسحاب الآلاف من جبهات الحق وتوجهت نحو جبهة معاوية.

علاوة على ذلك، إن فى حال إبرام معاهدة الصلح ـ كما يذكر الحديث ـ لم تكن هناك بالفعل فئتان عظيمتان بل إن الدافع الرئيسى لإبرام الصلح أن فئة الإمام الحسن (عليه السلام) كانت ضعيفة وقليلة للغاية حتى أنه لم يحصل على النصاب والعدة التى ذكرها الإمام (عليه السلام) وهى أربعون رجلاً.

أما إذا كان مورد العظمة على أساس المنزلة فلا أعلم بأن المصادر التاريخية أشارت إلى مورد واحد يدلّ على عظمة فئة معاوية بل على العكس من ذلك كانت موضع الإنكار واللعنة والثبور والأدلة على ذلك مستفيضة منها:

قوله (صلّى الله عليه وآله) لعمّار بن ياسر (تقتلك الفئة الباغية).

وقوله (صلّى الله عليه وآله) له أيضاً: (إن عماراً مع الحق والحق معه، يدور عمار مع الحق كما دار، وقاتل عمار فى النار) [۱۸۴] .

ويقول ابن حجر فى تفسير حديث الرسول (صلّى الله عليه وآله) لعمّار بن ياسر (فهذا إخبار من الصادق الصدوق أن معاوية باغ على علىّ، وإن علياً هو الخليفة الحق) [۱۸۵] .

ويقول ابن حجر فى تفسير حديث الرسول (صلّى الله عليه وآله) لعمّار بن ياسر (فهذا إخبار من الصادق الصدوق أن معاوية باغ على علىّ، وإن علياً هو الخليفة الحق) [۱۸۶] .

ويقول ابن حجر: قوله (صلّى الله عليه وآله): (إنه يدعوهم إلى الجنة وهم يدعونه إلى النار)، بالضرورة أن الذى دعاهم عمار إلى ذلك هم فئة معاوية. فحكمه (صلّى الله عليه وآله): بأنهم يدعونه إلى النار صريح فى أنهم على ضلال) [۱۸۷] .

فكيف يصح إطلاق العظمة على فئة معاوية وهى التى قتلت عماراً وحجراً بن عدى وأصحابه ومالك الأشتر ومحمد بن أبى بكر وثلة من خالص أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام)!!

ثالثاً: من خلال استعراض الوقائع التاريخية منذ فتح مكة وحتى توقيع اتفاقية الصلح نجد أن بنى أمية كانوا يكيدون للإسلام وأهله وإنما رفعوا شعار الإسلام رهبة وتضليلاً فى سبيل تحقيق مطامع الجاهلية، وقد لعن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أبا سفيان وابنيه عتبة ومعاوية فى حادثة الناقة، ولمّا تولى معاوية ولاية الشام فى عهد الخليفة عمر اقتطعها لنفسه ولم تدن لحظة واحدة للدولة الإسلامية بل أصبحت الشام مملكة أموية ولما وصل عثمان بن عفان إلى الخلافة عقد أبو سفيان اجتماعاً سرياً ضمّ أفراد قبيلة بنى أمية فى دار الخليفة عثمان فقال أبو سفيان: تلقفوها يا بنى أمية تلقف الكرة فوالذى يحلف به أبو سفيان لا من جنّة ولا نار ولما عاد الحق إلى نصابه ورجعت الخلافة إلى أمير المؤمنين على (عليه السلام) بدأت المؤامرات تعتمل فى نفس معاوية وكان لا يزال والياً على الشام فنشبت الحروب ضد حكومة العدل الإلهى وأشدّ هذه الحروب فتكاً بالمسلمين كانت حرب صفين كما مر ذكر بعض منها.

فنخلص ممّا سبق أن فئة معاوية التى كفرت بالولاية وشنّت الحرب على الإمام على (عليه السلام) والإمام الحسن (عليه السلام) ولم تدن قط للدولة الإسلامية ليست هى الفئة المسلمة كما يذكر الحديث علاوة على ذلك أن الصلح الذى تمّ فى عهد الإمام الحسن (عليه السلام) انتهى إلى تسلم معاوية الخلافة منتزعاً الولاية الشرعية من الإمام الحق الذى نصّبه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) من قبل البارى عز وجل فكيف يصلح الإمام الحسن (عليه السلام) بين فئتين من المسلمين على أمر ليس لأحد سوى الله الحق فى إقراره، فلم يجعل سبحانه وتعالى لأحد من بعده وحتى أشرف رسله وأعز خلقه محمد (صلّى الله عليه وآله) الحق فى تغييره أو المساومة عليه كيف به وقد جعل هذا الأمر مرتبطاً بمصير الرسالة الإسلامية وبكمال الدين.

وهو أمر أراد منه رواة هذا الحديث تهميشه حتى وكأن القارئ لهذا الحديث يعتقد بأن موضع النزاع كان بسيطاً وهيناً كنزاع بين أسرتين على قطعة أرض فيقوم الإمام الحسن (عليه السلام) بتسوية الخلافات هذه وإنهاء الحرب بين الطرفين: كلّا فالأمر ليس كذلك

مطلقاً بل هو المعيار الأول والأخير فى الإيمان برسالة محمد (صلّى الله عليه وآله) ولن يكون المرء مسلماً حتى يقرّ بولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) والأئمة من بعده.

والآن نرجع إلى ما سبق الحديث عنه حول مجريات أحداث اتفاقية الهدنة، فبعد أن سجّل الإمام (عليه السلام) شروطه فى الوثيقة التى بعثها معاوية مع عبد الله بن عامر بعد أن ختمها بمهره وأرسلها إلى الإمام (عليه السلام) قام الإمام بعد ذلك بإرسال وثيقة الشروط إلى معاوية فكتب معاوية جميع ذلك بخطه، وختمه بخاتمه، وبذل عليه العهود المؤكدة، والأيمان المغلظة، وأشهد على ذلك جميع رؤساء أهل الشام ووجه به إلى عبد الله فأوصله إلى الحسن [۱۸۸] .

وفى طريقه إلى الكوفة لإبرام اتفاقية الهدنة، سار معاوية من الشام حتى نزل النخيلة (معسكر الكوفة) وكان ذلك اليوم جمعة، فخطب فى الناس قائلاً: (ما اختلفت أمة بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها.

فتوقف معاوية قليلاً وشعر بخطورة ما قاله وكأنما كشف عن حقيقة مخططه فاستدرك قائلاً: (إلا هذه الأمة فإنها.. وإنها.. الخ، فاختلط عليه الأمر فلم يع ما يقول، فعاود الحديث سريعاً لاستدراك الموقف فقال: (إنى والله ما قاتلتكم لتصلّوا ولا لتصوموا، ولا لتحجوا، ولا لتزكوا، إنكم لتفعلون ذلك ولكنى قاتلتكم لأتأمر عليكم، وقد أعطانى الله ذلك وأنتم كارهون.

ألا وإنى كنت منيت الحسن وأعطيته أشياء وجميعها تحت قدمى لا أفى بشىء منها وذكر المدائنى أن معاوية قال: (... إن كل مال أو دم أصيب فى هذه الفتنة لمطلول وكل شرط أشرطته فتحت قدمى هاتين ولا يصلح للناس إلا ثلاث: إخراج العطاء عند محله، وإقفال الجنود لوقتها، وغزو العدو فى داره، فإن لم تغزوهم غزوكم) [۱۸۹] .

وبذلك أعلن معاوية فى هذه الخطبة عن خيانته لكل الوعود والأيمان المغلظة والمواثيق والعهود التى أخذها على نفسه بالالتزام بكل شروط اتفاقية الهدنة.

وهذه كانت بداية افتضاح أمر معاوية لدى الرأى العالم الإسلامى ـ آنذاك ـ وقد سجلت هذه المبادرة الخيانة من معاوية، نقطة قوة لصالح الحركة الرسالية وقيادتها المتمثلة فى الإمام الحسن (عليه السلام).

حيث أن هذه النقطة يمكن الاستفادة منها فى تعرية نظام معاوية وتوظيفها فى حركة التغيير.

وعندما وصل معاوية إلى الكوفة، وفى اليوم المقرر احتشد الناس من كل مكان ليشهدوا توقيع اتفاقية الهدنة، وقد شكل المحفل الجماهيرى ـ يومئذ ـ ورقة ضغط على معاوية للالتزام ببنود اتفاقية الهدنة إلا أن الحركة الرسالية والإمام الحسن (عليه السلام) كان يعلم بأن معاوية لن يلتزم بالشروط فيما بعد.

فبعد أيام من توقيع اتفاقية الهدنة جاء معاوية إلى المسجد فى الكوفة وصعد المنبر ثم نال من الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) كما نال من الإمام الحسن (عليه السلام)، وكان الحسن (عليه السلام) والحسين (عليه السلام) حاضرين فى المسجد فقام الحسين (عليه السلام) ليرد على معاوية فأخذ الحسن (عليه السلام) بيد أخيه الحسين (عليه السلام) وأجلسه ثم قام الإمام الحسن (عليه السلام) فقال لمعاوية! (أيها الذاكر علياً أنا الحسن وأبى علىّ، وأنت معاوية وأبوك صخر، وأمى فاطمة وأمك هند، وجدى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وجدك حرب، وجدتى خديجة وجدتك فتيلة فلعن الله أخملنا ذكراً وألأمنا حسباً، وشرنا قدماً، وأقدمنا كفراً ونفاقاً. فقال طوائف من أهل المسجد آمين... آمين) [۱۹۰] .

ثم طلب معاوية من الإمام (عليه السلام) أن يصعد المنبر ويخبر الناس بأنه رأى معاوية أهلاً للخلافة دونه فصعد الإمام (عليه السلام) المنبر وخطب فى الناس وقال: (الحمد لله كلما حمده حامد، وأشهد أن لا إله إلا الله كلما شهد له شاهد وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى، وائتمنه على الوحى (صلّى الله عليه وآله)).

(أيها الناس: إن الله هداكم بأوّلنا، وأحقن دماءكم بآخرنا، وإن لهذا الأمر مدة، والدنيا دول، قال عز وجل لنبيه محمد (صلّى الله عليه وآله): (فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ) [۱۹۱] ، (وَإِنْ أَدْرِى

لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) [۱۹۲].

أيها الناس: إنّ معاوية زعم أنى رأيته للخلافة أهلاً، ولم أر نفسى لها أهلاً، فكذب معاوية، نحن أولى الناس بالناس فى كتاب الله عزّ وجلّ وعلى لسان نبيه، ولم نزل ـ أهل البيت ـ مظلومين منذ قبض الله نبيه، فالله بيننا وبين من ظلمنا، وتوثّب على رقابنا، وحمل الناس علينا، ومنعنا سهمنا من الفيء ومنع أمّنا ما جعل إليها رسول الله (صلّى الله عليه وآله)، وأقسم بالله لو أن الناس بايعوا أبى حين فارقهم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لأعطتهم السماء قطرها، والأرض بركتها، ولما طمعت فيها ـ يا معاوية ـ فلما خرجت من معدنها وتنازعت قريش بينها، فطمع فيها الطلقاء، وأبناء الطلقاء، وأنت وأصحابك، وقد قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله): (ما ولّت أمة أمرها رجلاً وفيهم من هو أعلم منه، إلا لم يزل أمرهم يذهب سفالاً، حتى يرجعوا إلى ما تركوا) فقد ترك بنو إسرائيل، هارون وهم يعلمون أنه خليفة موسى فيهم، واتبعوا السامرى وتركت هذه الأمة أبى وبايعوا غيره، وقد سمعوا رسول الله يقول (أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا النبوة). وقد رأوا رسول الله نصّب أبى يوم غدير خم، وأمرهم أن يبلّغ أمره الشاهد الغائب. وهرب رسول الله من قومه وهو يدعوهم إلى الله حتى دخل الغار ولو أنه وجد أعواناً لما هرب، وقد كفّ أبى يده حين ناشدهم، واستغاث فلم يغث فجعل الله هارون فى سعة حين استضعفوه وكادوا يقتلونه، وجعل الله النبى فى سعة حين دخل الغار ولم يجد أعواناً، وكذلك أبى وأنا فى سعة حين خدعتنا هذه الأمة. وإنما هى السنن والأمثال يتبع بعضها بعضاً) [۱۹۳].

فو الذى بعث محمداً بالحق، لا ينتقص من حقّنا ـ أهل البيت ـ أحدٌ إلا نقصه الله من علمه، ولا تكون علينا دولة إلا وتكون لنا العاقبة وليعلمنّ نبأه بعد حين [۱۹۴].

أيها الناس إنكم لو التمستم فيما بين المشرق والمغرب لم تجدوا رجلا من ولدنى غيرى وغير أخى [۱۹۵].

وقبل كل شىء، فإن الإمام الحسن (عليه السلام) قد سفّه أحلام معاوية فى أن يرضخ لمطلبه بعد انتهاكه السافر لشروط الاتفاقية ولذلك فإن الإمام (عليه السلام) فى هذه الخطبة أظلم نهار معاوية، كما شرح مشكلة الأمة الإسلامية الحقيقية وكشف عن هوية المنتزين على كراسى الحكم والإدارة فى الدولة الإسلامية، حتى جلس معاوية حائراً لا يدرى ما يصنع فقد أحاط المكر السيئ بأهله.

وفى اليوم التالى جاء معاوية إلى المسجد وصعد المنبر وخطب ثم طلب من الإمام الحسن (عليه السلام) أن يصعد المنبر وصاح بالناس: أيها الناس هذا الحسن بن على وابن فاطمة رآنا للخلافة أهلاً ولم ير نفسه لها أهلاً وقد أتانا ليبايع طوعاً فقام الحسن (عليه السلام) وكان الحاضرون قد شدّوا أنظارهم إلى الإمام (عليه السلام) وتقدم (عليه السلام) إلى المنبر فصعد وما نزل إلا وقد أظلمت الدنيا على معاوية فقد قال الإمام الحسن (عليه السلام) فى خطبته:

(الحمد لله المستحمد بالآلاء وتتابع النعماء، وصارف الشدائد والبلاء عن الفهماء وغير الفهماء، المذعنين من عباده لامتناعه بجلاله وكبريائه وعلوّه عن لحوق الأوهام ببقائه، المرتفع عن كنه تظنيات المخلوقين، من أن تحيط بمكنون عينه روايات عقول الرائين، وأشهد أن لا ـ إله إلا ـ الله وحده فى ربوبيته ووجوده ووحدانيته، صمداً لا ـ شريك له، فرداً لا ظهير له معه وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اصطفاه وانتجبه وارتضاه وبعثه داعياً إلى الحقّ، سراجاً منيراً، وللعباد ممّا يخلفون نذيراً، ولما يأملون بشيراً، فنصح للأمة، وصدع بالرسالة، وأبان لهم درجات العمالة، شهادة عليها أموت وأحشر، وبها فى الآجلة أقرب وأحبر، وأقول معشر الخلائق فاسمعوا ولكم أفئدة وأسماع فعوا، إنا أهل بيت أكرمنا الله بالإسلام واختارنا واصطفانا واجتبانا فأذهب عنّا الرجس وطهرنا تطهيراً، والرجس هو الشك، فلا ـ نشك فى الله الحق ودينه أبداً، وطهرنا من كلّ آفن، وعيبة مخلصين إلى آدم نعمة منه، لم يفترق الناس قط فرقتين إلا جعلنا الله فى خيرها، فأدت الأمور وأفضت الدهور، إلى أن بعث الله محمداً بالنبوة واختاره للرسالة، وأنزل عليه كتابه، ثم أمره بالدعوء إلى الله تعالى، فكان أبى أول من استجاب لله ولرسوله، وأول من آمن وصدّق الله ورسوله، وصدق الله تعالى فى كتابه المنزل على نبيّه المرسل: (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ) [۱۹۶] وأبى الذى يتلوه وهو شاهد منه، وقد قال له رسول الله (صلّى الله عليه وآله) حين أمره أن يسير إلى مكة والموسم ببراءة (سر بها يا على فإنى أمرت أن لا أسير بها إلا أنا أو رجل منى وأنت هو) [۱۹۷]

فعلىّ من رسول الله ورسول الله منه، وقال له نبىّ الله حين قضى بينه وبين أخيه جعفر بن أبى طالب ومولاه زيد بن حارثة فى ابنه حمزة (أما أنت يا على فمنى وأنا منك، وأنت ولىّ كلّ مؤمن من بعدى) [۱۹۸] فصدّق أبى رسول الله سابقاً ووقاه بنفسه، ثم لم يزل رسول الله فى كل موطن يقدمه ولكل شديدة يرسله، ثقة منه به وطمأنينة إليه، لعلمه بنصيحته لله ورسوله، وأنّه أقرب المقرّبين من الله ورسوله، وقد قال الله عزّ وجل: (السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ، أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ) [۱۹۹] فكان أبى سابق السابقين إلى الله عز وجل، والى رسوله، وأقرب الأقربين وقد قال الله تعالى: (لاَ يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً...) [۲۰۰].

أبى كان أوّلهم إسلاماً، وإيماناً وأوّلهم إلى الله ورسوله هجرة ولحوقاً وأوّلهم على وجده ووسعه نفقة قال سبحانه: (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) [۲۰۱].

فالناس من جميع الأمم يستغفرون له بسبقه إيّاهم إلى الإيمان بنبيه، وذلك أنّه لم يسبقه إلى الإيمان به أحد، وقال الله تعالى: (وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ) [۲۰۲].

فهو سابق جميع السابقين فكما أنّه عز وجل فضل السابقين على المتخلفين والمتأخرين فكذلك فضل سابق السابقين، وقد قال الله عز وجل: (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ) [۲۰۳].

فهو المجاهد فى سبيل الله حقاً وفيه نزلت هذه الآية، وكان ممن استجاب لرسول الله، عمّه حمزة، وجعفر ابن عمّه، فقتلا شهيدين رضى الله عنهما، فى قتلى كثيرة معهما من أصحاب رسول الله، فجعل الله تعالى حمزة سيد الشهداء من بينهم، وجعل لجعفر جناحين يطير بهما مع الملائكة كيف يشاء من بينهم، وذلك لمكانهما من رسول الله ومنزلتهما وقرابتهما منه، وصلى رسول الله على حمزة سبعين صلاة، من بين الشهداء الذين استشهدوا معه، وكذلك جعل الله تعالى لنساء النبى المحسنة منهن أجرين، وللمسيئة منهن وزرين ضعفين لمكانهن من رسول الله وجعل الصلاة فى مسجد رسول الله بألف صلاة فى سائر المساجد، إلا المسجد الحرام مسجد خليله إبراهيم بمكة، وذلك لمكانة رسول الله من ربّه، وفرض الله عز وجل الصلاة على نبيه على كافة المؤمنين فقالوا يا رسول الله كيف الصلاة عليك، فقال (صلّى الله عليه وآله): (قولوا اللّهم صلى على محمد وآل محمد) فحقّ على كل مسلم أن يصلّى علينا مع الصلاة على النبى فريضة واجبة، وأجلّ الله تعالى خمس الغنيمة لرسول الله وأوجبها له فى كتابه، وأوجب لنا من ذلك ما أوجب له، وحرّم عليه الصدقة وحرّمها علينا معه، فأدخلنا ـ وله الحمد ـ فيما أدخل فيه نبيه، وأخرجنا ونزّهنا ممّا أخرجه منه ونزّهه عنه، كرامة أكرمنا الله عزّ وجلّ بها، وفضيلة فضّلنا بها على سائر العباد، فقال الله تعالى لمحمد حين جحده كفرة أهل الكتاب وحاجّوه: (فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) فأخرج رسول الله من الأنفس معه أبى، ومن البنين أنا وأخى، ومن النساء أمى فاطمة، ومن الناس جميعاً، فنحن أهله، ولحمه، ودمه، ونفسه، ونحن منه، وهو منّا، وقد قال الله تعالى: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا). فلما نزلت آية التطهير جمعنا رسول الله أنا وأخى وأمى وأبى فجلّلنا ونفسه فى كساء لأمّ سلمة خيبرى، وذلك فى حجرتها وفى يومها، فقال: (اللهم هؤلاء أهل بيتى، وهؤلاء أهلى وعترتى، فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً). فقالت أم سلمة: أأدخل معهم يا رسول الله؟ فقال لها رسول الله: يرحمك الله أنت على خير وإلى خير، وما أرضانى عنك، ولكنها خاصة لى ولهم. ثم قالها رسول الله بعد ذلك بقية عمره، حتى قبضه الله، يأتينا فى كل يوم عند طلوع الفجر فيقول: (الصلاة يرحمكم الله، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) وأمر رسول الله بسدّ الأبواب الشارعة فى مسجده غير بابنا، فكلموه فى ذلك فقال: (أما إنى لم أسدّ أبوابكم، ولم أفتح باب علىّ من تلقاء نفسى،ولكنّى أتبع ما يوحى إلىّ، وإنّ الله أمر بسدّها وفتح بابه) فلم يكن من بعد ذلك أحد تصيبه جنابة فى مسجد رسول الله ويولد فيه الأولاد، غير رسول الله، وأبى على بن أبى طالب، تكرمة من الله تعالى، وفضلاً اختصّنا به على جميع الناس، وهذا باب أبى قرين باب رسول الله فى مسجده فبنى فيه عشرة أبيات، تسعة لنبيه وأزواجه وعاشرها وهو متوسطها لأبى، وهاهو بسبيل مقيم، والبيت هو المسجد المطهّر، وهو الذى قال الله تعالى: (أَهْلَ الْبَيْتِ)، فنحن أهل البيت، ونحن الذين أذهب الله عنا الرجس وطهرنا تطهيراً...).

أیها الناس: إنه لا یعاب أحد بترک حقّه، وإما یعاب أن یأخذ ما لیس له، وکلّ صواب نافع وکل خطأ ضار لأهله وقد کانت القضیة ففهمناها سلیمان، فنفعت سلیمان، ولم تضرّ داوود فأمر القرابة فقد نفعت المشرک وهی والله للمؤمن أنفع.

أیها الناس: اسمعوا وعوا، واتقوا الله وراجعوا، وهیهات منکم الرجعة إلی الحقّ، وقد صارعکم النکوص، وخامرکم الطغیان، والجحود أنلزمکموها وأنتم لها کارهون. والسلام علی من اتبع الهدی.

فقال معاویة: والله ما نزل الحسن حتی أظلمت علیّ الأرض وهممت أن أبطش به، ثم علمت، أن الإغضاء أقرب إلی العافیة [۲۰۴] .

وفی هذه الخطبة الرائعة التی حملت من المعانی أجلاها وأعظمها ومن الحکم أوثقها وابلغها نجد فیها ترکیزاً علی جانبین مهمین وهما:

أولاً: تبیان حقوق أهل البیت (علیهم السلام) وفضائلهم وقرابتهم من رسول الله (صلّی الله علیه وآله) وواجب المسلمین جمیعاً فی عقد الحب والولاء لهذا البیت الطاهر، وجریمة الفصل بین أهل البیت (علیهم السلام) وبین رسول الله (صلّی الله علیه وآله).

ثانیاً: إغفال الأمة فی عهد الإمام أمیر المؤمنین (علیه السلام) وابنه الحسن (علیه السلام) لهذه الحقوق ونکوصها عن الوقوف إلی جانب الإمام علی (علیه السلام) وابنه الحسن (علیه السلام) فی المحن الشدیدة والفتن الخطیرة التی عصفت ریاحها بالدولة الإسلامیة، فتخاذلت الأمة عن النهوض ومقاومة القوی المناوئة لأهل البیت (علیهم السلام)، وجمدت عن قطع دابر المخططات الأمویة التی کانت تتربص الدوائر للإطاحة بالنظام الإسلامی واقامة نظام جاهلی قبلی تنبعث فیه قیم الشر ونزعات الفتنة...

ثم جاء معاویة فی یوم آخر إلی المسجد، فطلب من الإمام الحسن (علیه السلام) وبإصرار أن یصعد المنبر ویمتدحه، فقام الإمام (علیه السلام) وصعد ثم قال (علیه السلام): (الحمد لله الذی توحّد فی ملکه وتفرّد فی ربوبیته یؤتی الملک من یشاء وینزعه ممن یشاء والحمد لله الذی أکرم بنا مؤمنکم، وأخرج من الشرک أولکم، وحقن دماء آخرکم، فبلاؤنا عندکم قیماً وحدیثاً أحسن البلاء، إن شکرتم أو کفرتم أیها الناس: إن رب علیّ کان أعلم بعلیّ حین قبضه إلیه، ولقد اختصه بفضل لم تعهدوا بمثله، ولم تجدوا مثل سابقته، فهیهات هیهات طال ما قلبتم له الأمور، حتی أعلاه الله علیکم، وهو صاحبکم، وعدوّکم فی بدر وأخواتها، جرّعکم رنقاً، وسقاکم علقاً، وأذلّ رقابکم، وأشرقکم بریقکم فلستم بملومین علی بغضه.

وأیم الله لا تری أمة محمد خصباً، ما کانت سادتهم وقادتهم فی بنی أمیة، ولقد وجّه الله إلیکم فتنةً، لن تصدوا عنها حتی تهلکوا، لطاعتکم طواغیتکم وانضوائکم إلی شیاطینکم، فعند الله احتسب ما مضی، وما ینتظر من سوء رغبتکم، وحیف حکمکم.

یا أهل الکوفة: لقد فارقکم بالأمس سهم من مرامی الله صائب علی أعداء الله، نکّال علی فجّار قریش، لم یزل آخذ بحناجرها، جاثماً علی أنفاسها لیس بالملومة فی أمر الله، ولا بالسروقة لمال الله، ولا بالغروقة فی حرب أعداء الله أعطی الکتاب خواتمه وعزائمه، دعاه فأجابه، وقاده فاتّبعه لا تخذه فی الله لومة لائم فصلوات الله علیه ورحمته [۲۰۵] .

الذی یحدق النظر فی کلام الإمام الحسن (علیه السلام) یجد أنه (علیه السلام) فی کل مرة یطلب منه معاویة صعود المنبر ومدحه، یبدأ الإمام (علیه السلام) بذکر فضائل أهل البیت (علیهم السلام) والترکیز علی ولایة أمیر المؤمنین علی (علیه السلام) وفضائله وخسارة الأمة الإسلامیة حینما ضیعت الولایة وأفسحت المجال لسیطرة بنی أمیة علیها. کما نجد أن الإمام (علیه السلام) یخصص فی حدیثه عن الإمام أمیر المؤمنین جانب القیادة وعلاقة الراعی مع الرعیّة، والتی أراد الإمام الحسن (علیه السلام) من تسلیط الضوء علی هذا الجانب لبث الوعی فی جماهیر الکوفة لما سیجری من مخاطر وأزمات ستهدد مستقبل الأمة فی ظل السیطرة الأمویة علی دفة الحکم.

الامام الحسن و ردود الفعل

اشاره

ظهرت بعض ردود الفعل بعد توقيع الإمام الحسن (عليه السلام) اتفاقية الهدنة مع معاوية وردود الفعل هذه جاءت من قبل الطليعة الرسالية والتيار الجماهيرى المتعاطف مع الإمام الحسن (عليه السلام) وأهل البيت (عليهم السلام)، ممّا استدعى الأمر أن يتصدى الإمام (عليه السلام) لإزالة الغموض واللّبس الذى قد لف مسألة الهدنة والإجابة على الأسئلة التى كانت تدور فى أذهان الطليعة وتيار الجماهير المتعاطف...

فقد اتخذت بعض العناصر الطليعية وجمع من المتعاطفين مع الإمام (عليه السلام) موقفاً متذمراً تجاه هدنة الإمام (عليه السلام) مع معاوية، وراح بعضهم يعنف القول للإمام (عليه السلام) دونما وعى بالظروف القائمة والموضوعية.

وقد اعتمد الإمام الحسن (عليه السلام) لمواجهة ردود الفعل تلك، حسب موقع الفرد ـ قرباً أو بعداً ـ من القيادة، لذلك كان جواب الإمام (عليه السلام) لطليعته أمثال عدى ابن حاتم، وقيس بن سعد، وسليمان بن صرد، وحجر بن عدى وغيرهم، يختلف عن جوابه (عليه السلام) لذلك الإنسان المتعاطف مع الإمام (عليه السلام) فكل حسب موقعه وقدرته على استيعاب الجواب وفهم ابعاده.

التيار الجماهيرى المتعاطف

جاء قوم من الشيعة إلى الإمام الحسن (عليه السلام) فى طلب الإذن منه لقتال معاوية بعد الهدنة فقال لهم الإمام (عليه السلام): (أنتم شيعتنا وأهل مودتنا، فلو كنت بالحرام فى أمر الدنيا أعمل ولسلطانها أركض وأنصب ما كان معاوية بأبأس منى بأساً ولا أشد شكيمة، ولا أمضى عزيمة، ولكنى أرى غير ما رأيتم، وما أردت بما فعلت إلا حقن الدماء، فارضوا بقضاء الله، وسلّموا الأمر له وألزموا بيوتكم وأمسكوا) [۲۰۶].

ونجد فى جواب الإمام (عليه السلام) هذا بالرغم من أنه حديث عام للقوم من شيعة أهل البيت (عليهم السلام) إلا أنه يتضمن مسألتين هامتين وهما:

أولاً: أن الصراع الذى يواجه الطليعة الرسالية، ليس صراعاً سياسياً يرتبط بالسلطة والمنصب، بل هو صراع القيم والمبادئ الرسالية مع الثقافة الجاهلية، لذلك فهو يتطلب إمكانيات وطاقات مناسبة لتغيير الواقع الفاسد فى الأمة على مختلف الأصعدة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية... وغيرها.

والواضح من كلام الإمام (عليه السلام) إن هذا القوم الذى جاء لطلب الإذن من الإمام (عليه السلام) لقتال معاوية، كان يحمل بعداً واحداً فى صراعه، وهو البعد السياسى بمعنى السيطرة على السلطة وإسقاط معاوية.

ثانياً: إن الصراع ليس عملية انتحارية أو مجازفة غير محسوبة العواقب، بل هى عملية طويلة المدى، تتطلب وسائل وإمكانيات هائلة فى سبيل إدارة الصراع بصورة جيدة، كما أنه بحاجة إلى أفراد وكفاءات وتضحيات وعمل متواصل ومنظم ومؤسسات تتجاوز الحواجز الإرهابية، وإدخال المجتمع فى دائرة الصراع إلى غيرها من العوامل المؤدية إلى تغيير الواقع الفساد فى الأمة.

إلا ـ أن تكون هناك فئة انتحارية يكون همها القيام بعمليات ثورية دونما اكتراث إلى الجوانب الأخرى من الصراع، فإن هذه الفئة تنتهى بسرعة، وإذا بقيت فإنها لن تصل إلى الأهداف الحقيقية فى الصراع. كما أن هذه الفئة لن ـ والحال هذه ـ عن إرادة الجماهير بل قد تنقلب الجماهير ضدها وذلك لأنها أغفلت منذ البداية جانب نوعية الجماهير وتهيئة أفراد المجتمع لخوض الصراع وإن الانتكاسات التى ستصيب هذه الفئة لن تثير حفيظة الجماهير أو عاطفتها كون هذه الجماهير لم تفهم أهداف وتطلعات هذه الفئة فى خوضها الصراع بل قد تعتبره صراعاً على المنصب والسلطان كما يحدث غالباً للصراعات الطرفية والفئوية ضد السلطة.

وفد قوم من شيعة أهل البيت (عليهم السلام) فلاموا الإمام (عليه السلام) لتسليمه زمام السلطة إلى معاوية وأعنفوا القول للإمام (عليه السلام) فقال لهم: (ويحكم ما تدرون ما عملت؟ والله الذى عملت خير لشيعتى ممّا طلعت عليه الشمس أو غربت، ألا تعلمون أنى إمامكم، ومفترض الطاعة عليكم، وأحد سيدى شباب أهل الجنة بنص من رسول الله (صلّى الله عليه وآله)، قالوا: بلى، قال: أما علمتم

أن الخضر لما خرق السفينة وأقام الجدار، وقتل الغلام، كان ذلك سخطاً لموسى بن عمران، إذ خفى عليه وجه الحكمة فى ذلك وكان ذلك عند الله تعالى ذكره حكمةً وصواباً؟ أما علمتم أنّه ما منا أحد إلا ويقع فى عنقه بيعة لطاغية زمانه إلا القائم الذى يصلى خلفه روح الله عيسى بن مريم؟ فإن الله عز وجل يخفى ولادته ويغيب شخصه، لئلا يكون لأحد فى عنقه بيعة، إذا خرج ذاك التاسع من ولد أخى الحسين ابن سيدة النساء يطيل الله عمره فى غيبته، ثم يظهره بقدرته فى صورة شاب دون الأربعين سنة، ذلك ليعلم أن الله على كل شىء قدير) [۲۰۷] وهنا يشير الإمام (عليه السلام) فى جوابه للقوم، قضية مركزية وحساسة وهى موقع القيادة فى المجتمع، وأسلوب تعامل الجماهير مع قرارات هذه القيادة.

فقد تصاب الجماهير ـ أحياناً ـ بحالة مرضية وهى المزاجية فى قبول أو رفض القرارات القيادية والتى يرجع أحد أسبابها إلى عدم وعى القرار، أو عدم فهم أبعاده الإيجابية المختلفة.

فما دام أن هناك قيادة فى الأمة تعمل على أساس تطبيق الإسلام فى واقع المجتمع، وتغيير نظام الواقع الفاسد، فالمطلوب من أبناء الأمة إسناد ودعم قيادتها الشرعية، بدل التشكيك أو التردد فى ذلك، ولا يعنى ذلك صنمية القرار أو تقديس القائد بقدر ما هو التفاعل مع القضية المشروعة التى آمنت بها الجماهير منذ البدء.

فى الواقع أن من أخطر الآفات التى تفتك بالمجتمع هى فى أن يضع أفراد المجتمع مختلف التبريرات فى التعامل مع القرارات ممّا يسبب فى إضعاف موقع القيادة وبالتالى تفتيت الوحدة الاجتماعية المنبعثة من قوة مركز القيادة فى الأمة.

والواقع أن الأمة التى تضع ثقتها فى قيادتها، فهى التى تصل إلى أهدافها بسرعة وبنجاح. كونها لم تبحث فى تفصيلات كل قرار يصدره القائد فتتردد فى اتباعه بل مسكت بأزمة القرار بقوة وإخلاص وتفهم.

وجاء بعض من الشيعة إلى الإمام (عليه السلام) فابتدروا بالقول: يا مذل المؤمنين، ويا مسود الوجوه، فما كان جوابه إليهم إلا أن قال: لا تعزلونى، فإن فيها مصلحة، ولقد رأى النبى (صلّى الله عليه وآله) فى منامه، أنه يخطب بنو أمية واحد بعد واحد فحزن، فأتاه جبرائيل فقال له: (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) و(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ) [۲۰۸] .

إن الإمام (عليه السلام) وبالرغم من قبح كلام القوم له والذى لا يعبر سوى عن غياب الوعى عن فهم القرار، فضلاً عن فهم وإدراك موقع الإمام (عليه السلام) ومكانته فى الأمة، مع ذلك يجيب الإمام (عليه السلام) على هؤلاء حسب مستوى إدراكهم بأن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قد أخبره عن تسلط بنى أمية على هذه الأمة.

موقف الإمام مع الطليعة

عدى بن حاتم

جاء عدى بن حاتم أحد طليعة الإمام الحسن (عليه السلام) وقال: (يا ابن رسول الله لوددت إنى مت قبل ما رأيت أخرجتنا من العدل والجور، فتركنا الحق الذى كنا عليه، ودخلنا فى الباطل الذى كنا نهرب منه، وأعطينا الدنية من أنفسنا، وقبلنا الخسيس التى لم تلق بنا.

فرد الإمام (عليه السلام) قائلاً: (يا عدى: إنى رأيت هوى معظم الناس فى الصلح، وكرهوا الحرب، فلم أحب أن أحملهم على ما يكرهون، فرأيت دفع هذه الحروب إلى يوم ما، فإن الله كلّ يوم هو فى شأن).

وقد أراد الإمام (عليه السلام) من ذلك أن يلفت انتباه عدى إلى سبب إقدامه على توقيع اتفاقية الصلح مع معاوية وهى انثيال معظم الناس نحو فكرة الصلح والهروب من الحرب ممّا وضع الإمام (عليه السلام) إزاء الأمر الواقع.

بعدها يخبر الإمام (عليه السلام) عن إرجاء الحرب ضد معاوية إلى يوم آخر، لأن الجماهير لم تكن مستعدة اليوم لأن تخوض مع الإمام (عليه السلام) الحرب ضد معاوية، ولكن الأيام دول والأمة بحاجة إلى إعداد جديد للدخول فى الصراع.

وهنا كلمة نقولها وهى عندما يكون هناك بون شاسع بين منهج القيادة وهوى الجماهير، فإنّ الحال آنذاك يصبح أكثر تعقيداً من غيره، لأنه قد يضطر القائد ـ مكرهاً ـ للنزول إلى رغبة الجماهير، فإن القائد آنذاك يتمكن من امتلاك الحزم والقوة فى إصدار القرار الصائب والمناسب لأن القوة الفعلية التى يستند عليها هى الجماهير.

ولقد عاش الإمام الحسن (عليه السلام) محنة شديدة، فى مجتمع طاعته الهوى، ويخشى حرّ السيف، يرغب فى السلم مع الذل، ويكره الحرب مع العز... وأمة هكذا حالها لا يمكن أن تستفيد من قائد يدعوها إلى غير الهوى التى هى عليه... وقائد مثل الإمام الحسن (عليه السلام) لم ير من الناس سوى الدعة واللهث وراء شهوات الدنيا وحب الذات، بعد أن أضاء لهم الطريق لكى يهتدوا إلى مواقع الظلمة... ولكن ماذا يمكن للإمام (عليه السلام) صنعه مع أناس استحبوا الضلالة على الهدى واستهووا الظلام على النور...، ولأن الجماهير ـ والحال هذه ـ كانت تحمل فى داخلها ثقافة معاوية وليست ثقافة الإمام الحسن (عليه السلام) ولذلك كانت تفتش عن قائد ينمى فيها غريزة الهوى وحب الدنيا، والانصياع للنظام الحاكم سواء عن طريق نشر الثقافة الجامدة والفكر المنحدر، أو ترويج وسائل الترف الفكرى، أو إشاعة الفساد بألوانه وأشكاله، وعن طريق إطلاق الدعوات الماكرة لترويض الجماهير وإبعادها عن ساحة الصراع، فإنّ هذه الأمة صعب منها أن تنبعث لتحمل مسؤولية التغيير الجذرى فى واقعها الذاتية وقدراتها المتاحة، وتطيع قياداتها وتسندها بكل إمكانياتها فإن مثل هذه الأمة تنتصر وتتغير، لأنها غيّرت ما فى داخلها ونبذت كل ضلالات الثقافة الجاهلية والله سبحانه وتعالى يقول: (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ).

وحديث الإمام الحسن (عليه السلام) لعدى بن حاتم لا يخرج عن إطار تلك الأمة المتقاعسة والمخالفة لأمر إمامها وقائدها، فمصداقية القائد هى فى طاعة الجماهير له، فإذا انتفت الطاعة، انتفى القائد أيّاً كان هذا القائد.

مالک بن ضمرة

جاء مالك فتلفظ بكلمات عنيفة، وألقى باللائمة على الإمام (عليه السلام) فرد عليه الإمام (عليه السلام) بلطف وهدوء وقال له: (إنى خشيت أن يجتثّ المسلمون عن وجه الأرض فأردت أن يكون للدين ناع) [۲۰۹].

حكمة عظيمة، وقيمة بالغة قالها الإمام الحسن (عليه السلام) لمالك، ترتبط بجذور الصراع ويؤكد الإمام (عليه السلام) فى جوابه على أن الصراع ليس محرقة للأفراد، ولا الأفراد حطب فى فرن الأحداث، لأن بذلك يخرج الهدف عن إطاره السليم والصحيح بل إنما هو فى سبيل الإبقاء على الرسالة الإلهية ونشر مبادئ وقيم الإسلام الفاضلة، وهذا يتم عبر وجود فئة رسالية قادرة على أن تحمل راية الدين بصدق وإخلاص.

إذن الهدف من الصراع هو تحكيم شريعة الله فى المجتمع بوجود فئة عاملة وقادرة على تحقيق هذا الأمر أما أن يكون الصراع سبيلاً لاقتحام الأفراد فى أتون معركة خاسرة تؤدى إلى تصفية المجتمع من العاملين والدعاة وبالتالى تغييب الدين، وإلغاء الشريعة، فإن هذا الصراع.. يكون للمصلحة لا للمبدأ. والإمام (عليه السلام) الذى أخبر أن هناك فئة محدودة فى المجتمع هى طليعة الإمام (عليه السلام) التى تقبل خوض الحرب ضد معاوية، فإن الإمام (عليه السلام) لم يكن يفرط فى حياة هذه الطليعة، التى ستتولى الحفاظ على الدين وتبليغ رسالته، هذا بالإضافة إلى أن هناك تياراً جماهيرياً ما زال يحمل ولاءً عاطفياً لأهل البيت (عليهم السلام) يمكن الاستفادة منه فى المستقبل بعد تنمية هذا الولاء العاطفى إلى ولاء حقيقى فعلى للعمل والتحرك.

حجر بن عدى

جاء حجر بعد توقيع اتفاقية الهدنة إلى مجلس معاوية ليبايع وكان الإمام الحسن (عليه السلام) حاضراً فى المجلس فالتفت حجر إلى الإمام (عليه السلام) وقال: (أما والله لوددت أنك مت فى ذلك اليوم ومتنا معك ولم نر هذا اليوم فإنا رجعنا راغمين بما كرهنا

ورجعوا مسرورين بما أحبوا).

ثم خرج الإمام الحسن (عليه السلام) ولقى حجراً فخلى به يخبره عن الهدف من وراء اتفاقية الهدنة.

فقال (عليه السلام): يا حجر قد سمعت كلامك فى مجلس معاوية وليس كل إنسان يحب ما تحب، ولا رأيه كرأيك، وإنى لم أفعل ما فعلت إلا إبقاءً عليكم والله تعالى كل يوم هو فى شأن) [۲۱۰] .

إن للعلاقة الوثيقة التى كانت تربط الإمام الحسن (عليه السلام) بحجر، دورها فى أسلوب التعامل، لذلك نجد أن الإمام (عليه السلام) وقد سمع كلام حجر فى مجلس معاوية، لم يكن يغفل عن كشف الغموض واللبس عند حجر، فيخلوا الإمام (عليه السلام) بحجر ويقول له بكلمات بسيطة تحمل أهدافاً فى غاية الأهمية والتعبير الصادق.

ونحن هنا نتوقف مع هذه الكلمات العظيمة من الإمام (عليه السلام) والتى تخص الطليعة وتبين جانب مهم من تفكير الطليعة وما هى الحدود التى يجب على أفراد هذه الطليعة مراعاتها الالتزام بها؟

نستفيد من موقف الإمام الحسن؟ مع حجر بن عدى، أن الطليعة فى تحركها بحاجة إلى البصيرة والوعى بما يجرى من أحداث وتغييرات فى ساحة المجتمع، دونما الاكتفاء بالحالة الثورية، كونها كحالة متفاعلة فى داخل أفراد الطليعة لا يمكن أن نتعامل مع أحداث ووقائع المجتمع وإذا لم تكن هناك بصيرة نافذة ووعى متقدم يستطيع استخدام الحالة الثورية فى مكانها المناسب وفى زمانها المناسب.

وقد تصل بالطليعة حالة الثورية اللاواعية لممارسة العمليات الثورية المتطرفة فى ساحة المجتمع فتتجاهل الطليعة ظروف المجتمع ودرجة وعيه بالأعمال الثورية. ممّا تسبب فى قتل قابليات أبناء هذا المجتمع لعملية التغيير... لماذا؟ لأن الطليعة تعاملت مع المجتمع على أساس ما تحمل من منهجية فى التفكير وطريقة فى التحرك فتتصرف من واقعها هى، وليس من واقع المجتمع أو الأخذ بنظر الاعتبار الظروف السائدة فى الساحة الاجتماعية هذا مع العلم أن عملية التغيير لن تتم بقرار من الطليعة وحدها إذا لم يسندها الجماهير ورغبتها فى ذلك.

والإمام الحسن (عليه السلام) يقول لحجر: (وليس كل إنسان يحب ما تحب ولا رأيه كرأيك) ولأن الطليعة إنما سميت بذلك، لأنها تجاوزت الحواجز النفسية والثقافية وغيرها التى تقف أمام حركة المجتمع، ودور الطليعة يكون فى تذويب هذه الحواجز حتى يتحول المجتمع بأكمله إلى مجتمع طليعى ولذلك فهو بحاجة إلى الدخول فى عملية التغيير.

والإمام (عليه السلام) فى حديثه مع حجر يقودنا إلى فهم عملية التغيير، وانها إنما تتم بمشاركة فئات المجتمع وذلك:

أولاً: إن عملية التغيير تتم فى داخل المجتمع وليس خارجه بهدف تغيير المجتمع والصعود به إلى مستوى أفضل، وهذا يتطلب مساهمة فاعلة وشاملة من أبناء المجتمع ومن جهة ثانية إن التغيير فى المجتمع ليس عملية دراماتيكية أو دفعية، فالمجتمع إنما يتغير تدريجياً من خلال بناء الكوادر وتنظيم خلايا العمل وتوعية الجماهير ومد الجسور... الخ.

ثانياً: إن التغيير عملية شاقة وطويلة وليست سهلة وقصيرة، فتحتاج إلى طاقات وقدرات هائلة تتجاوز حدود الفئة، لأن عملية التغيير لا تقتصر على إطار الفئة والطليعة، بل هى تتسع لتشمل أفراد المجتمع، وأن يكون العمل التغييرى نافذ إلى كل الأصعدة والجوانب فى المجتمع وليس صعيداً أو جانباً واحداً. كأن تقف عند حد الإصلاحات الجزئية والمعالجات النصفية، بل أن التغيير عملية شاملة لكل مرافق المجتمع.

وهذا مما يستدعى وجود فئات المجتمع فى ساحة للتغيير الشامل.

والإمام (عليه السلام) فى حديثه مع حجر بن عدى، يؤكد على أن توقيع اتفاقية الهدنة للحفاظ على حياة الطليعة فى ظل غياب الجماهير عن ساحة المواجهة لذلك أن حكمة الإمام (عليه السلام) اقتضت عدم المجازفة بأفراد الطليعة فى الحرب ضد معاوية.

ابوسعيد عقيقا

ينقل أبو سعيد لبعض أصحابه قصته مع الإمام الحسن (عليه السلام) حول مسألة الصلح مع معاوية ويقول: قلت للحسن بن على بن أبى طالب (عليه السلام): يا ابن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لِمَ داهنت معاوية وصالحته وقد علمت أن الحق لك دونه وأن معاوية ضال باغ؟

فقال: (يا أبا سعيد ألست حجة الله تعالى ذكره على خلقه وإماماً عليهم بعد أبى (عليه السلام)؟ قلت: بلى، قال: ألست الذى قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لى ولأخى: الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا؟ بلى، قال: فأنا إذن إمام لو قمت، وأنا إمام إذا قعدت، يا أبا سعيد علّة مصالحتى لمعاوية علّة مصالحة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لبنى ضمرة وبنى أشجع، ولأهل مكة حين انصرف من الحديبية أولئك كفار بالتنزيل ومعاوية وأصحابه كفّار بالتأويل، يا أبا سعيد إذا كنت إماماً من قبل الله تعالى ذكره لم يجب أن يسفه رأيى فيما أتيته من مهادنة أو محاربة وإن كان وجه الحكمة فيما أتيته ملتبساً ألا ترى الخضر (عليه السلام) لمّا خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار سخط موسى (عليه السلام) فعله، لاشتباه وجه الحكمة عليه حتى أخبره فرضى، هكذا أنا سخطتم علىّ بجهلكم وجه الحكمة فيه ولولا ما أتيت لما ترك من شيعتنا على وجه الأرض أحداً إلا قُتل) [۲۱۱].

وهنا يشير الإمام (عليه السلام) إلى ملاحظتين هامتين وهما:

الأولى: إنه (عليه السلام) إمام على المسلمين من قبل الله تعالى ذكره وعلى المسلمين الطاعة لأوامره ونواهيه لأنه يحدث عن الله سبحانه وتعالى.

الثانية:لا يجوز لأحد من المسلمين ـ أى كان ـ أن يرفض أمراً صادراً عن الإمام (عليه السلام) أو يظهر سخطه ونفوره من قرار الإمام (عليه السلام) لأن فى ذلك مخالفة لله سبحانه وتعالى وكما يقول الإمام الصادق (عليه السلام): (الراد علينا كالراد على الله).

فإذا حدث ولم يفقه أحد من المسلمين حكمة الأمر والنهى لا يجوز له أن يحجم عن الانقياد لهذا الحكم أو ذاك كونه لم يتعرف على خلفية ذلك أو لم يحط علماً بوجه الحكمة به، وهذا لا يعنى أن يمارس الفرد المسلم الطقوس العبادية من أوامر ونواهى عن غير دراية، بل أن المسألة هى أن لا يتحول الدين إلى مادة استهلاكية عن الفرد المسلم فيقبل ما يناسبه منا ويرفض ما دون ذلك.

فقد نغفل أحياناً وننسب الخطأ إلى الحكم كوننا لم نعقل مفهومه ومضمونه فبدل أن ننسب الجهل لأنفسنا، نلقى ذلك على الدين والعياذ بالله.

والإمام الحسن (عليه السلام) يقول لأبى سعيد: (هكذا أنا سخطتم علىّ بجهلكم وجه الحكمة) فالذين عارضوا الإمام (عليه السلام) كانوا يجهلون وجه الحكمة من إقدام الإمام (عليه السلام) على الصلح ثم إن الإمام (عليه السلام) كشف عن ذلك حينما أجاب الأخير: (ولولا ما أتيت لما ترك من شيعتنا على وجه الأرض أحد إلا قتل).

فكانت معاهدة الصلح حاجزاً أمام معاوية كى لا يقدم على تنفيذ جرائمه فى حق أبناء الرسالة، فيتعرضوا للتصفية الجسدية ممّا تؤثر على مسيرة الحركة الرسالية فى الأمة والذى بالتالى يهدد كيان الدين الإسلامى برمته للانهيار، إضافة إلى ذلك فالإمام (عليه السلام) قد أوضح فى أن معاهدة الصلح التى أقدم عليها ليست هى المعاهدة الأولى التى تمت، بل مارسها الرسول (صلّى الله عليه وآله) مع بنى ضمرة وبنى شجاع وأهل مكة والتى كانت فى وقت لم تتمكن فيه الحركة الرسالية أن تواجه كافة القوى المناوئة للإسلام، فجاء صلح الحديبية ليوقف الزحف لتلك القوى نحو مواقع التحرك الرسالى فى الأمة، ممّا قد يسبب فى كبح جموح انطلاقة الإسلام فى أوساط مجتمع مكة،ومن جهة أخرى لم تكن الحركة الرسالية تمتلك القدرة على المواجهة فهى حديثة العهد والنشأة ولم تقف على رجليها آنذاك بعد.

فصل الشهادة

اشاره

عاش الإمام الحسن (عليه السلام) قرابة العقد من الزمن فى المدينة المنورة استطاع أن يبنى قاعدة جماهيرية صلبة عبر الثورة فى جذور المجتمع المدنى ومن خلال تربية الكوادر ونشر الثقافة الرسالية وبث الوعى الدينى والسياسى فى أوساط المجتمع، وهكذا التصدى لكافة محاولات التحريف والتضليل الجاهلى.. ولقد حقق الإمام (عليه السلام) خلال هذه الفترة إنجازات هائلة وهذا ما اعترف به وأقره قطب الرحى فى النظام الجاهلى الأموى، معاوية بن أبى سفيان والذى خشى من نشاطات الإمام (عليه السلام) وإنجازاته على انفراط السلطة من يده.

كان الإمام الحسن (عليه السلام) ولعقد من الزمن يعيش بين أظهر المسلمين، يمثل الكهف الحصين ومعدن الأمن، وملجأ الهاربين والمحتاجين، ومصدر غوث اللاجئين قبال البطش الأموى فهذا سعيد بن سرح حينما أقدم زياد بن أبيه على مصادرة ممتلكاته وإخراجه من بيته واعتقال زوجته وعياله وأخيه، جاء سعيد إلى الإمام (عليه السلام) وشكا له ما جرى عليه، فكتب الإمام الحسن (عليه السلام) رسالة إلى زياد جاء فيها: (من الحسن بن على إلى زياد أما بعد: فإنك عمدت إلى رجل من المسلمين، له ما لهم، وعليه ما عليهم، فهدمت داره، وأخذت ماله، وحبست أهله وعياله، فإن أتاك كتابى هذا فابن له داره، واردد عليه عياله وماله وشفعنى فيه فقد أجرته والسلام).

ولما بلغ الكتاب إلى زياد غضب لأن الإمام (عليه السلام) لم ينسبه إلى أبى سفيان، ولم يبدأ به قبله فكتب زياد رسالة نال منها من الإمام (عليه السلام) وأشبعها من سموم شتمه وقدحه والتى لا يزفرها سوى زياد وأمثاله ومن تبعه.

ورد الإمام (عليه السلام) على الرسالة فى سطرين موجزين: (من الحسن بن فاطمة، إلى زياد بن سميّة، أما بعد: فإن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قال: (الولد للفراش وللعاهر الحجر والسلام) وأرسل الإمام (عليه السلام) كتاب زياد إليه لمعاوية مع رد زياد على رسالة الإمام (عليه السلام) الثانية، فما أن وصلت الرسائل إلى معاوية فبعث برسالة عاجلة إلى زياد وكتب فيما كتب:

(.. من ذلك كتابك إلى الحسن تشتم أباه وتعرض له بالفسق، ولعمرى أنك لأولى بالفسق.. وأمّا تسلطه عليك بالأمر فحق لمثل الحسن أن يتسلط، وأما تركك تشفيعه فيما شفع فيه إليك، فحظ دفعته عن نفسك إلى من هو أولى به منك، وإذا ورد عليك كتابى فخل ما فى يديك لسعيد بن أبى سرح، وابن له داره، واردد عليه ماله ولا تتعرض له، فقد كتبت إلى الحسن (عليه السلام) أن يخبره إن شاء أقام عنده وإن شاء رجع إلى بلده، ولا سلطان لك عليه ولا يد ولا لسان) [۲۱۲].

هكذا كان الإمام الحسن (عليه السلام)، حتى أن التاريخ لم يذكر مورداً أو قصة أو حادثة واحدة أن معاوية أو أزلامه باشروا ارتكاب جرائم القتل فى حياة الإمام الحسن (عليه السلام) وربما كان ذلك سبب إقدام معاوية على تنفيذ مخطط اغتيال الإمام (عليه السلام).

وبالفعل فكّر معاوية فى طريقة يقوم بها لتصفية وجود الإمام (عليه السلام) خاصة وأن النشاط الرسالى بدأ يتصاعد بقوة وأن معاوية مكبّلاً فى وجود الإمام (عليه السلام) لا يستطيع التعرض بالسوء لأى من أصحاب الحسن (عليه السلام).. فأوعز معاوية إلى المستشارين السياسيين وهكذا أفراد الحاشية وعناصر من المقربين له أن يدلّوه على طريقة مناسبة يتم فيها اغتيال الإمام (عليه السلام)، فالبعض اقترح التصفية المعلنة أمام الناس فى المدينة لبث الرعب فى كافة أرجاءها والبعض الآخر اقترح استدعاؤه إلى الشام ثم تنفيذ فيه خطة الاغتيال.. غير أن معاوية كان يخشى أن تؤدى هذه العمليات إلى تأليب فئات من الشعب ضد نظامه وتدهور الأوضاع السياسية فى الداخل، ولذلك فكّر فى طريقة يتفادى فيها أى بادرة إثارة وذلك من خلال أمرين وهما:

أولاً: عدم تنفيذ خطة الاغتيال بصورة علنية أو استفزازية ممّا قد تثير حفيظة الشعب أو المعارضة.

ثانياً: عدم المباشرة فى تنفيذ خطة الاغتيال لإبعاد الشبهة قدر الإمكان عن السلطة ولذلك وجد معاوية فى جعدة بنت محمد بن الأشعث الكندى وهى بنت لأم فروة أخت الخليفة أبى بكر لتكون هى الأداة المناسبة ـ بكافة المواصفات ـ لتنفيذ الجريمة، وقد اختار معاوية السمّ كوسيلة هادئة للجريمة..

واستطاع معاوية أن يتصل بجعدة وراح يعرض عليها الإغراءات المادية ويحدثها عن الأموال الطائلة والضياع والثروة التى سيعطيها إيّاها والتى بلغت عشرة آلاف دينار وإقطاع عشرة ضياع من سورار وهى موضع بالعراق من بلد السريانيين، وسواد الكوفة، ووعدها أيضاً بتزويجها من ابنه يزيد... ولكن بشرط أن تدس السم إلى الإمام الحسن (عليه السلام)، فلم تطل التفكير فى الأمر بل أعطت موافقة فورية.

وفى اليوم المحدد جاءت جعدة بالطعام المسموم وقدمته إلى الإمام الحسن (عليه السلام) فلمّا وضعته بين يديه قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله على لقاء محمد سيد المرسلين، وأبى سيد الوصيين وأمى سيدة نساء العالمين، وعمى جعفر الطيار فى الجنة، وحمزة سيد الشهداء صلوات الله عليهم أجمعين.

وأما إن رفعت جعدة المائدة من تحت الإمام (عليه السلام) حتى بدأ السم ينتشر داخل جسمه (عليه السلام) ويقطع أمعاءه فكان السم يسرى.. والألم يسرى معه.. وكلاهما يصرمان ما تبقى من عمره الشريف.

جاء إليه أخوه الإمام الحسين (عليه السلام) فلمّا رأى حاله بكى، فقال له الحسن (عليه السلام): ما يبكيك يا أبا عبد الله؟ قال: أبكى على ما أراك فيه. فقال له الحسن (عليه السلام): إن الذى يأتى إلىّ بسمّ يدبّر فأقتل به، ولكن لا يوم كيومك يا أبا عبد الله يزدلف إليك ثلاثون ألف رجل، يدّعون أنهم من أمة جدنا، وينتحلون دين الإسلام فيجتمعون على قتلك، وسفك دمك، وانتهاك، وسبى ذراريك ونسائك وأخذ ثقلك، فعندها تحلّ ببنى أمية اللعنة، وتمطر السماء رماداً ودماً، ويبكى عليك كلّ شىء حتى الوحوش فى الفلوات والحيتان فى البحار) [۲۱۳] .

وظل الإمام الحسن (عليه السلام) يكابد الألم وقد سيطر السّم على كل أنحاء جسمه حتى أنه شكا لأخيه الحسين (عليه السلام) قائلاً: (يا أخى سقيت السّم ثلاث مرات لم أسق مثل هذه، إنى لأضع كبدى).

يقول جنادة بن أبى أمية: (... ثم انقطع نفسه وأصفر لونه، حتى خشيت عليه، ودخل الحسين (عليه السلام) والأسود بن الأسود عليه، حتى قبّل رأسه بين عينيه، ثم قعد عنده فتسارّا جميعاً فقال أبو الأسود: إنا لله إن الحسن قد نعيت إليه نفسه.

ودنا الإمام الحسين (عليه السلام) من أخيه الحسن (عليه السلام) فوجد أن وجه الإمام (عليه السلام) يميل إلى الاخضرار فقال الإمام الحسين (عليه السلام): مالى أرى لونك إلى الخضرة؟ فبكى الحسن؟ وقال: يا أخى لقد صحّ حديث جدى فىّ وفيك.

ثم تعانقا طويلاً وتعابرا ثم بكيا كثيراً فسأل الإمام الحسين (عليه السلام) أخاه الحسن (عليه السلام) عن حديث رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فقال الإمام الحسن (عليه السلام): (أخبرنى جدّى قال: لما دخلت ليلة المعراج روضات الجنان، على منازل أهل الإيمان رأيت قصرين عاليين متجاورين على صفة واحدة إلا أن أحدهما من الزبرجد الأخضر والآخر من الياقوت الأحمر، فقلت: يا جبرائيل لمن هذان القصران فقال: أحدهما للحسن والآخر للحسين (عليهما السلام). فقلت: يا جبرائيل فلم لا يكونان على لونٍ واحد؟ فسكت ولم يرد جواباً، فقلت لم لا تتكلم؟ قال: حياءً منك. فقلت له: سألتك بالله إلا ما أخبرتنى فقال: أما خضرة قصر الحسن فإنه يموت بالسم ويخضر لونه عند موته، وأما حمرة قصر الحسين فإنه يقتل ويحمر وجهه بالدم.

ثم سكت الإمام الحسن (عليه السلام) وقال كلمته الأخيرة عليكم السلام يا ملائكة ربى ورحمة الله وبركاته وصعدت روحه الطاهرة إلى بارئها، وغاب شخص الإمام (عليه السلام) عن دار الدنيا إلى دار الخلد فى الجنات النعيم) [۲۱۴] .

والمطاف الأخير تشييع جنازة الإمام

تولى الإمام الحسين (عليه السلام) مهمة تغسيل الجسد الطاهر لأخيه الحسن (عليه السلام) وهكذا تكفينه ولفّه، وبعدها حملت جنازة الإمام الحسن (عليه السلام) إلى مسجد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ولمّا وصلوا المسجد اعترض مروان طريق الجنازة للحيلولة دون الدخول بها إلى المسجد، ثم مضى إلى عائشة يحرضها على منع دفن الإمام الحسن (عليه السلام) عند جده، فجاءت عائشة على بغلة

لتمنع دفن الإمام (عليه السلام)، فدنا عبد الله بن عباس منها وزجرها وقال لها: يوم على الجمل ويوم على البغل، أو قال هو أو غيره: تجملت تبغلت وإن عشت تفيلت. فلم تنتهر، بل قامت بتهييج بنى أميهٔ، فأقدموا على رشق جنازهٔ الإمام (عليه السلام) بالسهام، حتى أننا نقرأ فى الزيارهٔ المنقولهٔ عن الإمام الحجهٔ عجل الله فرجه الشريف ـ (يا موالىّ فلو عاينكم المصطفى وسهام الأمهٔ معرفهٔ فى أكبادكم ورماحهم مشرعهٔ فى نحوركم وسيوفهم مولعهٔ فى دمائكم وأنتم بين صريع فى المحراب قد فلق السيف هامته وشهيد فوق الجنازهٔ قد اشتبكت بالسهام أكفانه..) [۲۱۵].

فجرد بنو هاشم السيوف لمواجههٔ سهام بنى أميهٔ، لو لا تدخل الإمام الحسين (عليه السلام) الذى التزم بوصيهٔ أخيه الإمام الحسن (عليه السلام)، ثم أمر الحسين (عليه السلام) بأن تحمل الجنازهٔ إلى البقيع، فمالوا بالجنازهٔ نحو البقيع. وقد اجتمع الناس لجنازته حتى ما كان البقيع يسع أحداً من الزحام وقد بكاه الرجال والنساء سبعاً، واستمر نساء بنى هاشم ينحبن عليه شهراً، وحدّت نساء بنى هاشم عليه [۲۱۶].

وقبل أو يوارى الجثمان الطاهر للإمام الحسن (عليه السلام) دنا منه أخوه محمد بن الحنفيهٔ ونعاه قائلاً: رحمك الله يا أبا محمد، فوالله لئن عزّت حياتك لقد هدّت وفاتك، ونعم الرّوح، روح عمّر به بدنك ونعم البدن، بدن ضمه كفنك، لم لا يكون كذلك وأنت سليل الهدى، وحلف أهل التقوى، ورابع أصحاب الكساء، غذتك كفّ الحق، وربيت فى حجر الإسلام، وأرضعتك ثديا الإيمان، فطب حيّاً وميتاً، فعليك السلام ورحمهٔ الله وإن كانت أنفسنا غير قاليهٔ لحياتك ولا شاكّهٔ فى الخيار لك [۲۱۷] وحينما وضع الإمام الحسين (عليه السلام) جسد أخيه الحسن (عليه السلام) فى لحده أنشأ يقول:

أأدهن رأسى أم تطيب محاسنى
ورأسك معفـــــور وأنت سليب

بكائى يطـــول والدموع غزيرهٔ
وأنت بعـــيد والمـــزار قريب

غريب وأطراف البيوت تحوطه
ألا كلّ مـــن تحت التراب غريب

فليس حريـــب من أصيب بماله
ولكـــنّ من وارى أخاه حريب

فسلام عليك يا أبا محمد يوم ولدت ويوم جاهدت وبلغت ويوم استشهدت ويوم تبعث حياً..
وصلى الله على محمد وآله الطاهرين...

التعليقات

حول زوجات الحسن

لقد تحدث المؤرخون عن زوجات الحسن (علیه السلام) وأكثروا ومال أكثرهم إلى المبالغة فی تعدادهن مبالغة لا تعتمد على أساس معقول، فقال بعضهم أنهن يتراوحن بين الستين والسبعين، وقال البعض الآخر بأنه تزوج بأكثر من مائتين وخمسين امرأة وأن أباه كان يتضجر من ذلك، ووقف بعضهم منه موقفاً يتسم بالاعتدال والتجرد فقال بأن تعدد الزوجات كان شائعاً ومألوفاً بين المسلمين ولم يكن أكثر زواجاً من غيره، وقلّ من مات من أعيان المسلمين عن أقل من أربع زوجات، أما رواية السبعين والتسعين وغيرها من الروايات التی تصفه بأنه مطلاق وأن والده كان يقول: لا تزوجوا ولدی الحسن فإنه مطلاق فلا مصدر لها إلا المدائنی وأمثاله من الكذبة كما يبدو من أسانيدها.

والمدائنی والواقدی وغيرهما من المؤرخين القدامى قد كتبوا التاريخ فی ظل الحكومات التی كانت تناهض أهل البيت وتعمل بكل ما لديها من الوسائل على تشويه واقعهم وانتقامهم، ولم يكن حكام الدولة العباسية بأقل سوءاً وتعصباً من أسلافهم الأمويين، فقد شاركوهم فی وضع الأحاديث التی تسیء إلى العلويين، وكانوا يحقدون على الحسنيين ن بصورة خاصة لأن أكثر الثائرين على الظلم كانوا من أولاد الحسن وأحفاده.

ولما قبض المنصور على عبد الله بن الحسن أحد الحسنيين الثائرين على الظلم والجور خطب فی حشدٍ كبير من الناس ونال من على بن أبی طالب (علیه السلام) ومن الإمام الحسن (علیه السلام) وجميع الطالبين، وكما ممّا قاله: (إن ولد أبی طالب تركناهم والذی لا إله غيره والخلافة ولم تتعرض لهم لا- بقليل ولا- كثير فقام فيها على بن أبی طالب فما أفلح وحكم الحكمين فاختلفت عليه الأمة وافترقت الكلمة، ثم وثب عليه شيعته وأنصاره وثقاته فقتلوه، وقام من بعده الحسن بن على (علیه السلام) فوالله ما كان برجل، لقد عرضت عليه الأموال فقبلها ودس إليه معاوية أنی جاعلك ولی عهدی فخلعه وانسلخ له ممّا كان فيه وسلمه إليه، وأقبل على النساء يتزوج اليوم واحدة ويطلق غداً أخرى، فلم يزل كذلك حتى مات على فراشه.

وفی المجلد الأول من صبح الأعشى أن المنصور كتب إلى النفس الزكية الحسنی كتاباً جاء فيه: (وأفضى أمر جدك إلى الحسن فباعها لمعاوية بخرق ودراهم ولحق بالحجاز واسلم شيعته بيد معاوية فدفع الأمر إلى غير أهله وأخذ مالاً من غير حلّة فإن كان لكم فيها شیء فقد بعتموه وأخذتم ثمنه إلى غير ذلك ممّا كان العباسيون يلصقونه بالحسن (علیه السلام) رداً على الانتفاضات الشعبية التی قادوها رداً على جورهم وطغيانهم. وكما ذكرنا فرواية السبعين رواها المدائنی كما جاء فی شرح النهج ورواية التسعين رواها الشبلنجی فی نور الأبصار، ورواية المائتين وخمسين والثلاثمائة رواها المجلسی عن قوت القلوب لأبی طالب المالكی المتوفی سنة ۳۸۰هـ

وجاء فی الكتاب المذكور كما يروی القرشی عنه فی المجلد الثانی من كتابه الحسن بن على أن الحسن تزوج مائتين وخمسين امرأة وقيل ثلاثمائة وأن عليّاً كان يتضجر من ذلك حياء من أهلهن إذا طلقهن، وكان يقول: (إن حسناً مطلاق فلا تزوجوه، فقال له رجل من همدان: والله يا أمير المؤمنين لننكحنه ما شاء فمن أحب أمسك ومن كره فارق فسر بذلك أمير المؤمنين وأنشأ يقول:

لو كنت بواباً على باب جنة

لقلت لهمدان ادخلوا بسلام)

ومضى فی قوت القلوب يقول: وهذا أحد ما كان الحسن يشبه فيه جده رسول الله، وهو يشبهه فی الخلق، وقد قال له جده: أشبهت خلقی وخُلقی، وقال: حسن منی وحسين من على، واضاف إلى ذلك أن الحسن كان ربما عقد على أربع وطلق أربعاً.

وعلى ما يبدو أن الذين ألصقوا بالحسن كثرة الزواج والطلاق هؤلاء الثلاثة المدائنی والشبلنجی وأبو طالب المكی فی قوت القلوب، وعنهم أخذ المؤرخون والكتاب من السنة والشيعة والمستشرقون، أما على بن عبد الله البصری المعروف بالمدائنی والمعاصر للعباسيين فهو من المتهمين بالكذب فی الحديث.

وجاء فى ميزان الاعتدال للذهبى أن مسلماً فى صحيحه قد امتنع عن الروايۀ عنه، وأن ابن عدى قد ضعفه، وقال له الأصمعى: والله لتتركن الإسلام وراء ظهرك، وكان من خاصۀ أبى إسحاق الموصلى، وقد تبعه لثرائه، ويروى عن عوانۀ بن الحكم المتوفى سنۀ ۱۵۸ هـ والمعروف بولائه لعثمان والأمويين.

ونص ابن حجر فى لسان الميزان أن عوانۀ كان يضع الأخبار لبنى أميۀ، وجاء فى معجم الأدباء انه كان مولى لسمرۀ بن حبيب الأموى، أما صاحب لسان الميزان فقد قال: أنه كان مولى لعبد الرحمن بن سمرۀ ابن حبيب الأموى، هذا بالإضافۀ إلى أن أكثر رواياته من المراسيل، كل ذلك ممّا يبعث على الاطمئنان بأن روايۀ السبعين التى لم يروها غير المدائنى من موضوعاته لمصلحۀ أعداء العلويين.

أما روايۀ التسعين فقد أرسلها الشبلنجى فى كتابه نور الأبصار ولم ينسبها لأحد، والشبلنجى فى كتابه المذكور لم يتحر الصحيح فى مورياته وأخباره كما يبدو ذلك للمتشبع فيه، والمرسل إذا لم يكن مدعوماً بشاهد من الخارج أو الداخل للاستدلال، فى حين أن الشواهد والقرائن ترجح بأنه من صنع الحاقدين على أهل البيت.

وأما روايۀ المكى فى قوت القلوب فهى أقرب إلى الأساطير من غيرها لأنها لم ترد على لسان أحد من الرواۀ وأبو طالب المكى كان مصاباً بالهستيريا، كما نص على ذلك معاصروه وحينما وفد على بغداد وجد البغداديون فى حديثه هذياناً (ليس على المخلوق اضر من الخالق). ويبيح استماع الغناء ولما عاتبه عبد الصمد بن على أنشد:

فيا ليل كم فيك من متعۀ

ويا صبح ليتك لم تقرب

ومن شذوذه كما جاء فى البدايۀ والنهايۀ لابن كثير، والكنى والألقاب للقمى: (أنه أوصى أحد أصحابه إن غفر الله له إن ينثر على جنازته لوزاً وسكراً وجعل العلامۀ على ذلك أن يقبض على يد صديقه ساعۀ الاحتضار، فقبض على يده فى تلك الساعۀ ونفذ صديقه ما أوصاه به).

وقد روى فى البحار كما جاء فى كتاب القرشى انه لما توفى الحسن (عليه السلام) خرجت جمهرۀ من النساء حافيات حاسرات وهن يقلن: نحن زوجات الحسن، على أن بعض المغفلين من الشيعۀ قد تقبلوا هذه المرويات ظناً منهم أن ذلك فضيلۀ للحسن ودليل على ثقۀ الناس به، كما يظهر ذلك من الشيخ راضى آل ياسين فى كتابه صلح الحسن، وقد أشار فى كتابه المذكور إلى انه كان يحلل المطلقات ثلاثاً لأزواجهن، ولا يثق الأزواج بغيره فى هذه المهمۀ، فأساء إلى الإمام الحسن وإلى أهل البيت (عليهم السلام) من حيث لا يقصد، وفى الوقت ذاته أتاح لبعض الجهلۀ من الشيعۀ والحاقدين من غيرهم أن يتناولوه بالنقد والتجريح وأن يلصقوا به ما لا يرضاه لنفسه كرام الناس فضلاً عن سيد شباب أهل الجنۀ وريحانۀ رسول الله وأشبه الناس به خلقاً وخلقاً كما أجمع على ذلك الرواۀ والمحدثون.

على أن المدائنى نفسه الذى ادعى أنه تزوج بسبعين، قد أحصى له عشر نساء لا غير وعدهن بأسمائهن كما جاء فى المجلد الرابع من شرح وزواجه من عشر نساء ليس بغريب فى ذلك العصر لأن الزواج كان مألوفاً ومتعارفاً بين الصحابۀ والتابعين، وقد مات كل من الزبير وعبد الرحمن بن عوف وطلحۀ عن أربع زوجات عدا مطلقاتهم كما نص على ذلك أكثر المؤرخين [۲۱۸].

حول مذكرۀ المصريين لعثمان

رأى الوفد المصرى أن يرفع مذكرۀ لعثمان يدعوه فيها إلى التوبۀ والاستقامۀ فى سياسته وسلوكه وهذا نصها:

(أما بعد: فاعلم أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فالله، الله، ثم الله الله، فإنك على الدنيا فاستقم معها آخرۀ، ولا تنسى

نصيبك من الآخرة، فلا تسوغ لك الدنيا، واعلم إنا لله ولله نغضب، وفى الله نرضى، وإنا لن نضع سيوفنا عن عواتقنا حتى تأتينا منك توبة مصرحة، أو ضلالة مجلحة [۲۱۹] مبلجة فهذه مقالتنا لك، وقضيتنا إليك والله عذيرنا منك والسلام..) [۲۲۰].

واضطرب عثمان، وقرأ الرسالة بإمعان وقد أحاط به الثوار فبادر إليه المغيرة وطلب منه الإذن بالكلام معهم فأذن له ولما قرب منهم صاحوا به:

(يا أعور وراءك)

وصاحوا به ثانياً: (يا فاجر وراءك)

وصاحوا به ثالثاً: (يا فاسق وراءك).

ورجع المغيرة خائباً مهاناً قد أخفق فى سفارته، ودعا عثمان عمرو بن العاص وطلب منه أن يكلم القوم، فمضى إليهم وسلم عليهم فلم يردوا عليه السلام لعلمهم بفسقه وفجوره، وقالوا له:

(ارجع يا عدو الله)

(ارجع يا بن النابغة، لست عندنا بأمين ولا مأمون).

ورجع خائباً فى وفادته، لم يستحب له القوم، وقابلوه بمزيد من التوهين والاستخفاف. [۲۲۱].

حول معاوية بن أبى سفيان

لم يستعمل عثمان معاوية على الشام والياً وإنما استعمله عمر وأقره عثمان عليها ولكنه زاد فى نفوذه وبسط فى سلطانه، ومهد له الطريق فى نقل الخلافة الإسلامية إليه يقول طه حسين:

(وليس من شك فى أن عثمان هو الذى مهد لمعاوية ما أتيح له من نقل الخلافة ذات يوم إلى آل أبى سفيان، ومثبتها فى بنى أمية فعثمان هو الذى وسع على معاوية فى الولاية فضم إليه فلسطين وحمص وأنشأ له وحدة شامية بعيدة الأرجاء، وجمع له قيادة الأجناد الأربعة، فكانت جيوشه أقوى جيوش المسلمين، ثم مدّ له فى الولاية أثناء خلافته كلها كما فعل عمر، وأطلق يده فى أمور الشام أكثر مما أطلقها عمر. فلما كانت الفتنة نظر معاوية فإذا هو أبعد الأمراء بالولاية عهداً، وأقواهم جنداً، وأملكهم لقلب الرعيّة) [۲۲۲] ، إن عثمان هو الذى مد فى سلطان معاوية، وزاد فى سعة ولايته، وبسط له النفوذ حتى كان من أقوى الولاة، وأعظمهم نفوذاً، وأصبح قطره من أهم الأقطار الإسلامية وأمنعها، وأكثرها هدوءاً واستقراراً.

وقد علق السيد مير على الهندى على ولاة عثمان بقوله: (كان هؤلاء هم رجال الخليفة المفضلين، وقد تعلقوا بالولايات كالعقبان الجائعة، فجعلوا ينهشونها، ويكدسون الثروات منها بوسائل الإرهاق التى لا ترحم) [۲۲۳].

حول الخوارج

اشاره

نشأت هذه الفرقة بصفّين عندما طلب معاوية التحكيم من على (عليه السلام) وهى خديعة استعملها معاوية بن أبى سفيان ودلّه عليها عمرو بن العاص عندما أحسّ بالهزيمة ولمس الضعف فى جيشه وعرف تفوق علىّ بحقه وأن الحق مع علىّ (عليه السلام) وقد انضم لجيشه رجال مخلصون قد رسخ الإيمان فى قلوبهم أراد معاوية أن يوقع الشك ويُحدث الفرقة فى صفوف جيش على وقد وقع ما أراد معاوية فقد نفرت طائفة لم يتركز الإيمان فى قلوبهم ومرقوا من الدين فأصبحت شعار هذه الطائفة الخوارج.

والخوراج، يسمون الشراة والحرورية، والمحكمة، ويجمعهم إكفار عثمان وعلى كل من أتى كبيرة وأصول فرقهم خمس: الأزارقة،

والأباضية، والصفرية، والبيهسية، والنجدات. ثم تشعبوا. وأنشأ مذهبهم عند التحكيم عبد الله بن الكوا وعبد الدين وهب، ومن مصنفيهم أبو عبيد، وأبو الضياء وغيرهما [۲۲۴] .

وذكر للخوارج فرق كثيرة قاربت العشرين فرقة على حسب اختلافهم فى الآراء واهم فرقهم المشهورة:

الازارقة

وهم أتباع نافع بن الأزرق وكان من أكبر فقهائهم وقد كفّر جميع المسلمين وقال إنه لا يحل لأحد من أصحابه أن يجيب أحداً من غيرهم إذا دعاهم إلى الصلاة ولا- أن يأكلوا من ذبائحهم ولا- أن يتزوجوا منهم ولا- يتوارث الخارجى وغيره وهم مثل كفّار العرب وعبدة الأوثان لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف ودارهم دار حرب ويحلّ قتل أطفالهم ونسائهم ولا تحل التقية واستحل الغدر بمن خالفه وكان أصحاب نافع من أقوى فرق الخوارج وأكثرهم عدداً خرجوا من البصرة معه فتغلبوا على الأهواز وما وراءها من بلدان فارس وكرمان وقتلوا عمّال تلك النواحى واشتدت شوكتهم ووقعت حروب بينهم وبين الدولة الأموية بما لا يسع المجال لذكرها.

النجدات

وهم أتباع نجدة بن عامر الحنفى وهم الذين خالفوا نافعاً وانفردوا بتعاليم منها أن المخطئ بعد أن يجتهد معذور وإن الدين أمران معرفة الله ومعرفة رسوله ومن أداه اجتهاده إلى استحلال حرام أو تحريم حلال فهو معذور.

الأباضية فى المغرب وسلطنة عمان:

وهم أتباع عبد الله بن أباض التميمى الذى خرج أيام مروان الحمار آخر ملوك بنى أمية ولا يزال أتباعه إلى اليوم فى المغرب العربى دولة الملك الحسن الثانى وهم فرق البقية من جميع فرق الخوارج الكثيرة التى انقرضت ولم تبق منهم باقية إلا- الأباضية وهم على عقيدتهم فى تكفير جميع المسلمين ويعتذرون عنهم بأنهم يذهبون إلى تكفيرهم لا على سبيل الشرك بل يرون أنهم كفاراً ولا يحل من غنائمهم فى الحرب إلا الخيل والسلاح ولا يزال الأباضيون يؤلفون جماعات عديدة فى أفريقيا الشمالية ويوجد فريق آخر بزنجبار بأفريقية الشرقية أما الوطن الأصلى للأباضيين الذين يهاجرون إلى أفريقيا الشرقية فهو بلاد عمان.

اليزيدية

وهم أتباع يزيد بن أنسية الخارجى وادّعوا أن الله سبحانه وتعالى يبعث رسولاً من العجم ينزل عليه كتاباً ينسخ الشريعة المحمدية.

الميمونية

أتباع ميمون العجردى وأظهروا عقائد المجوس فكانوا يبيحون نكاح بنات الأولاد وبنات الأخوة وبنات أولاد الأخوات. وتقسم الأباضية ذاتها إلى ثلاثة شعب هى الحفصية والحارثية واليزيدية.

الصفرية

وهم أتباع زياد بن الأصفر ومن زعماء الصُفرية أبو هلال مرادس الذى خرج أيام يزيد بن معاوية بناحية البصرة على عبيد الله بن زياد ومنهم عمران ابن حطان وقد انتخبه الخوارج اماماً لهم وهو القائل بمدح عبد الرحمن بن ملجم المرادى اللعين.

يا ضربة مـــن منيب ما أراد بها

إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا

إنى لأذكره يـــوماً فـــاحسبه
أوفـــى البـــرية عند الله ميزانا

وأجابه جماعة منهم عبد القادر البغدادى المتوفى ۴۲۹هـ:

يا ضربة من كفور ما استفاد بها
إلا الجـــزاء بما يصليه نيرانا

إنى لألعنه دنـــياً وألـــعن من
يرجـو له أبـــداً عفواً وعفرانا

ذاك الشقىّ لأشقى الـــناس كلهم
أخفـــهم عند رب الناس ميزانا

وعمران بن حطان قد خرّج حديثه البخارى ووثقه وهذا من مزايا صحيحة وامتيازه.

العجاردة

وهم أتباع عبد الكريم بن عجرد وكانت العجاردة مفترقة عشرة فرق ثم افترقوا فرقاً كثيرة هذا جملة القول فى أهم الفرق الخوارج وقد بلغت عشرين فرقة وكل فرقة تخالف الأخرى فى تعليمها وآرائها إلا أنهم اتفقوا على النظريتين الأولى تكفير على وعثمان وأصحاب الجمل والحكمين الثانية اعترفوا بصحة خلافة الشيخين والخوارج مع عظم إجرامهم لا يوصفون بما وصف به الشيعة كتاب المرتزقة من أمثال احمد ايمن والشيخ زهو وأبو زهرة والخطيب محب الدين صاحب الخطوط العريضة ويتجرأون على الشيعة بالعبارات القبيحة والألفاظ المستهجنة لأن جرمهم أنهم الشيعة يوالون عليّاً وأولاده صلوات الله عليهم جميعاً.

وبدون شك أن حركة الخوارج من أكبر العوامل التى هددت المسلمين بأخطار كثيرة وقد اتخذوا تكفير جميع فرق المسلمين والمالكى والحنبلى والشافعى وغيرهم [۲۲۵] .

والخوارج وابتدعوا مذهباً جديداً فى الإسلام، واصطنعوا لمذهبهم أصولاً وفروعاً وقالوا: ليس منّا إلا من يعتقد بالدرجة الأولى بأن كلاً من عثمان وعلىّ ومعاوية، وكذلك من رضى بالتحكيم، جميعهم كفار على السواء، ونحن أيضاً بدورنا كفرنا، ولكننا تبنا، وكل من لا يتوب، لا نعتبره مسلماً أبداً وقالوا أيضاً: إن الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، مسألة مطلقة، لا تقيد بأى شرط فيجب القيام ضد الإمام الجائر، ايّاً كان، وفى كل الظروف ولو حصل اليقين بعدم جدوى هذا القيام! وهذه الفتوى صبغتهم بصبغة بالغة الصنف والخشونة. ووضعوا أصلاً آخر لمذهبهم، يحكى عن جهالتهم وضيق نظرهم فقالوا: إن العمل جزء من الإيمان، وليس لدينا إيماناً منفك عن العمل. فالإنسان لا يصبح مسلماً بتلفظ الشهادتين، بل ينبغى أن يضم إلى ذلك أداء فريضة الصلاة والصيام، والعبادات المفروضة كافة، وكذلك أن لا يشرب الخمر، ولا يلعب القمار ولا يزنى، ولا يكذب، وأن يتجنب الكبائر جميعها، لكى يصح إطلاق

اسم المسلم عليه، وإذا كذب المسلم كذبة واحدة، خرج أصلاً من الإسلام، وأصبح كافراً نجساً، وإذا اغتاب، أو شرب الخمر، ولو لمرة واحدة، وهكذا، فمرتكب الكبيرة عندهم خارج عن دين الإسلام.

واصطنعوا أيضاً سلسلة من الأصول الأخرى، التى يستفاد من مجموعها أنهم اعتبروا أنفسهم المسلمين الوحيدين على وجه الأرض، وأخرجوا بقية الطوائف بذلك عن حظيرة الإسلام.

وتمردوا واستخدموا أساليب بالغة الخطورة من الغلظة والخشونة ولأنهم لم يكونوا يعتبرون الآخرين من المسلمين، فقد قرروا أن لا يزوجوهم ولا يتزوجوا منهم، وحرموا أيضاً ذبائحهم.

والأكثر من ذلك، أنهم أهدروا دمهم، وجوزوا قتل أطفالهم ونسائهم، وارتكبوا سلسلة من أعمال السلب والنهب، والقتل، ضد المسلمين، وأصبحت أوضاعهم بذلك بالغة الغرابة حقاً.

وكمثال واحد على أعمالهم الإجرامية: إنه كان أحد أصحاب النبى (صلّى الله عليه وآله) يمرّ بمنطقتهم، بصحبة زوجته الحامل، فاعترضوا طريقه، وطلبوا منه أن يتبرأ من على (عليه السلام)، فلم يفعل، فما كان منهم إلا أن قتلوه ابشع قتلة، وبقروا بطن زوجته بالرماح، لأنه بزعمهم كافر، مهدور الدم [۲۲۶].

وبقدر ما كانوا يستبيحون حرمات الآخرين، كانوا يتشددون فوق الحد، فى المحافظة على حرمات أتباعهم، فمثلاً أن جماعة منهم يمرون ببستان نخيل، يتعلق بأحد الموالين لهم، فمد واحد منهم يده واقتطف حبة من التمر، وضعها فى فمه، فما كان منهم إلا أن انهالوا عليه، يهددونه، ويتوعدونه، ويغلظون له القول: لأنه بنظرهم تعدى على مال أخيه المسلم [۲۲۷].

مميزات الخوارج

كان للخوارج عدة مميزات:

واحدة منها: هى الشجاعة الفائقة، وروح الفداء العظيمة التى كانوا يتحلون بها، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن تصرفاتهم كانت تصدر عن عقيدة راسخة، ولهم قصص عجيبة مذكورة فى التاريخ تبين مدى اقدامهم وتضحياتهم فى الحرب.

والميزة الأخرى: أنهم متنسكون يجتهدون كثيراً فى العبادة، وهذا ما أوقع سائر المسلمين فى الشك والشبهة، حيالهم، ولذلك لم يكن أحد غير على (عليه السلام) يمتلك الجرأة على قتلهم.

والميزة الثالثة: هى الجهل الزائد، والحماقة العجيبة التى كانت تسيطر عليهم، وتجعل أفكارهم جامدة متحجرة، ولا يتنازلون عن قناعاتهم الباطلة، أمام الدليل والبرهان.

والميزة الرابعة: وهى الدور الذى مثلوه، ويمثله اليوم أشباههم وهم مع الأسف كثيرون فى عالمنا الإسلامى [۲۲۸].

حول قول الإمام على لجماعته بعد رفع المصاحف

قال (عليه السلام): (فإنى إنما أقاتلهم ليدينوا لحكم الكتاب، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم، ونسوا عهده، ونبذوا كتابه. فقال له مسعر بن فدكى التميمى، وزيد بن حصين الطائى، فى عصابة من القراء، الذين صاروا خوارج بعد ذلك: يا على أجب إلى كتاب الله عز وجل، إذ دعيت إليه، وإلا دفعناك برمتك إلى القوم، أو نفعل بك ما فعلنا بابن عفان) [۲۲۹].

(فقان زيد بن حصين الطائى، وكان من أصحاب البرانس المجتهدين) [۲۳۰].

حول استشهاد الإمام على

كان عبد الرحمن بن ملجم، أحد أولئك التسعة نفر، القديسين الزهاد والذين نجوا من القتل فى معركة النهروان حيث اجتمع هؤلاء

وذهبوا فى يوم من الأيام إلى مكة وأبرموا بينهم عهداً، عند الكعبة المشرفة بأن يغتالوا كُلًا من على (عليه السلام) ومعاوية وعمر بن العاص، لأن هؤلاء الثلاثة ـ بزعمهم ـ هم سبب كل تلك الفتن التى عصفت بالعالم الإسلامى، وبقتلهم وإزالتهم من الساحة، سوف تستتب أمور المسلمين، وانتخبوا من بينهم ابن ملجم، لاغتيال على (عليه السلام) وكان قرارهم أن يكون التنفيذ ليلة التاسع عشر من شهر رمضان [۲۳۱].

يقول ابن أبى الحديد، فى شرح سبب هذا التوقيت بالذات: (ولما كانت ليلة الجمعة التاسعة عشرة من شهر رمضان، ليلة شريفة، يرجى أن تكون ليلة القدر، عينوها لفعل ما يفتقدونه قربة إلى الله، فليعجب المتعجب من العقائد، كيف تسرى فى القلوب، وتغلب على العقول، حتى يرتكب الناس عظائم الأمور وأهوال الخطوب لأجلها!) [۲۳۲].

وجاء ابن ملجم إلى الكوفة، وظل مدة طويلة هناك ينتظر الليلة الموعودة، وفى هذه الأثناء تعرف على فتاة تدعى (قطام)، وكانت خارجية مثله، فعشقها، ووله بها، وربما كان يريد إلى حد ما أن يجول فى ذهنه من أفكار جهنمية، فذهب إليها، وعرض عليها الزواج، فوافقت، ولكن مهرها ثقيل جداً!

فقال لها اطلبى ما تشائين. فقالت: عندى أربعة شروط:

الأول: ثلاثة آلاف درهم. قال: حسناً. قالت: والثانى: عبد. قال حسناً. قالت: والثالث: قينة. قال: حسناً. قالت: وأما الشرط الرابع: فهو رأس على بن أبى طالب!!

هنا اضطرب ابن ملجم، فقد كان يعتقد انه بهذا الزواج إنما يبعد نفسه عن التفكير فى قتل على (عليه السلام)، فقال: وما يشفيك؟ قالت: ثلاثة آلاف وعبد، وقينة، وقتل على بن أبى طالب. قال: هو مهر لك، فأما قتل على فلا أراك ذكرته لى، وأنت تريدينني! قالت: بلى، التمس غرّته، فإن أصبت شفيت نفسك ونفسى، ويهنئك العيش معى، وإن قتلت، فما عند الله خير من الدنيا وزينتها، وزينة أهلها. قال: فوالله ما جاء بى إلى هذا المصر إلا قتل ما سألت [۲۳۳].

فظل عبد الرحمن أياماً يفكر فى أبعاد هذا الأمر، وبعد تنفيذه لجريمته العظمى أنشد ابن أبى مياس المرادى فى قتل على (عليه السلام):

لهم أر مهراً ساقه ذو سماحة
كمهر قط،،ام من فصيح وأعجم

ثلاثة آلاف وعبد وقينة
وضرب على بالحسام المسمّم

فلا مهر أغلى من علىّ وإن غلا
ولا قتل دون قتل ابن ملجم [۲۳۴].

وعندما كان على (عليه السلام) على فراش الموت، كان ينظر إلى تيارين من الأحداث يخلفهما وراءه:

أحدهما: تيار معاوية الذى كان على رأس القاسطين، والمنافقين.

والآخر: تيار القديسين المزيفين، وهم الخوارج المارقون.

وهذان التياران يضاد أحدهما الآخر. فكيف يتصرف أصحاب على (عليه السلام) من بعده؟

يقول على (عليه السلام) فى وصيته: (لا تقاتلوا الخوارج من بعدى، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه) [۲۳۵]، يريد أن يقول: صحيح أن الخوارج قتلونى، ولكن لا تقتلوهم أنتم من بعدى، لأن قتلهم بعد ذلك، لن يكون لصالح الحق والحقيقة وإنما سيكون لصالح معاوية وجماعته.

فتخطر معاوية خطر من نوع آخر، لأن هؤلاء أرادوا الحق، ولكنهم بحمقهم وجهلهم، لم يصلوا إليه، ولكن معاوية منذ البداية، كان يريد الباطل على علم، وقد وصل إلى هدفه.

وهكذا نرى علياً (عليه السلام)، لم يكن يحمل فى قلبه حقداً شخصياً، على أى أحد، وعندما كان يتكلم، فإن كلامه كان موزوناً، وموضوعياً، يهدف من ورائه المصلحة العامة، دون أن يكون للعواطف أى أثر فيه.

وعندما أسروا (ابن ملجم)، وأحضروه إلى أمير المؤمنين، وهو على فراش الموت، تحدث معه الإمام بصوت خافت، من أثر الضربة، فقال له بعتاب: (أى عدو الله! ألم أحسن إليك؟

قال: بلى.

قال: فما حملك على هذا؟

قال: شحذته أربعين صباحاً، وسألت الله أن يقتل به شر خلقه.

فقال على: لا أراك إلا مقتولاً به، ولا أراك إلا من شر خلق الله) [۲۳۶].

وغادر على (عليه السلام)، هذه الدنيا، بعد منتصف ليلة الحادى والعشرين من شهر رمضان المبارك، وكان ذلك فى مدينة الكوفة العظيمة، وكان أهل الكوفة جميعهم، ما عدا تلك الشرذمة الباقية من خوارج (النهروان)، يريدون أن يشاركوا فى تشييع جنازة أمير المؤمنين (عليه السلام).

ولكن ما إن فاضت روحه الشريفة، حتى قام أبناؤه: الحسن والحسين، ومحمد بن الحنفية، وأبو الفضل العباس، ونفر من خواص الشيعة ربما كانوا لا يتجاوزون الستة أشخاص، بغسله وتكفينه سراً، ودفنوه ليلاً فى مكان يبدو أنه (عليه السلام)، كان قد عينه لهم سابقاً، وهو مدفنه الشريف الحالى نفسه، والذى تذكر الروايات أن عدداً من الأنبياء العظام، أيضاً مدفونون فى تلك البقعة نفسها.

ثم أخفوا مكان القبر، ولم يطلعوا أحداً من الناس عليه.

وفى الصباح فقط علم الناس أن أمير المؤمنين (عليه السلام)، دفن ليلة البارحة ولكن أين؟ لا يدرون. وحتى إن بعض المؤرخين كتبوا: أن الإمام الحسن (عليه السلام) أرسل جنازة وهمية إلى المدينة، لكى يظن الناس أنّ جثمان على (عليه السلام) قد تم نقله، ودفن هناك.

وهذا التمويه كان يقصد منه أن لا يقوم، من تبقّى من الخوارج، بالتجاسر على نبش قبر أمير المؤمنين (عليه السلام)، وإخراج الجثمان الشريف، وطالما كان للخوارج وجود، ونفوذ، بين المسلمين.

لم يكن أحد غير أولاد على (عليه السلام)، وأولاد الأئمة الأطهار (عليهم السلام)، يعلم بمكان دفنه (عليه السلام).

وظل الحال كذلك إلى أن انقرض الخوارج بعد مائة عام تقريباً، وبعد أن انقضى عهد بنى أمية، وجاء عهد بنى العباس، وزال من يُخشى انتهاكه لحرمة القبر الشريف، وعندها قام الإمام الصادق (عليه السلام) لأول مرة بإظهار محل قبر أمير المؤمنين (عليه السلام) [۲۳۷].

يقول صفوان الذى نُشاهد اسمه فى سند رواة (دعاء علقمة) الذى يقرأ بعد (زيارة عاشوراء): (كنت عند الإمام الصادق (عليه السلام) فى الكوفة، فجاء بنا إلى بقعة، وقال: هنا قبر على (عليه السلام) وأمرنا أن ننصب عريشاً على القبر، ومن ذلك الوقت أصبح قبر أمير المؤمنين (عليه السلام) معروفاً للناس) [۲۳۸].

الخاتمة

لا نستطيع أن نقول... ونحن نختم هذا البحث ـ بأننا قد أحطنا بشخصية الإمام الحسن بن على بن أبى طالب (عليه السلام) فإن شخصية مترامية الأطراف بعيدة المدى لا يسع البيان أن يسمو إلى أوج عظمتها ولكن الشيء الذى نستطيع أن نقوله: هو أننا لم نقصّر فى البحث بل بذلنا كل ما فى وسعنا من الجهود فاستقصينا أمهات كتب التاريخ والتراجم، حتى أخرجنا هذا البحث الذى يعتبر كثمرة مقتطفة من البحث المتواصل الدقيق الخالص والموصل إلى معرفة الكثيرة من النقاط المهمة فى حياة الإمام الحسن (عليه السلام) والكشف عن وقائع ومواقف وآراء كثيرة ومهمة بحاجة إلى مطالعة وإحاطة بمفرداتها لأنها قراءة فكرية فى حياة الإمام (عليه السلام) التى كانت حياته ـ حسب إخراج المؤرخين ـ مليئة بالدسائس من قبل المغرضين ووعاظ السلاطين فى العصر الأموى والعباسى.

وفى النهاية إن اغتيال الإمام (عليه السلام) بالسّم دليل صارخ بتواجده (عليه السلام) عملاً ونشاطاً دائباً فى بعث الأمة وإنهاضها من جديد. فالإمام لم ينفرد ولم يتخاذل عن قيادة الأمة ومتطلباتها فى الكفاح. ومعاوية أدرك جيداً أن الإمام (عليه السلام) هو صاحب رسالة ومبدأ فلابد أنه عامل لإعطاء رسالته من جهده وعرقه سيادة الحكم بما يبذله من أساليب العمل والتغيير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...

پاورقى

[۱] الكافى: ج۵ ص۶۵، تحف العقول: ص۲۵۶.

[۲] البحار: ج۴۷ ص۵۹، الكافى: ۵ج ص۱۶۶.

[۳] سورة الأحزاب: ۲۱.

[۴] بحار الأنوار: ج۴۵ ص۹.

[۵] تجد ذكر هذه المؤلفات ضمن تراجم مؤلفيها فى كتب الرجال، كفهرست ابن النديم والنجاشى وغيرهما. وستجد معها أسماء كتب أخرى تخص موضوع الحسن (عليه السلام) فى صلحه وفى مقتله. لا ـ نريد الإطالة باستقصائها بعد أن أصبحت أسماء بلا مسميات.

[۶] سورة الكوثر، الآيات: ۱-۳.

[۷] انظر فى رحاب أهل البيت السيد محسن الأمين (رحمه الله) مجلد ۳، ۵، ودراسات فى عقائد الشيعة الإمامية، ص۱۱۲، سيرة الأئمة الاثنى عشر، ج۱، ص۵۱۱.

[۸] صلح الحسن (عليه السلام)، راضى آل ياسين، ص۲۵.

[۹] فى رحاب أئمة أهل البيت، السيد محسن الأمين(رحمه الله)، ص۴، المجلد ۳۵.

[۱۰] صلح الحسن (عليه السلام)، راضى آل ياسين، ص۲۵.

[۱۱] سيرة الأئمة الاثنى عشر، ص۵۱۲.

[۱۲] حول زوجات الإمام الحسن (عليه السلام)، فى قسم التعليقات. التعليقة رقم ۱.

[۱۳] فى رحاب أئمة أهل البيت (عليهم السلام) السيد الأمير المجلد ۳،۵. ص۵.

[۱۴] صلح الحسن (عليه السلام) راضى آل ياسين، ص۲۶، فى رحاب أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، السيد الأمين، ص۶، الفصول المهن ابن الصباغ المالكى.

[۱۵] الإمام الحسن (عليه السلام) فؤاد الأحمد، دار البيان العربى، ص۶.

[۱۶] فى رحاب أئمة أهل البيت (عليهم السلام) السيد الأمين، المجلد۳،۵. ص۵ مصابيح السنة البغوى الحسين بن مسعود.

[۱۷] أعيان الشيعة السيد الأمين، المجلد الأول، ص۵۶۳.

[۱۸] صلح الحسن (عليه السلام)، راضى آل ياسين، ص۲۷.

[۱۹] سيرة الأئمة، هاشم معروف، الجزء الأول، ص۵۱۸. صلح الحسن (عليه السلام)، راضى آل ياسين. ص۲۹،۲۸.

[۲۰] سورة فصلت: ۳۴.

[۲۱] الحمالة هى ما يتحمله الشخص من الدية ولغرامة عن قومه. وغيرهم، والمفظعة الثقيلة الشديدة.

[۲۲] فى رحاب أئمة أهل البيت (عليهم السلام) السيد الأمين المجلد، ۳، ۵. ص۶. عن الصدوق فى الأمالى.

[۲۳] وكان من زهده ما خصص له محمد بن على بن الحسين بن بابويه المتوفى سنة ۳۸۱هـ كتاباً أسماه كتاب زهد الحسن (عليه السلام).

[۲۴] كنز العمال: ج۷، ص۱۰۵.

[۲۵] مستدرك الصحيحين: ج۳، ص۱۶۵.

[۲۶] سورة الشورى: ۲۳.

[۲۷] سفينة البحار: ج۱، ص۲۵۷.

[۲۸] ترجمة ابن عساكر: ص۳۸ ورواه الترمذى فى جزء ۱۳، ص۱۹۸ والبخارى فى صحيحه جزء ۵، ص۳۳ ومسلم جزء۷. ص۱۳۰.

[۲۹] سنن البيهقى: ج۲، ص۲۶۳.

[۳۰] ترجمة الإمام الحسن (عليه السلام)، لابن عساكر، ص۴۰.

[۳۱] ترجمة الإمام الحسن (عليه السلام)، لابن عساكر، ص۹۷.

[۳۲] البداية والنهاية، ابن كثير: ج۸، ص۳۷.

[۳۳] الصواعق المحرقة، ابن حجر: ص۱۳۷، ۱۳۸.

[۳۴] ترجمة الإمام الحسن (عليه السلام)، ابن عساكر، ص۱۵.

[۳۵] ترجمة الإمام الحسن (عليه السلام)، ابن عساكر، ص۱۵.

[۳۶] أسد الغابة، ابن الأثير، الجزء الأول.

[۳۷] مسند أحمد بن حنبل: ج۵، ص۳۶۶.

[۳۸] العوالم فى أحوال الإمام الحسن (عليه السلام).

[۳۹] معالى السبطين.

[۴۰] العوالم فى أحوال الإمام الحسن (عليه السلام).

[۴۱] ترجمة الإمام الحسن (عليه السلام)، ابن عساكر، ص۴۰.

[۴۲] الإصابة: ج۲، ص۱۱.

[۴۳] العوالم الإمام الحسن (عليه السلام): ص۲۹۷.

[۴۴] عوالم العوالم المعارف.

[۴۵] بحار الأنوار، الشيخ المجلسى، ج۴۳، ص۳۳۳.

[۴۶] بحار الأنوار، الشيخ المجلسى، ج۴۳، ص۳۳۳.

[۴۷] سورة آل عمران: ۸۵.

[۴۸] غدير خم: بقعة بين مكة والمدينة منها يتفرق الحجاج كل يذهب إلى بلده.

[۴۹] سورة المائدة: ۶۷.

[۵۰] أخرج لفظ الحديث الطبرانى وابن جرير والحكم الترمذى بسند مجمع على صحته عن زيد بن أرقم، وقد نقله ابن حجر فى كتابه، (الصواعق المحرقة)، عن الطبرانى وغيره باللفظ الذى أعلاه وأرسل صحته إرسال المسلمات. راجع ص۲۵ من الصواعق المحرقة.

[۵۱] ينابيع المودة: للشيخ القندوزى الحنفى، الباب السابع والسبعين، ج۲، ص۴۴۵، عن الشيعة فى عقائدهم.

[۵۲] منتخب الأثر، للطف الله الصافى الكاشانى، ص۱۱۴.

[۵۳] العوالم فى أحوال الإمام الحسن (عليه السلام)، ص۳۵.

[۵۴] ترجمة الإمام الحسن، لابن عساكر، ص ۱۰۰.

[۵۵] العوالم: ص۴۵.

[۵۶] العوالم: ص۵۴.

[۵۷] أخرجه الترمذى وهو الحديث ۸۷۴ من أحاديث كنز العمال، ص۴۴، ج۱، وعلى نسق هذا الحديث أحاديث كثيرة أخرى روتها الصحاح والمسانيد.

[۵۸] بولس سلامة.

[۵۹] قال معاوية فيما كتبه إليه مع أبى إمامة الباهلى: (وتلكأت فى بيعته، (يعنى أبى بكر)، حتى حملت إليه قهراً تساق بخزائم الاقتسار كما يساق الفحل المخشوش!.

[۶۰] نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ج۱، ص۲۹۹.

[۶۱] سيرة الرسول لابن هشام، ج۲، ۱۱۸.

[۶۲] انظر النزاع والتخاصم فيما بين أمية وبنى هاشم للمقريزى تحقيق نوس، ص۴۸.

[۶۳] الإمامة والسياسة ۱، ۴.

[۶۴] على وبنوه، ص۱۹.

[۶۵] الملك والنحل للشهرستانى.

[۶۶] دراسات فى عقائد الشيعة الإمامية محمد على الحسنى، ص ۱۱۰.

[۶۷] شرح نهج البلاغة ابن أبى الحديد، ج۱، ص۱۳۵.

[۶۸] مروج الذهب المطبوع على هامش ابن الأثير ج۵، ص۱۳۵.

[۶۹] فتوح البلدان للبلاذرى، ص۱۰۳.

[۷۰] تاريخ ابن الأثير، ج۲، ص۲۸۹.

[۷۱] الإصابة، ج۲، ص۴۴۴.

[۷۲] تاريخ ابن الأثير، ج۲، ص۲۸۹.

[۷۳] الإمام الحسين (عليه السلام) باقر القرشى، ص۱۱۹.

[۷۴] تاريخ الطبرى، ج۲، ص۲۰۲.

[۷۵] شرح النهج ابن أبى الحديد، ج۱، ص۱۳۳.

[۷۶] شرح النهج ابن أبى الحديد، ج۱، ص۵۵.

[۷۷] شرح النهج ابن أبى الحديد، ج۶، ص۳۴۳، دار إحياء الكتب العربية.

[۷۸] الإمامة والسياسة، ج۱، ص۱۹.

[۷۹] الآداب الشرعية والمنح المرعية، ج۱، ص۴۹.

[۸۰] تاريخ الطبرى، ج۴، ص۵۲.

[۸۱] الإمامة والسياسة، ج۱، ص۱۹، طبقات ابن سعد، تاريخ الطبرى.

[۸۲] الإمامة والسياسة، ج۱، ص۲۰.

[۸۳] مروج الذهب، ج۲، ص۱۹۵.

[۸۴] تاريخ ابن الأثير، ج۲، ص۲۹۰.

[۸۵] شرح النهج لابن أبى الحديد، ج۸، ص۱۱۱.

[۸۶] الخراج، ص۲۴۲.

[۸۷] شرح النهج لابن أبى الحديد، ج ۸، ص۱۱۱.

[۸۸] العصبية القبلية، ص۱۹۰.

[۸۹] الغلو والفرق الغالية فى الحضارة الإسلامية، ص۲۵۱.

[۹۰] اتجاهات الشعر العربى، ص۱۰۸.

[۹۱] الإمام الحسين (عليه السلام) باقر القرشى، ص۲۳۲.

[۹۲] شرح النهج لابن أبى الحديد، ج ۱، ص۷۴.

[۹۳] البرة: حلقة من صفر توضع فى أنف الجمل الشرود فيربق بها جبل يقاد به.

[۹۴] شرح النهج لابن أبى الحديد، ج ۶، ص۳۴۲.

[۹۵] حياة الإمام الحسن بن على (عليه السلام)، باقر القرشى، ج۱، ص۱۷۵.

[۹۶] النهج لابن أبى الحديد، ج ۱، ص۱۶۲.

[۹۷] نهج البلاغة، ج۹، ص۲۹، ۳۰.

[۹۸] نهج البلاغة، ج۹، ص۲۸، طبع دار إحياء الكتب العربية.

[۹۹] نهج البلاغة، ج۹، ص۵۴.

[۱۰۰] الغدير الأمينى، ج۶، ص۸۳، ص۳۳۳.

[۱۰۱] منشم ـ بكسر الشين ـ اسم امرأة بمكة كانت عطارة، وكانت خزاعة وجرهم إذا أرادوا القتال تطيبوا من طيبها، فإذا فعلوا ذلك كثرت القتلى فيما بينهم، فكان يقال؛ (أشأم من عطر منشم) جاء ذلك فى صحاح الجوهرى، ۵/۲۰۴۱، وقد استجاب الله دعاء الإمام فكانت بين عثمان وعبد الرحمن أشد المنافرة والخصومة، وقد أوصى ابن عوف أن لا يصلى عليه عثمان بعد موته.

[۱۰۲] الإمام الحسين بن على (عليهما السلام) باقر شريف القرشى، ج۱، ص۳۳۰.

[۱۰۳] انظر ـ التعليقة ـ رقم۲، حول مذكرة المصريين لعثمان، فى قسم التعليقات.

[۱۰۴] النهابير: المهالك.

[۱۰۵] تاريخ الطبرى، ج۵، ص۱۱۰، الأنساب ج۵، ص۷۴.

[۱۰۶] انظر ـ التعليقة ـ رقم ۳، حول معاوية بن أبى سفيان، فى قسم ـ التلعيقات ـ

[۱۰۷] الكامل لابن الأثير، ج۵، ص۶۷، تاريخ اليعقوبى، ج۲، ص۱۵۲.

[۱۰۸] الفتوح، ج۲، ص۲۱۸.

[۱۰۹] الخطابة فى صدر الإسلام، ج۲، ص۲۳.

[۱۱۰] تمام المتون، ص۷۹.

[۱۱۱] حياة الإمام الحسن (عليه السلام) باقر شريف القرشى، ج۱، ص۲۸۱.

[۱۱۲] حش كوكب: اسم بستان لليهود كانوا يدفنون موتاهم فيه.

[۱۱۳] العقيدة والشريعة فى الإسلام، ص۴۵.

[۱۱۴] وقد حدد الإمام على (عليه السلام) هذه الحقوق فى مناسبة قاسية من مناسبات حياته وذلك بعد صفين فى خطبة له راجع نهج البلاغة، ج۱، ص۱۰۲، ۱۰۵.

[۱۱۵] راجع للتوسع ثورة الحسين، لمحمد مهدى شمس الدين، ص۳۵، ۳۸.

[۱۱۶] نهج البلاغة، ج۱، ص۲۱۷.

[۱۱۷] المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، ص۳۶، خطبة ۹۲، الكامل لابن الأثير: ۳۷، ۱۹۱.

[۱۱۸] انظر ـ التعليقة ـ رقم ۴، حول الخوارج، فى قسم التعليقات.

[۱۱۹] راجع مروج الذهب، ج۳، ص۹۰.

[۱۲۰] قال أمير المؤمنين على (عليه السلام): (... والله لقد دافعت عنه (يعنى عثمان) حتى أنى خشيت أن أكون آثماً). المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة: ص۸۴، الخطبة ۲۴۰.

[۱۲۱] قال أمير المؤمنين (عليه السلام) لعثمان: (... وإنى أنشدك الله ألا تكون إمام هذه الأمة المقتول فإنه كان يقال: يُقتل فى هذه الأمة إمام، يفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة، ويلبس أمورها عليها، ويبث الفتن فيها، فلا يبصرون الحق من الباطل، يموجون فيها موجاً، ويمرجون فيها مرجاً، فلا تكون لمروان سيقه، يسوقك حيث شاء...) المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة: ص۵۷.

[۱۲۲] (... إن عثمان قتل ومعه فى الدار ثمانية عشر رجلاً من بنى أمية، منهم مروان بن الحكم) مروج الذهب: ج۳، ص۹۱.

[۱۲۳] راجع الكامل لابن الأثير: ج۲، ص۱۶۰.

[۱۲۴] انظر ـ تعليقة ـ رقم ۵، حول قول الإمام على (عليه السلام) لجماعته بعد رفع المصاحف، فى قسم التعليقات.

[۱۲۵] سورة الإسراء،الآية:۳۳.

[۱۲۶] راجع جمهرة خطب العرب لأحمد زكى صفوت: ج۱، ص۳۲۷، تاريخ ابن الأثير: ج۳، ص۲۷۷.

[۱۲۷] المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، ص۱۹.

[۱۲۸] المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، ص۴۶.

[۱۲۹] المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، ص۷۵.

[۱۳۰] انظر ـ التعليقة ـ رقم ۴، حول الخوارج، فى قسم التعليقات.

[۱۳۱] نفس المصدر.

[۱۳۲] سورة الزمر: ۶۵.

[۱۳۳] سورة الأعراف: ۲۰۴.

[۱۳۴] سورة الروم: ۶۰. راجع الطبرى: ج۵، ص۷۳.

[۱۳۵] من حياة الأئمة الأطهار (عليهم السلام)، الأستاذ مرتضى المطهرى، ص۳۲.

[۱۳۶] تاريخ الطبرى، ج۵، ص۷۳.

[۱۳۷] المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة: ص ۳۶.

[۱۳۸] راجع كتاب الأئمة الاثنا عشر دراسة وتحليل، عادل الأديب، ص۶۹.

[۱۳۹] نهج البلاغة، ج۱، ص۲۱۷.

[۱۴۰] نهج البلاغة، ج۱، ص۵۹، وشرح النهج جزء ۱ ص۲۶۹، ۲۷۰.

[۱۴۱] شرح نهج البلاغة، ج۷، ص۳۷، ۳۹، ۴۰.

[۱۴۲] نفس المصدر.

[۱۴۳] نهج البلاغة، ج۷.

[۱۴۴] النظم الإسلامية نشأتها وتطورها. رسول الله (صلّى الله عليه وآله). صبحى الصالح، ص۹۱.

[۱۴۵] اليمين واليسار فى الإسلام، احمد عباس صالح ۱۱۸, ۱۱۹.

[۱۴۶] حياة الإمام الحسن (عليه السلام)، للقرشى: ج۱، ص۲۶۹.

[۱۴۷] مروج الذهب: ج۲.

[۱۴۸] مروج الذهب: ج۲، ص۴۰۴.

[۱۴۹] نهج البلاغة، صبحى الصالح: ص۸۲.

[۱۵۰] انظر ـ التعليقة رقم ۶ ـ حول استشهاد الإمام على (عليه السلام) فى قسم التعليقات.

[۱۵۱] الأغانى، ج۱، ص۲۱.

[۱۵۲] شرح النهج ج۴، ص۱۰۷.

[۱۵۳] تاريخ اليعقوبى، ج۲، ص۱۹۰، ابن الأثير ج۳، ص۱۶، ومقاتل الطالبين.

[۱۵۴] سورة الشورى: ۲۳.

[۱۵۵] سورة الشورى: ۲۳.

[۱۵۶] يرجع فيما ذكرناه هنا إلى شرح النهج لابن أبى الحديد، ج۴، ص۱۱ وذكر غيره مكان عبيد الله أخاه عبد الله. وسنشير فيما بعد إلى أن عبد الله لم يكن فى الكوفة أيام بيعة الحسن (عليه السلام).

[۱۵۷] روى هذه الخطبة هشام بن حسان. وقال: إنها بعض خطبته بعد البيعة له بالأمر، البحار، ج۱۰، ص۹۹ والمسعودى.

[۱۵۸] وروى هذا النص أكثر المؤرخين.

[۱۵۹] شرح النهج لابن أبى الحديد: ج۴، ص۱۱.

[۱۶۰] كلمة الإمام الحسن (عليه السلام) السيد حسن الشيرازى: ص۱۰۸، ۱۱۰.

[۱۶۱] شرح النهج لابن أبى الحديد: ج۴، ص۱۲.

[۱۶۲] شرح النهج لابن أبى الحديد: ج۴، ص۱۳.

[۱۶۳] أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين، المجلد الأول.

[۱۶۴] سورة آل عمران: ۴۴.

[۱۶۵] الإرشاد، الشيخ المفيد، ص۷.

[۱۶۶] شرح ابن أبى الحديد: ج۶، ص۴۲.

[۱۶۷] تاريخ اليعقوبى: ج۲، ص۱۹۱.

[۱۶۸] مقاتل الطالبين: ص۳۵.

[۱۶۹] معالى السبطين للحائرى: ص۲۱.

[۱۷۰] بحار الأنوار، ج۴۴.

[۱۷۱] أعيان الشيعة: ج۱، ص۳۵.

[۱۷۲] الروائع المختارة من خطب الإمام الحسن (عليه السلام): ص۵۹.

[۱۷۳] معالى السبطين للحائرى.

[۱۷۴] نهج البلاغة، د. صبحى الصالح: ص۶۹.

[۱۷۵] الكامل فى التاريخ، لابن الأثير: ج۳، ص۲۰۴.

[۱۷۶] بحار الأنوار، الشيخ المجلسى، ج۴۴.

[۱۷۷] كلمة الإمام الحسن (عليه السلام)، السيد حسن الشيرازى: ص۹۴.

[۱۷۸] كلمة الإمام الحسن (عليه السلام)، السيد حسن الشيرازى: ص۹۴.

[۱۷۹] كلمة الإمام الحسن (عليه السلام): ص۸۲، ۸۳.

[۱۸۰] المقطع الأخير من كلام الإمام (عليه السلام) إشارة إلى عهد الإمام الحجة (عجل الله تعالى فرجه الشريف).

[۱۸۱] كلمة الإمام الحسن (عليه السلام): ص۱۱۲.

[۱۸۲] كلمة الإمام الحسن (عليه السلام) ص۱۱۲، ۱۱۴. مع تعديل طفيف فى ترتيب المقطع الأخير.

[۱۸۳] الغدير: ج۵، ص۲۹۴.

[۱۸۴] الغدير: ج۱، ص۳۱۲.

[۱۸۵] الصواعق المحرقة: ج۲، ص۳۲.

[۱۸۶] الصواعق المحرقة: ج۲، ص۳۲.

[۱۸۷] الصواعق المحرقة: ج۲، ۳۲.

[۱۸۸] الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ص۲۰۰.

[۱۸۹] أعيان الشيعة: المجلد الأول، ص۵۷۰.

[۱۹۰] الإرشاد للمفيد: ص۱۹۱.

[۱۹۱] سورة الأنبياء: ۱۰۹-۱۱۰.

[۱۹۲] سورة الأنبياء: ۱۱۱.

[۱۹۳] بحار الأنوار، المجلس، ج۱۰، ص۱۱۴ طبعة قديمة.

[۱۹۴] المسعودى هامش ابن الأثير، ج۶، ص۶۱، ۶۲.

[۱۹۵] بحار الأنوار، المجلسى: ج۴۴، ص۲۳.

[۱۹۶] سورة هود: ۱۷.

[۱۹۷] الإمام الحسن (عليه السلام)، فؤاد الأحمد، ص۱۰۳.

[۱۹۸] الإمام الحسن (عليه السلام)، فؤاد الأحمد، ص۱۰۳.

[۱۹۹] سورة الواقعة، الآيتان: ۱۰-۱۱.

[۲۰۰] سورة الحديد: ۱۰.

[۲۰۱] سورة الحشر: ۱۰.

[۲۰۲] سورة التوبة: ۱۰۰.

[۲۰۳] سورة التوبة: ۱۹.

[۲۰۴] جلاء العيون، ج۱۱، ص۳۴۹، ۳۵۴.

[۲۰۵] كلمة الإمام الحسن (عليه السلام): ص۹۳، ۹۴.

[۲۰۶] كلمة الإمام الحسن (عليه السلام): ص۱۰۰، ۱۰۱.

[۲۰۷] كلمة الإمام الحسن (عليه السلام): ص۱۰۱-۱۰۲.

[۲۰۸] كلمة الإمام الحسن (عليه السلام)، ص۱۰۲.

[۲۰۹] كلمة الإمام الحسن (عليه السلام)، ص۱۰۰.

[۲۱۰] بحار الأنوار، المجلسى، ج۴۴.

[۲۱۱] بحار الأنوار: ج۴۴، ص۱-۲.

[۲۱۲] الإمام الحسن القائد والتاريخ، فؤاد الأحمد، ص۲۴۶.

[۲۱۳] أمالى الصدوق: ص۱۰۱.

[۲۱۴] معالى السبطين، الحائرى، ص۴۷.

[۲۱۵] معالى السبطين، الحائرى، ص۳۷.

[۲۱۶] البداية والنهاية، ابن كثير: ج۸، ص۴۴.

[۲۱۷] تاريخ اليعقوبى، المجلد الثانى، ص۲۲۵.

[۲۱۸] راجع كتاب (سيرة الأئمة الإثنى عشر) الجزء الأول، ص۶۱۷.

[۲۱۹] مجلحة: مشتق من جلح على الشىء اقدم عليه.

[۲۲۰] تاريخ الطبرى، ج۵، ص۱۱۱، ۱۱۲، الأنساب ج۵، ص۶۴، ۶۵.

[۲۲۱] حياة الإمام الحسين بن على (عليهما السلام)، باقر القرشى، الجزء الأول، ص۳۸۲، ۳۸۳.

[۲۲۲] الفتنة الكبرى، طه حسين، ج۱، ص۱۲۰.

[۲۲۳] روح الإسلام، ص۹۰.

[۲۲۴] المنية والأمل فى شرح الملل والنحل لأحمد بن المرتضى السمانى: ص۲۶.

[۲۲۵] عقائد الإمامية الإثنى عشرية، إبراهيم الموسوى الزنجانى الحنفى، ج۳، ص۱۹۷، ۱۹۸.

[۲۲۶] هو عبد الله بن خباب وكانت زوجته وهى حامل، معه (راجع تفاصيل القصة فى تاريخ الطبرى: ج۵، ص۸۲. على بن أبى طالب، عبد الكريم الخطيب، ص۵۳۳.

[۲۲۷] تاريخ الطبرى: ج۵، ص۸۲.

[۲۲۸] من حياة الأئمة الأطهار (عليهم السلام)، الشهيد مطهرى، ص۳۶.

[۲۲۹] الكامل فى التاريخ لابن الأثير: ج۳، ص۲۱۶.

[۲۳۰] راجع وقعة صفين لنصر بن المنقرى: ص۹۹، تاريخ الطبرى: ج۵، ص۴۹.

[۲۳۱] تعاهد ثلاثة من الخوارج، أو كلف ثلاثة منهم بقتل على (عليه السلام) ومعاوية، وعمرو بن العاص، وتواعدوا واتفقوا على أن لا ينكص رجل منهم عن صاحبه، الذى يتوجه إليه، حتى يقتله، أو يقتل دونه، وهم عبد الرحمن بن ملجم، وكان من (تجيب)، وكان عدادهم فى مراد، فنسب إليهم، وحجاج بن عبد الله الصريمى، ولقبه (البرك) وزادويه مولى بنى العنبر... واتعدوا أن يكون ذلك ليلة سبع عشرة من شهر رمضان، وقيل ليلة إحدى وعشرين (راجع المسعودى: ج۳، ص۱۶۴، الكامل لابن الأثير: ج۳، ص۲۸۹، الطبرى:

ج۵، ص۱۴۴).

[۲۳۲] شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد المعتزلى: ج۶، ۱۱۶.

[۲۳۳] تاريخ الطبرى: ج۵، ص۱۴۴.

[۲۳۴] المصدر السابق: ج۵، ص۱۵۰.

[۲۳۵] العجم المفهرس: ص۲۶.

[۲۳۶] الكامل فى التاريخ لابن الأثير: ج۳، ص۳۹۰.

[۲۳۷] قال ابن الأثير فى تاريخه (الكامل): (ولما قتل على (عليه السلام)، دفن عند مسجد الجماعة، وقيل فى القصر، وقيل غير ذلك. والأصح أن قبره هو الموضع الذى يزار، ويتبرك به). (الكامل: ج۳، ص۳۹۶). وقال الطبرى وابن سعد: ودفن عند مسجد الجماعة فى قصر الإمارة، (الطبرى: ج۵، ص۱۵۲، طبقات ابن سعد: ج۶، ص۱۲. أقول: قصة مدفنه (عليه السلام) فى الغرى فى منطقة النجف القريبة فى الكوفة، مشهورة جداً، ولا حاجة بنا إلى تخريفات كثير من المؤرخين الذين كانوا فى القديم أتباعاً للسلطات الظالمة. (راجع على من المهد إلى اللحد للسيد كاظم القزوينى: ص۵۹۹). وروى المجلسى فى (البحار) قال: (عن الحسن بن على الحلال عن جده قال: قلت للحسين بن على (عليه السلام): أين دفنتم أمير المؤمنين (عليه السلام)؟ قال: خرجنا به ليلاً من منزله، حتى مررنا به على منزل الأشعث، حتى خرجنا به إلى الظهر بجنب (الغرى) قلت: وهذه الرواية هى الحق، وعليها العمل، وقد نقلنا فيما تقدم إنّ أبناء الناس أعرف بقبور آبائهم من غيرهم من الأجانب، وهذا القبر الذى بالغرى، هو الذى كان بنو علىّ يزورونه قديماً وحديثاً ويقولون: هذا قبر أبينا، لا يشك أحد فى ذلك من الشيعة، ولا من غيرهم أعنى بنى علىّ من ظهر الحسن والحسين، وغيرهما من سلالته، المتقدمين منهم. والمتأخرين ما زاروا ولا وقفوا إلا على هذا القبر بعينه). البحارك ج۴۲، ص۳۳۸).

[۲۳۸] راجع البحار: ج۴۲، ص۳۳۹.

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت

–عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ– فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ أُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ أُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵–۲۳۵۷۰۲۳– (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِى الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ ولىّ التوفيق.

مركز القائمية اصفهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹